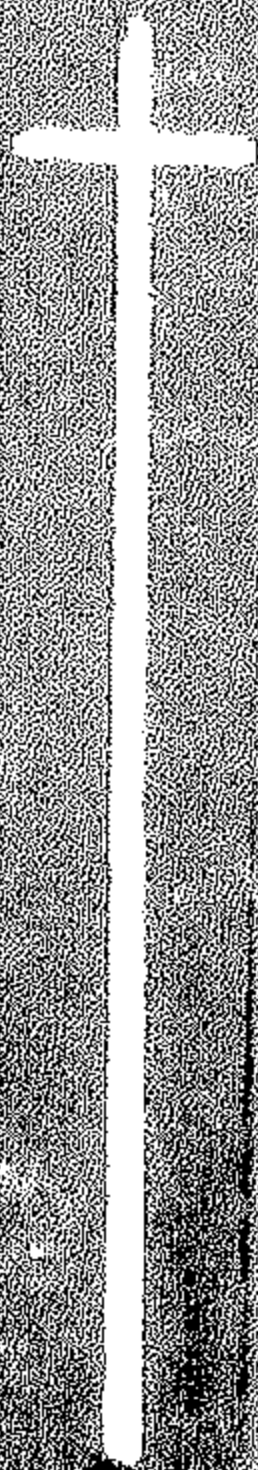


نتائج الكنتيسة

الجزء الرابع



راميل

اهداءات ٢٠٠١

دار الثقافة

الهيئة الإنجيلية والقبطية

تاريخ الكنيسة

الجزء الرابع

الدكتور القس جون لوريمر

ترجمة: عزرا مرجان



دار الثقافة

طبعة أولى

صدر عن دار الثقافة - ص . ب ١٢٩٨ - القاهرة
جميع حقوق الطبع محفوظة للدار (فلا يجوز أن يستخدم إقتباس أو إعادة
نشر أو طبع بالرونيو للكتاب أو أى جزء منه بدون إذن الناشر ، وللناشر
وحده حق إعادة الطبع) ١٠ / ٤٩٢ - ط ١ / ٥ - ٥ / ٩٠
رقم الإيداع بدار الكتب : ٨٨٦٩ / ١٩٩٠
جمع فى سيورس .
طبع بمطبعة دار نوبار للطباعة - شبرا - القاهرة .

هذا الكتاب نهديه إلى ابنتنا المحبوبة

كاترين آن لوريير

التي عاشت معظم أيام حياتها في مصر

وأحبت شعب مصر

جون وماري لويز لوريير

مقدمة المجلد الرابع

هذا الكتاب موجه أولاً إلى طلبة القطاع البروتستانتى فى الديانة المسيحية، وبصفة خاصة إلى أولئك المنتمين إلى جذور مشيخية. من أجل ذلك استحسن المؤلف ألا يعالج بالتفصيل حقبة تاريخ الكنيسة ما بين القرن السادس والقرن السادس عشر، والمعروفة عادة بالعصر الوسيط أو العصور الوسطى. لذلك استغنینا عن الكثير من المغزى التاريخى لتلك الفترة، مثال ذلك ظهور الإسلام -التطورات فى الكنيسة الشرقية- الحروب الصليبية، الخ. لكن الجزء الأول من هذا الكتاب مخصص كله لأحداث وتطورات مختلفة فى الكنيسة الغربية على مدى العصر الوسيط، تلك التى أسفرت أخيراً عن الإصلاح البروتستانتى. فضلاً عن أنه بسبب التركيز على فروع الكنائس المصلحة والمشيخية لم يتتبع المؤلف بنفس التفصيل، التاريخ الأسقفى واللوثرى.

يستحق الشيخ عزرا مرجان الكثير من التقدير من أجل ترجمته الواضحة الدقيقة لفصول الكتاب.

المؤلف

محتويات الكتاب

الصفحة

الموضوع

١- إصلاح القرن السادس عشر

الظروف والتطورات التي أدت إلى الإصلاح البروتستانتي..... ٢٤

القادة الذين نادوا بالإصلاح - المسرح معد للإصلاح - أسباب انفصال الكنائس الشرقية والغربية - مجمع فيرارو - لماذا لا إصلاح في الشرق.

أولاً: انحدار البابوية ٢٧

البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة - البابا جريجوري السابع والملك هنري الرابع - البابا أعلى من البشر لكن أوطى من الله - الدولة تستمد سلطتها من الكنيسة - «انوسنت» الثالث يفرض إرادته على الملك جون - السلطة المطلقة البابوية على كل الناس - فيليب ملك فرنسا يتحدى البابا - البابوية في مدينة «افينيون» - بابوات «افينيون» انشغلوا بالعمل الدنيوي - «بيترارك» ينتقد بابوية «افينيون» - بابا في روما، بابا في «افينيون» - مجمع «بيزا» - مجمع «كونستانس» - الشقاق ينتهي - مجمع «بازل» - بابوية دنيوية - البابا «سيكستوس» الرابع - البابا «انوسنت» السابع - البابا الكسندر السادس - البابا «ليو» العاشر - البابوية والمال - بيع صكوك الغفران - صكوك الغفران جزء من نظام أعمال التوبة - صكوك الغفران والمتاجرة بالرتب الكهنوتية.

ثانياً: تحركات الإصلاح قبل الإصلاح النعلى ٤٢

الكاثاريون (المتطهرون) Cathari - الوالدنيون Waldensians. الكلونيون Cluniacs - والسيستريون Cistercians - الدومينيكان - الفرنسيسكان - الصوفيون مايستر إيكهارت وجون تاولر Meister Eckhart & John Tauler - أخوة الحياة المشتركة - الاقتداء بالمسيح - كاترين دي سيينا وجان دارك Cathrine de Siena & Joan of Arc سافونارولا Savonarola

٥١ ثالثاً: جون ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤) وجون هس ٥١

John Wycliff and John Huss (١٤١٥ - ١٣٧٣)

مصلحان قبل الإصلاح

٥١ (أ) جون ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤) ٥١

ويكليف مستشاراً للملك - ويكليف يفضب البابا ويرضى الملك - ويكليف يهاجم البابوية - ويكليف وسر الأفخارستيا - ويكليف يترجم الكتاب المقدس - أهمية «الكتاب» عند ويكليف - اللولارديون Lollards ويكليف مصلحاً.

٥٥ (ب) جون هس (١٣٧٣-١٤١٥) ٥٥

بوهيميا مستعدة للإصلاح - العلاقات مع إنجلترا ومع ويكليف - هس متأثراً بويكليف - هس مشهور شعبياً لكن الكنيسة حرمته - هس يُنظر إليه كعدو - هس يدعى لمجمع كونستانز - هس يدان وينفذ فيه حكم الموت - لوثر يمدح هس - حركات الاستقلال القومية - بنود براغ الأربعة - بوهيميا تنفصل عن البابوية.

٦٢ رابعاً: الاتجاهات الثقافية في العصر الوسيط ٦٢

ظهور الجامعات - «الرينيسانس Renaissance» عصر النهضة - «الإسكولاستية Scholasticism» (أي الفلسفة اللاهوتية في العصور الوسطى) - وليم أوكهام - أوكهام يناقش عصمة البابا - مارسيلْيوس «البادوفى» مارسيلْيوس يناقش العصمة البابوية - مارسيلْيوس ينتقد الفساد في الكنيسة - مارسيلْيوس يدعو إلى مجلس - مارسيلْيوس يؤثر في المصلحين اللاحقين.

٧٠ خامساً: النزعة الإنسانية ٧٠

فلسفة النزعة الإنسانية - اتباع النزعة الإنسانية المسيحيون - تأكيدات النزعة الإنسانية - لورينزو فاللا الإيطالي Lorenzo Valla - جيمنيز سيزنيروس الأسباني Jimenez de Cisneras - ليفيفر ديتابلز Lefevre d'etables الفرنسي - توماس مور

More Thomas الإنجليزى - النزعة الإنسانية فى ألمانيا - يوهانز روجلن Johannes Reuchlin الألمانى - إيرازموس الهولاندى Erasmus - مؤلفات إيرازموس - إيرازموس والكتاب المقدس - فى الثناء على الطيش - إيرازموس واللاهوتيون فلاسفة العصور الوسطى (الاسكولاستيون) - إيرازموس والعلمانيون - إيرازموس ولوتر - إيرازموس وحرية الإرادة - إيرازموس ولوتر يختلفان - إيرازموس والقوات العالمية - إيرازموس ولوتر عن اللاهوت - إيرازموس ولوتر عن الأخلاق - حدود إيرازموس.

سادساً: اختراع الطباعة وتقدم التعليم: ٨٤

التعليم أثناء العصور الوسطى - التعليم يرشد - اختراع الطباعة - ماكينات الطباعة تساعد الإصلاح - انتشار الكلمة المكتوبة يتحدى البابوية - انتشار الأسفار المقدسة - التعليم والتهديب يعاونان على مجيء الإصلاح.

سابعاً: ظروف القرنين الخامس عشر والسادس عشر السياسية

٩٠ والاقتصادية والاجتماعية

٩١ أ- العوامل السياسية:

ظهور الدول الأوروبية العصرية - ملك فرنسا يعارض البابا - قوة ملك إنجلترا ضد البابا - استقلال أسبانيا السياسى عن البابا - الدول أقوى من البابوية - قادة الكنيسة فى المراكز الحكومية - البابوية كقوة سياسية.

٩٣ ب- العوامل الاقتصادية:

الاقتصاد البسيط بالمقايضة فى العصور الوسطى - ظهور أعمال التجارة والصرافة - التغيير الاقتصادى بسبب التغيير الاجتماعى.

٩٥ ج- العوامل الاجتماعية:

نمو المدن - المدن كمراكز للحياة الاقتصادية السياسية والثقافية والعقلية - أوروبا مستعدة للإصلاح.

٢- مارتن لوثر والكنيسة فى ألمانيا ٩٠

أولاً: حياة لوثر المبكرة ٩١

عصر جديد فى الكنيسة - لوثر يكتب بصراحة عن نفسه - أسرة لوثر تنتقل إلى «مانسفيلد» - النظام والتدريب فى بيت لوثر - لوثر تلقى تعليمه الأولى من الفرنسيسكان - لوثر يرسم فى «ايزيناخ Eisenach» - فى جامعة «ايرفورت Erfurt» يدرس لوثر الفلسفة اللاهوتية للعصور الوسطى (الإسكولستية) ويحصل على درجات البكالوريوس والماجستير - تجديد لوثر: لوثر يدخل الدير - لوثر راهب أمين - لوثر يرسم كاهناً - لوثر و «ستوبيتز Staupitz» - لوثر أستاذاً للدين فى ويتنبرج وايرفورت - لوثر فى روما - لوثر يدرس فى ويتنبرج - لوثر والصوفيون - البار بالإيمان يحيا - اليأس الروحي - بر الله - المفهوم الكاثوليكي واللوثري للتبرير.

ثانياً: لوثر يتحدى البابوية: ١١٣

بيع صكوك الغفران - «البرخت Albrecht» والبابا يتعاونان فى بيع صكوك الغفران - تيتزل Tetzel يبيع صكوك الغفران فى مجدبورج - فريدريك يمنع تيتزل - لوثر ينتقد بيع صكوك الغفران - القضايا الخمس والتسعون - ميلاد الإصلاح - اللاهوت الزائف لصكوك الغفران - احترام لوثر للكنيسة - «تيتزل» و «فون ايك» يهاجمان لوثر - لوثر يكسب مساجلته الأولى - لوثر يُستدعى إلى روما - الكاردينال كاجيتيان Cajetan يحاول اقناع لوثر - فريدريك يحمى لوثر - لوثر و«ميلتيتز» Miltits - انتخاب شارل الخامس إمبراطوراً - مساجلات «ليبيج» - الكتاب المقدس وحده - نبذات لوثر - ١ - خطاب إلى الشرف المسيحى للأمة الألمانية ٢ - السبى البابلى للكنيسة - العشاء الربانى والمعمودية السران الوحيدان - مفهوم لوثر لسر الأفخارستيا - لوثر يهاجم البابا فى خطاب - ٣ حرية الإنسان المسيحى - حرية المسيحى فى الإيمان والمحبة - مثال الحياة المسيحية.

ثالثاً: الحرمان الكنسى للوثر ومحاكمته ١٢٩

(أ) مرسوم الحرمان البابوى ١٢٩

ضرورة إصدار الحرمان - المرسوم البابوى - روح الإدارة البابوية - صعوبة نشر

المرسوم - إعلان لوثر المضاد - كتابات لوثر تحرق، مرسوم البابا يحرق - القطيعة التامة بين لوثر وروما.

١٣٢ (ب) محاكمة لوثر فى «ورمز» At the Diet of Worms

شارل الخامس إمبراطوراً رومانياً مقدساً - لوثر يستدعى إلى «ورمز» - لوثر أمام اجتماع «ورمز» هنا أثبت - لوثر يغادر «ورمز» - مرسوم «ورمز» يدين لوثر.

١٣٥ (ج) فى قلعة وارتنبرج Wartburg

عشرة شهور فى وارتنبرج - لوثر يصارع مع الشيطان - لوثر يكتب عن الاعتراف - ويكتب عن الخطيئة بعد النعمة - لوثر يحتج على الذخائر وبيع صكوك الغفران - اضطراب بين المتطرفين فى وتنبرج Wittenberg - لوثر يترجم العهد الجديد - لغة لوثر - الزواج السريع لترجمة لوثر - عامة الشعب يقرأون الترجمة - صعوبة ترجمة العهد القديم - اضطرابات فى ويتنبرج - لوثر يعود إلى ويتنبرج - لوثر يحكم الموقف فى ويتنبرج.

رابعاً: نمو الكنيسة اللوثرية - التحديات - الانقسامات

(١٥٢٩ - ١٥٢١)

١٤٤ (أ) انتشار الكنيسة فى ألمانيا

النظام يستتب داخل الكنيسة - أشكال جديدة للعبادة - محاولة البابا «هادريان Ha-drian» لإخماد الحركة اللوثرية - مجمع «اسبير Speyer» سنة ٥٢٤.

١٤٩ (ب) ظهور معارضة خارجية وانقسامات داخل الحركة

الملك هنرى الثامن يهاجم لوثر - ايرازموس وآخرون من فلاسفة النزعة الإنسانية ينقلبون على لوثر - ايرازموس ينشق على لوثر - كارلستاد Karlstadt الراديكالى - توماس مونتزر Thomas Montzer - ثورة الفلاحين - دور لوثر فى الثورة - لوثر يتحول ضد الفلاحين - الفلاحون ينهزمون ولوثر يلام - الحروب الأوروبية تحمى الإصلاح - مجمع اسباير، اللوثريون يحتجون - لاهوت الكنيسة طبقاً للوثر - لوثر يعتزم وضع نظام أقوى للكنيسة - تسمية الكنيسة اللوثرية «فيليب ميلانكتون Philip Melanchthon»

(١٤٩٧ - ١٥٦٠) - كتاب تعليم الدين المسيحي المختصر للوثر - علاقة الكنيسة والدولة - زواج لوثر.

خامساً: الإصلاح فى سويسرا، «أولريخ زوينجلى (١٤٨٤ - ١٥٣١) Ulrich Zwingli

(أ) سنواته المبكرة ١٦٣

الوضع فى سويسرا - تعليمه ورسامته - تعيينه قسيساً مرافقاً للجيش السويسرى - زوينجلى فى «اينسيدلن Einsiedeln» تجديد زوينجلى.

(ب) زوينجلى فى زيورخ ١٦٥

كرازة زوينجلى - زوينجلى والكتاب المقدس - خصومات زيورخ فى سنة ١٥٢٣ - نتائج مناقشات زيورخ - زوينجلى سياسياً - عشاء الرب بدلاً من القداس - زوينجلى والزواج.

(ج) الراديكاليون ضد عماد الأطفال ١٦٩

انقسام فى زيورخ - قادة إعادة العماد - المعارضون عماد الأطفال يضطهدون - نمو كنيسة المعتقدين بإعادة العماد.

(د) الخلاف الأنهارستى ١٧٢

نقطة تحول الإصلاح - لوثر الاستحالة دون تغيير الجوهر - عقيدة زوينجلى الرمزية - المناظرة بين لوثر وزوينجلى

(هـ) محاورة ماربورج Marburg ١٧٥

دور فيليب الهسى - لوثر وزوينجلى فى ماربورج - اتفاقية ماربورج.

(و) مؤتمرات «بادن» و «برن» ١٧٧

الكاثوليك يسيطرون فى بادن - والبروتستانت يردون فى برن.

(ز) جهود زوينجلى ليبرح كل سويسرا، ١٧٨

معارك «كابل Kappel» - تحالفات معارضة - المواجهة فى كابل - المعركة الثانية فى كابل.

سادساً: نمو وانتشار اللوثرية إلى سلام «أوجسبرج»
Augsburg « سنة ١٥٥٥

- ١٨٢ (أ) إقرار أوجسبرج في سنة ١٥٣٠
الإمبراطور يعقد مجلس «أوجسبرج» - ميلانكتون يحاول تهدئة الكاثوليك -
الكاثوليك يفوزون بالأصوات على اللوثرين في أوجسبرج - حلف «شمالكالديك»
Schmalkaldic « - لوثر وفكره عن القوتين الروحية والعالمية.
- ١٨٥ (ب) الشمولية الدينية (تجميع السلطات)
في «مونستر Munster» في سنة ١٥٣٤ «مينو سيمون Menno Simons» منكر
تعميد الأطفال.
- ١٨٦ (ج) استمرار مجهودات الأباطرة لتوحيد البروتستانت والكاثوليك
محاولات لعقد مجمع عام في «مانتوا Mantua» في سنة ١٥٣٧ - البدء في
مشاورات غير رسمية - محاورة ريجنسبرج Regensburg - مشاورات ريجنسبرج
تفشل.
- ١٨٨ (د) أحداث سياسية تؤدي إلى سلام «أوجسبرج» في سنة ١٥٥٥
جهود الأباطرة السياسية - انتصارات شارل الخامس السياسية - الإمبراطور يهزم
البروتستانت - البروتستانت يستعيدون السلطة في ألمانيا - سلام أوجسبرج
- ١٩١ (هـ) سنوات لوثر الأخيرة
تدهور صحة لوثر - موت لوثر - تحية إلى لوثر.
- ١٩٣ (و) انتشار الكنيسة اللوثرية
في بلاد أوروبية أخرى في الدانمارك، في النرويج، وإيسلاندا - في السويد -
البروتستانتية في أوروبا الشرقية.

٣- الإصلاح السويسرى المستمر -جنيف- جون كالفن

٢٩٨ مقدمة

١٩٨ أولاً: حياة كالفن المبكرة وتعليمه قبل جنيف

طفولة كالفن وتعليمه - كالفن يدرس فى باريس - كالفن يدرس القانون فى أورليانز - كالفن يواصل دراساته فى «بورجز Bourges» تعليق كالفن على كتابه «سينيكا Seneca» - تدريب كالفن فى «النزعة الإنسانية» - اهتداء كالفن - الفرق بين كالفن ولوثر - خطاب «نيقولا كوب Nicholas Cop» الهرطوقى - كالفن هارباً - حكاية لوحات الإعلانات ونفى كالفن من باريس - كالفن إلى إيطاليا ثم إلى جنيف.

ثانياً: فترة جنيف الأولى والمنفى فى استراسبورج (١٥٣٦ -

١٥٤١)

٢٠٩ (أ) جنيف قبل كالفن

الكاثوليك يطردون من جنيف - الهيكل السياسى فى جنيف - جنيف تصبح بروتستانتية - نظام «فاريل Farel» - كالفن يظهر فى جنيف.

٢١٢ (ب) كالفن فى جنيف (١٥٣٦ - ١٥٣٨)

كالفن راعياً - كالفن يوسع النظام فى جنيف - كالفن يفضل خدمة العشاء أسبوعياً - العشاء أربع مرات سنوياً - الاهتمام بحياة الشعب الروحية - البروتستانت فقط مسموح لهم بالبقاء فى جنيف - استقلال الكنيسة عن الحكومة - «بييركارولى Pierre Caroli» يهاجم كالفن - معضلة كالفن فى تنفيذ النظام - كالفن وفاريل يطردان من جنيف - شعب جنيف ينقلب ضد كالفن وفاريل - كالفن يسلم بأخطائه.

٢١٧ (ج) كالفن فى المنفى

تأثر بوكربفكر كالفن - كالفن يعتنى بشعب الكنيسة الفرنسى فى استراسبورج - كالفن يطور الخدمة الدينية المصلحة (الليتورجيا) - نظام كالفن للعبادة - نظام خدمة العبادة فى الكنيسة البروتستانتية نقلاً عن كتاب «تاريخ العبادة» للدكتورة مارثا روى

- التسبيح الشعبى فى كنيسة كالفن - التسبيح تأكيد لكنيسة مصلحة - تمديد وتنقيح كتاب «الأنظمة» - خطاب الكاردينال «سادوليت Sadolet» - رد كالفن على سادوليت - كالفن يتزوج - كالفن يتقابل مع اللوثريين - رأى كالفن فى لوثر - قلق كالفن من أجل جنيف - كالفن يُدعى للعودة إلى جنيف - كالفن يعود إلى جنيف.

ثالثاً: عودة كالفن إلى جنيف واستمرار الصراع (١٥٤١ - ١٥٦٤):

- ٢٢٨ (أ) كالفن يصل إلى جنيف
وصول كالفن إلى جنيف - الترحيب بكالفن فى جنيف - تحدى كالفن لجنيف
- ٢٢٩ (ب) القواعد - نظام كالفن فى جنيف
القواعد - الوظائف الرئيسية - مجلس الكنيسة - حكومة رجال الدين Theocracy طبقاً لكالفن - حكم الكتاب المقدس - علاقة مجلس الكنيسة والمجالس الأخرى - برهان المسيحى - أهمية الكرازة - النظام فى الحياة اليومية - قضية سيباستيان كاستيللو Sebastian Castello
- ٢٣٥ (ج) معارضة سياسة كالفن
المعارضة السياسية - قضية «بيير أميو Pierre Ameuroux» - عائلات «بيرين وفافر Perrin & Favre» - محاكمة وإعدام «جاك جروت Jacques Gruet» - قوة شخصية كالفن - كالفن يشجع اللاجئيين الفرنسيين - قضية «جيروم بولزيك Jerome Bolsec»
- ٢٣٩ (د) محاكمة وإعدام «ميشيل سيرفيتوس Michael Servetus»
حياة سيرفيتوس المبكرة - كتاب سيرفيتوس عن إعادة المسيحية إلى أصلها «Restitution of Christianity» - سيرفيتوس يُحاكم بواسطة الكاثوليك - القبض على سيرفيتوس فى جنيف - كالفن يواجه سيرفيتوس - أعداء كالفن يدافعون عن

سيرفيتوس - كالفن يرفض تقديم العشاء إلى «برثيليه Berthelier» - سيرفيتوس يُدان ويُعدم - انتقاد كالفن من أجل موت سيرفيتوس - كالفن يدافع عن نفسه وآخرون يساندونه - كالفن يثبت سيطرته على جنيف - قبول اللاجئين الفرنسيين - جنيف مدينة مثالية.

- ٢٤٥ (هـ) إنجاز كالفن الأخير في جنيف - الأكاديمية
التحسينات المدنية - تأسيس الأكاديمية - منهاج الدراسة في «المدرسة الخاصة»
و«المدرسة العامة» - الأكاديمية تعلم طلبة من بلاد عديدة
- ٢٤٧ (و) سنوات كالفن الأخيرة (١٥٥٩ - ١٥٦٤)
وفرة الإنتاج الأدبي العظيم لكالفن - الطلبة ينسخون محاضرات كالفن - موت كالفن

- ٢٥٠ رابعاً: تعليم كالفن
كالفن لاهوتي الإصلاح - معرفة الله، معرفة أنفسنا -
- ٢٥١ (أ) تعليم كالفن عن الكتاب المقدس
المعرفة الحقيقية في الكتاب المقدس - الكتاب المقدس وحده يكفي - كالفن مفسراً للكتب المقدسة.

- ٢٥٢ (ب) عقيدة التعيين السابق
العقيدة المخيفة - الله يختار الإنسان إما للخلاص وإما للهلاك - Wesley يفند التعيين السابق - حرية الإرادة - التعيين السابق يشجع على الحياة المستقيمة - لوثر والخلاص بالإيمان وحده - قلق لوثر على الأعمال الصالحة - الأعمال الصالحة كبرهان الخلاص - الحكم الأخير متروك لله.

- ٢٥٧ (ج) سر الأفخارستيا ووحدة الكنيسة
السر المقدس والوحدة لهما أهمية عند كالفن - الله يُظهر نفسه في الأسرار المقدسة - كالفن أقرب إلى لوثر إزاء سر الأفخارستيا - المسيح حال في سر الأفخارستيا - أعضاء في جسد المسيح - مبدأ الوحدة في فكر كالفن - الكنيسة كجسد المسيح - كالفن يعمل من أجل اتحاد الكنيسة - لا اتحاد مع الكاثوليك.

خامساً: تأثير كالفن في دول أخرى

- ٢٦٤ (أ) أسباب انتشار الكالفينية
- كتاب «الأنظمة» - جنيف المدينة النموذجية - أكاديمية جنيف - مكاتب كالفن - كالفن يلهم مصلحين آخرين.
- ٢٦٦ (ب) الكنائس المصلحة في فرنسا
- كالفن يشجع البروتستانت الفرنسيين - تنظيم الكنيسة الفرنسية المصلحة - البروتستانت يصبحون قوة سياسية في فرنسا.
- ٢٦٨ (ج) الكنائس المصلحة في البلاد الواطئة (هولندا وبلجيكا اليوم)
- ٢٦٩ (د) الكنائس المصلحة في ألمانيا بأوروبا الشرقية
- الكالفينية في البلاتينات (عهد أمراء الإقطاع) The Palatinate وإقرار هيدلبرج - الكنيسة المصلحة في بولندا - كالفن يبرر وجود أساقفة في بولندا - الكنيسة المصلحة في المجر.
- ٢٧٠ (هـ) تأثير كالفن على إنجلترا وإسكتلندا
- الكالفينية في إنجلترا - جون نوكس John Knox يتخذ ملجأ في جنيف.
- ٢٧٢ (و) جهد كالفن للعمل المرسل في الخارج
- المستعمرة البروتستانتية في البرازيل
- ٢٧٣ سادساً: فكر كاثوليكي عن كالفن

٤. الإصلاح في إنجلترا وإسكتلندا

- ٢٧٨ أولاً: الإصلاح في إنجلترا
- ٢٧٨ (أ) تأثيرات الإصلاح المبكرة

(ب) هنرى الثامن يقطع علاقته بروما ٢٧٩

هنرى الثامن كاثوليكي أمين - هنرى الثامن يريد الطلاق - البابا يرفض طلب هنرى
- سلطة الملك فى مواجهة سلطة البابا - هنرى يرغم الأساقفة الإنجليز على الوقوف
بجانبه - قرار السيادة وإزالة الأديرة - هنرى يُتهم بحل وحدة الكنيسة - هنرى يسمى
البابا فى إنجلترا - سير توماس مور Thomas More يدافع عن نفسه.

(ج) الإصلاح فى إنجلترا بعد هنرى الثامن ٢٨٣

البروتستانتية تنتشر - حكم إدوارد السادس وكتاب العبادة المشتركة - التأثير
البروتستانتي من أوروبا الكاثوليكية تعود فى عهد الملكة ماري - اضطهاد
البروتستانت - البروتستانتية تعود تحت حكم الملكة اليزابيث - البروتستانتية تسود -
الإصلاح فى إنجلترا كامل.

ثانياً: الإصلاح فى إسكتلندا

(أ) تطورات الإصلاح المبكرة فى إسكتلندا ٢٩٠

بدايات الإصلاح - الصراع بين إنجلترا وفرنسا من أجل إسكتلندا - الكاردينال
«بيتون وجورج ويشارت Cardinal Beaton & George Wishart»

(ب) قيادة جون نوكس John Knox ٢٩١

حياة نوكس المبكرة - نوكس يكتب ضد كتيبة النساء - كالفن يرد على نوكس -
نوكس والحرية السياسية - الخوف من الفرنسيين - نوكس يعود إلى إسكتلندا -
الفرنسيون ينسحبون والاستقلال السياسى.

(ج) طبيعة الإصلاح الإسكتلندى ٢٩٤

الشعب ساخط على الأساقفة - الشعب يصلح الكنيسة - الكنيسة البروتستانتية
تنمو بجانب الكنيسة الكاثوليكية - البروتستانتية تطفئ على الكاثوليكية - المسئولية
المتزايدة على العلمانيين - الكنيسة الإسكتلندية كنيسة فقيرة.

(د) ماري ملكة الإسكوتلانديين ٢٩٧

الملكة ماري تعود - حياة ماري الفاضحة وتنازلها عن العرش

٢٩٨ (هـ) الصفات الخاصة بالإصلاح الإسكتلندي

الإصلاح الإسكتلندي، حركة شعبية - في إسكتلندا المسئولية السياسية تخص كل فرد.

٢٩٩ (و) الكنيسة الإسكتلندية تتحرك نحو المشيخية

الكنيسة تبتعد عن النظام الأسقي - الكرازة بالكلمة وتأدية الأسرار المقدسة - النظام والاهتمام بالفرد - الناس على صلة بالله - اندرو ميلفيل Andrew Melville والمشيخية - جون نوكس John Knox قائداً للكنيسة والأمة.

ثالثاً: التقدم الذي حدث مؤخراً للإصلاح في إنجلترا وإسكتلندا

(أ) البيوريتان (المتطهرون) Puritans والانفصاليون أثناء حكم الملكة اليزابيث ٣٠٤

ظهور البيوريتان - المشيخية صورة مفضلة للإدارة - «توماس كارترايت Thomas Cartwright» الانفصاليون - البيوريتان والانفصاليون يضطهدون - اللاهوت الأرميتي.

(ب) جيمس الأول، شارل، المنفيون البيوريتان ٣٠٧

الأسقفية في إسكتلندي

الملك جيمس الأول - العصر الذهبي للأدب الإنجليزي - الكتاب المقدس هو الأعظم تأثيراً ونفوذاً - الإنجليز شعب «الكتاب» - المعمدانويون في إنجلترا - الاستقلاليون البيوريتان يرحلون إلى أمريكا - الملك يفرض الأسقفية على إسكتلندا - الإسكتلنديون يقاومون الأسقفية - إنجلترا تصبح مشيخية.

(ج) محفل وستمنستر ٣١١

اقرار وستمنستر - لاهوت العهد

(د) حكم أوليفر كرومويل، استعادة الحكم الملكي، قرار التسامح، المشيخية في ٣١٢

إسكتلاندا. أوليفر كرومبل، الحامى - الأسقفية مرة أخرى تحت حكم شارل الثانى -
حكم وليم ومارى - المشيخية تثبت فى إسكتلاندا.

٣١٤ (هـ) الكويكرز (جمعية الأصدقاء)

فوكس Fox والنور الداخلى - سلوك فوكس التطرفى - كنيسة الكويكرز تنمو -
وليم بن William Penn فى أمريكا - الكويكرز صانعو سلام - المشابهة للأخوة
«البلاميس Plymouth»

٣١٩ ٥- الإصلاح المضاد (الإصلاح الكاثوليكي)

الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية - الإصلاح الكاثوليكي أكثر من استجابة
للبروتستانتية

٣٢١ (أ) قادة الإصلاح الكاثوليكي

الإصلاح الإدارى لا يتحقق - صحوة النظم الرهبانية - النهضة «الإسكولاستية»
(نهضة الفلسفة اللاهوتية فى العصر الوسيط)

٣٢٢ (ب) اغناطيوس لويولا Ignatius Loyola والجزويت

الجزويت قوة كبرى - حياة اغناطيوس لويولا المبكرة - أوجه الشبه والفرق بين لويولا
ولوتر - لويولا يؤسس الجمعية فى باريس - تباين لويولا مع كالفن - نظام «جمعية
يسوع» - خدمة الجزويت وانتشارهم - الغاية تبرر الوسيلة.

٣٢٦ (جـ) مجمع ترنت Trent

الحاجة إلى مجمع - أغراض مجمع ترنت - قادة الكنيسة يعترفون بمسؤوليتهم -
اللاهوت طبقا لتوما الأكوينى يسود - قرارات ضد البروتستانتية - الكتاب المقدس
والتقليد فى ترنت - دليل الكتب ومحاكم التفتيش - نتائج إيجابية لمجمع ترنت.

٦- الإصلاح والكنائس الأرثوذكسية ٣٣١

الإصلاح فى الشرق - الكنيسة الأرثوذكسية ترفض البروتستانتية «كيرلس لوكارس Cyril Lucaris» والبروتستانت - لاهوت لوكارس الكالفينى - لماذا لم يتحد البروتستانت والأرثوذكس.

٧- أفكار ختامية عن الإصلاح ٣٣٧

الإصلاح كان يلزم أن يحدث

(أ) الانشقاق - تقسيم جسد المسيح ٣٣٨

هل ينقسم المسيح؟ من ينزف؟- عدم التسامح من كل الكنائس - تعصب البروتستانت - تكاثر الطوائف المتزمتة - الطائفية.

(ب) نتائج إيجابية ٣٤١

الثورة فى الحياة الشخصية - الدين للناس البسطاء - أهمية العلمانى

١ - إصلاح القرن السادس عشر

الظروف والتطورات التي أدت إلى الإصلاح البروتستانتي

يعتبر ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ بحق تاريخ ميلاد الإصلاح البروتستانتي، وهو نقطة تحول في التاريخ ليس بالنسبة لتاريخ الكنيسة فحسب بل في حضارة الغرب أيضاً. إنه اليوم الذي علق فيه الراهب الألماني «مارتن لوثر» قضاياه الخمس والتسعين على أبواب كاتدرائية «وتنبرج».

القادة الذين نادوا بالإصلاح

على أي حال، بدأ الإصلاح من الناحية التاريخية قبل ذلك بسنوات، بل قرون عديدة، ولو لم يولد لوثر لقام آخرون يدعون إلى الإصلاح - والواقع أن آخرين كانوا إلى حد ما معاصرين للوثر، لاسيما المصلحان السويسريان «زوينجلي ZWINGLI وكالفن CALVIN» اللذان تجاسرا على تحدى البابوية لنفس الأسباب. وكان لدى هنري الثامن ملك إنجلترا سبب آخر، لكن قراره، مع كونه قراراً شخصياً لا عقائدياً، هو الذي بدأ سلسلة الأحداث التي أدت إلى الإصلاح في إنجلترا.

المسرح معد للإصلاح

يتفق المؤرخون عموماً على أن أوروبا في سنة ١٥٠٠ كانت متأهبة للإصلاح. لذلك كان لازماً علينا قبل أن نناقش عملية الإصلاح، أن نوضح لماذا جاء على هذا النحو. إذن يلزمنا بالضرورة أن نأخذ في الاعتبار الخلفية التاريخية، أي سلسلة الأحداث والتطورات في السنوات السابقة والتي أعدت المسرح للإصلاح. إنها متعددة ومختلفة. فإذا اختلف المؤرخون على الأحداث، أيها الحاسم وأيها العارض، فقد نستقر على مناطق معينة هامة، قُبلت بصفة عامة على أنها ذات المغزى الأعظم والأخطر، وهي:

أولاً: انحدار البابوية

(أ) فقدان الاتحاد والتأثير السياسي الذين تمتع بهما البابا خلال العصور

الوسطى.

(ب) تدهور المستويات الأخلاقية من داخل البابوية وتفشيها بين الإكليروس.

ثانياً: التحركات من أجل الإصلاح: إدراك الكنيسة نفسها بالحاجة إلى الإصلاح وإلى الجهود المختلفة اللازمة لإتمام الإصلاح أثناء أواخر العهد الوسيط.

ثالثاً: جون ويكليف من إنجلترا JOHN WYCLIF ، و«جون هس» من بوهيميا JOHN HUSS .

رابعاً: الاتجاهات الثقافية: نمو المعارف والعلوم خارج الكنيسة - آراء فلسفية جديدة بعد فلسفات القرون الوسطى.

خامساً: «النزعة الإنسانية» HUMANISM (تأكيد على قيمة الإنسان).

سادساً: اختراع الطباعة وتقدم التعليم.

سابعاً: العالم المتغير: ظهور القومية، فقدان القوة البابوية السياسية، نمو التجارة والصرافة، توسع المدن.

هذه التغيرات المختلفة مجتمعة معاً ضمن الكنيسة أو بدونها، جهزت المسرح وخلقت جواً لم يكن فيه الإصلاح ممكناً وحسب، بل كان أمراً لا بد منه.

أسباب انفصال الكنائس الشرقية والغربية

هذا الجزء من الكتاب لا يعالج التطورات في الكنيسة الشرقية. بحلول القرن الحادى عشر ازدادت الطوائف الشرقية والغربية انفصالاً عن بعضها لغوياً وثقافياً ودينياً حتى كاد ينعدم الاتصال الفعال بينها. فلقد اختار الأرثوذكس في مصر وسوريا وأرمينيا والحبشة مسلكاً مختلفاً في القرن الخامس. ولم يكن للكنائس الشرقية (أو البيزنطية) إلا تبادل قليل مع روما لسنوات عديدة، وانفصلت عنها

نهائياً سنة ١٠٥٤. ولا شك أن ظهور الإسلام فى القرن السابع كان من أهم أسباب الانفصال. ومع أن القوات الإسلامية احتلت وسيطرت على أسبانيا من القرن الثامن إلى القرن الثانى عشر (الأمر الذى كان له تأثيره البالغ على التطور الحضارى لذلك الإقليم) واحتلت أيضاً منطقة واسعة من شبه جزيرة البلقان، إلا أن المسيحية الأوروبية لم تكن أبداً مضطرة للتوافق مع الإسلام كديانة حية. أما بالنسبة للكنائس الشرقية فقد كان ذلك التوافق مسألة اهتمام يومية، وليس ثمة شك فى أن ذلك أثر كثيراً على مسلكها وتقدمها. ثم إن اندفاع الصليبيين من الغرب فى القرن الحادى عشر وسع الفجوة بين الشرق والغرب أكثر مما كانت. فلقد جاء الصليبيون استجابة لنداء المعونة من الكنائس الشرقية. لكنهم فى حربهم المقدسة ضد الإسلام سرعان ما تحولوا إلى السلب والنهب واستغلال الطوائف المسيحية- فسطروا صفحة حزينة فى تاريخ العالم المسيحى الغربى.

والواقع أنه يمكن القول بأن الاتصالات النادرة بين الشرق المسيحى والغرب المسيحى بعد القرن الحادى عشر كانت تتسم بسوء الفهم والعداء.

مجمع فيرارو FERRARO

أما التبادل الإيجابى الوحيد بين الكنائس الشرقية والغربية فقد كان فى مجمع «فيرارو» فى شمال إيطاليا سنة ١٤٣٨، عندما اتفقوا على إعادة الوحدة بين الكاثوليك والأرثوذكس الشرقيين. لكن قضايا كثيرة أساسية بقيت بدون حل، وكانت المساندة الشعبية للاتحاد قليلة خاصة فى الشرق. وقد همدت هذه الحركة مع احتلال الأتراك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣.

لماذا لا إصلاح فى الشرق

ينبغى أن نلاحظ أيضاً أن التطور الداخلى للمجتمعين لم يكن بأى شكل متشابهاً، فلم يكن هناك إلا القليل من نفس الاتجاهات اللاهوتية أو الكنائسية.

فالظروف التى أدت إلى الإصلاح فى الغرب لم يكن لها وجود فى الشرق، ولذلك لم تكن هناك حركة إصلاح. حتى كنيسة روسيا الأرثوذكسية (والتي تعد إلى حد ما أوروبية) بالكاد مسّها الإصلاح الألماني.

وهكذا يمكن: أن نرى أن المؤرخ لهذه الحقبة موضوع البحث، يجب أن يتعقب دراسة منفصلة لكل من الطائفتين الكاثوليكية الغربية والأرثوذكسية الشرقية كما يلي:

أولاً: انحدار البابوية

البابوية والإمبراطورية الرومانية المقدسة

كانت كنيسة روما هي الكنيسة الوحيدة لأوروبا طيلة ألف سنة (من القرن السادس إلى السادس عشر)، هذه الكنيسة حكمت من المحيط الأطلنطي في الغرب إلى حدود روسيا وبيزنطة في الشرق، ومن البحر الأبيض المتوسط في الجنوب إلى الشواطئ الشمالية الألمانية وبولندا. وكانت القوة الوحيدة الموحدة في حدود هذه المنطقة العظيمة الاتساع التي كانت تسمى بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي كان أباطرتها يتوجون على أيدي البابوات وكانوا يقدمون الولاء لروما، ليس فقط في الشؤون الروحية بل في الأمور الدنيوية أيضاً.

البابا جريجوريوس السابع والملك هنري الرابع

خلال فترة البابا جريجوريوس السابع (١٠٢٣ - ١٠٨٥) المسمى خلافاً لذلك هلدبراند HILDEBRAND تحدى الملك هنري الرابع قوة روما، حيث حاول أن يعين أسقفاً جديداً لميلانو. ولأن البابا اعتبر مثل هذا التعيين من حقه وحده، فمن ثم حرم الملك هنري. وكان الحرمان يعتبر شيئاً خطيراً في تلك الأيام حتى أن الملك وقف خارج قلعة البابا حافى القدمين لمدة ثلاثة أيام في الجو البارد لكي يتوسل الغفران.

ومع أن هنرى نجح فيما بعد فى طرد البابا بقوة السلاح فإن الحادثة تبين بوضوح القوة العظمى للبابوية فى تلك الأوقات.

البابا أعلى من الإنسان لكن أدنى من الله

بعد مرور قرن على هذه الأحداث يمكن أن نرى البابوية فى قمة قوتها فى البابا «إنوسنت الثالث Innocent III» (١١٦٠ - ١٢١٦). يقول إنوسنت فى وصف مركزه البابوى:

" إلى البابا يقال فى شخص النبى: قد وكلتك هذا اليوم على الشعوب

" والممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتبنى وتغرس" (إرميا ١ : ١٠).

" وإلى (ابا البابا) يقال أيضا فى شخص الرسول: وأعطيك مفاتيح

" ملكوت السموات....، (مت ١٦ : ١٩)

" هكذا دعى آخرون لجزء من المسئولية، لكن بطرس وحده اتخذ لنفسه

" كمال القوة. أنت إذن ترى من هو هذا الخادم المعين رئيساً على

" أهل البيت. إنه حقاً نائب يسوع المسيح، خليفة بطرس،

" ممسوح من الرب، إله فرعون، وسيط بين الله والإنسان،

" أدنى من الله لكن أعلى من الإنسان، الذى يحاكم الجميع ولا يحاكمه أحد. (١)

الدولة تستمد سلطتها من الكنيسة

إنه أيضا البابا إنوسنت الثالث الذى قال، «خالق الكون عمل النورين العظيمين

(1) Quoted by: Ozment, Steven, The AGE Of REFORM, 1250-1550, P. 143, Yale University Press, 1980.

فى جلد السماء، النور الأكبر (الشمس) لحكم النهار، والنور الأصغر (القمر) لحكم الليل. بنفس الطريقة عن جلد الكنيسة الجامعة، التى يقال عنها السماء، عيّن الله مقامين عظيمين، الأعظم (الكنيسة) لمسئولية الحكم على الأرواح (هؤلاء كما لو كانوا النهار)، والأقل (الدولة) لمسئولية الحكم على الأجساد (هؤلاء كما لو كانوا الليل). هذان المقامان هما السلطان البابوى والقوة الملكية. أكثر من ذلك فإن القمر يستمد نوره من الشمس وهو فى الحقيقة أدنى من الشمس فى الحجم والنوع، وبنفس الطريقة تستمد القوة الملكية مقامها من السلطة البابوية. (١)

إنوسنت الثالث يفرض إرادته على الملك جون

ظهرت قوة إنوسنت فى ممارسة عملية. ففى مرات كثيرة أرغم الحكام المدنيين على الخضوع لأوامره. وعلى سبيل المثال حاول جون ملك إنجلترا (١١٩٩ - ١٢١٦) أن يختار شخصية معينة رئيساً لأساقفة كنتربرى. لكن البابا كان لديه شخص آخر إنه بقوة التهديدات البابوية مثل الحرم البابوى interdict (أى حظر إقامة كل الخدمات الدينية فى المنطقة) وبمراسم الحرم البابوى، استطاع إنوسنت أن يفرض إرادته. وسار الملك جون ذليلاً فى شوارع كنتربرى حافى القدمين وركع كى يتلقى الجلدات من الرهبان. ورضى أن يدفع ضريبة سنوية للفاثيكان مقدارها ألف مارك.

السلطة المطلقة للبابوية على كل الناس

ولد ساد التوتر بين الكنيسة والدولة على مدى العصر الوسيط. صحيح أن الكنيسة كانت عادة هى المسيطرة لأنها كانت قوة جامعة، بينما القوات المدنية

(1) Quoted by Bettenson, Documents Of THE CHRISTIAN CHURCH, PP. 157-158

كانت منقسمة ومبعثرة. ومع ذلك كان هناك نوع من التفاهم بأن سلطة الكنيسة تقتصر على الشؤون الروحية، بينما كانت سلطة الدولة معنية فقط بالأمور المدنية والسياسية. هذا المبدأ المتعلق بالعصور الوسطى، مبدأ «السيفين» أو القوتين، إحداهما الكنيسة والأخرى الدولة - شرعت البابوية في انتهاكه أكثر فأكثر. وبلغت الأمور قمة التحدى لما أنكر البابا بونيفاس الثامن «BONIFACE VIII» (١٢٩٤ - ١٣٠٣) حق الملوك في فرض ضريبة على الإكليروس، ووضع بيانات تطالب بالسلطة المطلقة للبابوية على كل الناس وفي جميع الشؤون. وأعاد تعريف مبدأ «السيفين» في مرسوم بابوي يسمى يونام سانكت «Unam Sanctum»: السيفان الروحي والمادى كلاهما فى سلطان الكنيسة. لكن الثانى يجب أن يُستخدم للكنيسة، الأول بواسطتها، أى بواسطة الكاهن، الثانى بواسطة الملوك وقادة الجيش ولكن بمشيئة الكاهن وموافقته. إذن أحد السيفين يكون تحت الآخر، والسلطة الدنيوية تخضع للروحية... وعلى هذا فإن أخطاء السلطة الأرضية تحاكمها القوة، لكن إذا أخطأت القوة الروحية يدينها الله وحده لا الإنسان.... لأن هذه السلطة مع كونها سلّمت لإنسان ويمارسها إنسان، لكنها بالأحرى سلطة إلهية. أكثر من ذلك، نحن نصّرح، ونقرر، ونعلن أنه على وجه الإجمال، لا بد وأن يخضع للبابا كل مخلوق بشرى يريد الخلاص.^(١)

فيليب ملك فرنسا يتحدى البابا

أغضب المرسوم البابوي «يونام سانكتوم» «Unam Sanctum» فيليب الرابع ملك فرنسا وأثاره لدرجة أنه دعا إلى عقد مجمع عام للكنيسة لمحاكمة البابا. ولكن هذا المجمع لم ينعقد قط، فأرسل الملك قوة مسلحة سجنّت البابا «بونيفاس»

(1) Quoted by: Johnson, Paul, A CHRISTIANITY, Athaneum, New York, 1977, p. 191

فى الوقت الذى أوشك أن يصدر فيه الأمر بحرمان فيليب. ومما له دلالة أن الجمهور الفرنسى ساند مليكه ضد البابا، الأمر الذى سبب صدمة قاسية للبابوية. وكان أيضاً علامة واضحة بأن الدول القومية العلمانية فى أوربا تتقدم وتترك مدى قوتها. لم تعد تقبل بعد أن تنحنى فى ذل للسلطان البابوى.

البابوية فى «أفينيو Avignon»

تابع الملك فيليب اغتنام فرصته بعد موت «بونيفاس» بالضغط فى اختيار خليفة للبابا. وكان هذا البابا الجديد فرنسياً خاضعاً للملك تماماً. فأعلن براءة فيليب من الهجوم على «بونيفاس الثامن»، وألغى مرسوم الحرمان، وعدل الأمر البابوى «يوناى سانكتوم» بحيث يرضى الملك. وبعد ذلك، انتقل كرسى البابوية من روما إلى المدينة الفرنسية «أفينيو»، وكان ذلك بداية ما يعرف «بالسبى البابلى» الذى استمر ٧٠ سنة كان كل البابوات خلالها من الفرنسيين. والواقع أن بابوية «أفينيو» خدمت مصالح فرنسا أكثر من مصالح الكنيسة الجامعة.

بابوات «أفينيو» انشغلوا بالعمل الدنيوى

شهدت هذه الحقبة دلائل الانحدار الخطير فى هيبة البابوية. كان بابوات «أفينيو» مقتدرين وأقرب إلى رجال الأعمال يفتقرون تماماً إلى الروحانية. فشغلوا أنفسهم بجمع الضرائب من كل دولة أخرى ليغتنوا ويبنوا قصورهم (بعضها موجود إلى اليوم). ولأن هذه البابوية كانت تابعة وخاضعة للملوك فرنسا، استنكرتها كل الدول الأخرى. وقيل إن «أفينيو» لم تكن إلا ظلاً «لباريس»، وصوت نائب المسيح ما هو إلا صوت الملك. ولم تكن البابوية مكروهة فى أى مكان أكثر مما كانت مكروهة فى إيطاليا. وهذا ما قاله عنها «بيترارك Petrarch» الكاتب الإيطالى:

" هنا يحكم خلفاء صيادى الجليل الفقراء. لقد تناسوا تماماً أصولهم.

بيترارك " هنا فى «بابل» (التى هى أفينيو) موطن كل الرذائل والتعاسة.

لا تقوى، لا إيمان، لا وقار، لا خوف الله،

ينتقد " لا شىء مقدس، لا شىء عادل، لا شىء مكرس. كل ما قرأتموه

"أو سمعتموه دائماً عن الغدر، والغش، والكبرياء

بابوية " والوقاحة والدعارة المستبيحة - باختصار كل أمثلة العقوق

"والشرور التى يعرضها عليكم العالم تتجمع هنا.. هنا يفقد

أفينيو " الإنسان كل الأشياء الطيبة، يفقد أولاً الحرية ثم بالتتابع

" يفقد السكينة والسعادة، والإيمان والرجاء والمحبة. " (١)

بابا فى روما - بابا فى أفينيو «Avignon»

لقد أصبح ممكناً إعادة البابوية إلى روما نتيجة للوضع السياسى الذى كان

سائداً فى عام ١٣٧٧. واختير بابا إيطالى الجنسية هو يوربان السادس Urban VI

وذلك نتيجة الضغط الشعبى لكن هذا البابا برهن على أنه كان متغطرساً وطاغية

عديم الرحمة، إذ سرعان ما أساء إلى الكرادلة الذين كان معظمهم من الفرنسيين

فاجتمعوا معاً واختاروا بابا ثانياً، هو «اكليمنس الثالث Clement V III»

مدعين أنهم أرغموا على الاختيار الأول. ثم نقلوا البابوية إلى «أفينيو». وبذا

صار للكنيسة بابويتان اختيرتا بنفس كلمة الكرادلة. وُجد بلاطان بابويان يطلبان

الولاء والضرائب من كل الدول. وكانت أوروبا منقسمة تقريباً بالتساوى فى ولائها

للبابوين. لكن فى الحقيقة لم تنخفض أبداً سمعة واحترام البابوية. وكان مقدراً على

(1) Quoted by Johnson, Paul, A History of Christianity, P. 221

الكنيسة أن تظل منقسمة بهذه الطريقة لمدة ٣٥ سنة.

مجمع بيزا Pisa

أخيراً لإنهاء فضيحة البابوية المنقسمة، قام فريق من قادة الفكر في جامعة باريس.. باستعجال الملك فيليب الخامس في مسألة الحاجة إلى مجمع عام. وعندما ظهر أن هناك صعوبة في دعوة المجمع بالنظر إلى أن البابا وحده كان صاحب الحق في ذلك، أجاب أحد أساتذة الجامعة، «كونراد جيلتهاوس Conrad Gelnhause» بأن كنيسة منقسمة هي أزمة تبلغ من الخطورة حداً يجعل من حق الكنيسة وواجبها بوجه عام أن تدعو إلى عقد مجمع. بالطبع لم يحبذ أي بابا من الاثنين مثل هذه الحركة، ولا أن يستقيل أي منهما. وأخيراً - بعد جهود عديدة - اقتنع أفراد المجموعتين من الكرادلة بأن مجمعاً عاماً هو الحل الوحيد. التأم هذا المجمع في «بيزا Pisa» في شمال إيطاليا سنة ١٤٠٩. وعزل المجمع البابوين المتنافسين وعين باباً جديداً. لكن بما أن البابوين الحاكمين لم يعترفوا بقرارات المجمع، كانت النتيجة بابوية ثالثة! - لكن حركة المجامع الكنسية - بدأت. واعترف القادة في الكنيسة وفي الجامعات والحكومات بوجوب الإصلاح وأن الطريقة الوحيدة لإنجازه هي عن طريق المجمع.

مجمع كونستانس Constance

شكراً الآن لجهود الملك «سيجسمونت Sigismund»، الإمبراطور الروماني المقدس المنتخب، الذي حث البابا يوحنا الثالث والعشرين على دعوة مجمع آخر في كونستانس في سنة ١٤١٤. وانعقد هذا المجمع فعلاً واستمر ثلاث سنوات وكان أضخم مجمع كنسي في العصور الوسطى حيث ضم عدداً وفيراً من الحاضرين. ورتب الملك سيجسموند عملية التصويت بحيث لم يستطع البابا يوحنا أن يسيطر على المجمع كما كان يرجو. واضطر البابا أن يغادر المجمع وتم عزله فيما بعد كما

عزل أحد البابوات الآخرين واستقال الثالث. وتوصل مجمع كونستانس إلى قرار حاسم وهو، «أن المجمع ممثلاً للكنيسة الكاثوليكية المجاهدة يستمد سلطانه من المسيح مباشرة. وكل شخص مهما كان مركزه أو رتبته، حتى لو كان في مكانة البابا نفسه، ملزم بطاعته (أي المجمع) في كل ما يتعلق بالإيمان وإنهاء الشقاق وإصلاح كنيسة الله بصفة عامة. ^(١) لكن هذا المبدأ لم ينل القبول أو الاحترام من البابوات اللاحقين.

الشقاق ينتهى

لم ينفذ مجمع كونستانس الشقاق. انتخب بابا جديد هو «مارتن الخامس Martin V» الذى اعترف بكل الأحزاب الكبرى: أعيد إلى روما كرسي البابوية. واتخذ قرار آخر لعقد مجامع لاحقة كل بضعة أعوام حتى يمكن لسلطة المجالس أن تكون لها علاقة بالبابوية. وفضلاً عن ذلك نوقشت إصلاحات عديدة ضرورية، واتخذت بعض القرارات، لكن القليل جداً تم إنجازه. فلا البابا، ولا أى مندوبين عنه اهتموا بالإصلاح الأساسى.

مجمع بازل Basel

انعقد مجمع ثالث فى بازل بسويسرا فى سنة ١٤٣١ على أمل دراسة مسألة الإصلاح جدياً، إلا أن يوجين الرابع البابا الجديد اعترض على ذلك. ثم إنه كان مهتماً بالأكثر بمجمع «فيرارو» الذى كان قد اجتمع لرأب الصدع بين الغرب الكاثوليكي والشرق الأرثوذكسى. جاهد مجمع بازل بدون وجود البابا. والواقع أنه استمر فى عمله حتى سنة ١٤٤٩، وأصدر مراسيم عديدة للإصلاح من بينها إعادة

(1) Quoted by Walker, Willisoon, A History of the Christian Church, Scribner's, New York, 1970, P. 276

تنظيم كلية الكرادلة، وخفض الضرائب البابوية. وبالنظر إلى عدم مساندة يوجين والبابوات الذين جاءوا بعده، فقد كل أمل في تثبيت سلطة شرعية داخل الفاتيكان بدلاً من السلطة المطلقة التي سادت حينئذ. ثم إن بابوات النصف الثاني من القرن الخامس عشر أكدوا على أن حركة المجامع الكنسية لا تستمر. البابا «بيوس الثاني Pius II» أصدر مرسوماً «أدان فيه الدعاوى التي تقدم للمجامع من وراء البابا باعتبارها باطلة وممقوتة». (١)

بابوية دنيوية

عموماً، سلم المؤرخون، والكنيسة الكاثوليكية نفسها، بأن البابوية خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والجزء الأول من القرن السادس عشر وصلت إلى أدنى درك خلقياً وروحياً. وبالنسبة لممالك إيطاليا كانت هذه حقبة اضطراب سياسى عندما عملت البابوية على دعم قوتها في روما. علاوة على ذلك كانت حقبة إنحياز فنى من حيث أن البابوات أقبلوا على رعاية الفنانين العظام في عصرهم، مثل «رافائيل» و «مايكل أنجلو» وغيرهما ممن عملوا في تزيين القصور وتجميل الكاتدرائيات، ومن بينها كنيسة القديس بطرس وهي الكاتدرائية البابوية في روما.

لكنها طبقاً لوصف كاتب كاثوليكي معاصر، «كانت بابوية دنيوية تهتم أساساً بالسياسات الإيطالية. وكانت مركزاً لبلاط غنى، عالمى، فاسد وعاجز عن تقديم قيادة روحية فعالة وإرشادات للكنيسة، وحقاً كان هذا البلاط يغوص منحدرًا إلى أدنى درك في القيم الأخلاقية». (٢)

(1) Quoted by Ozment, Stephen, The Age of Reform, 1250-1550, 1980, Yale University, P. 176.

(2) Knowles, David, The Middle Ages, (Vol. 11 of the Christian centuries), Paulist Press, 1978, P. 460.

أشهر الأمثلة لبابوات عصر النهضة الرفيع هم:

١- البابا سيكستوس الرابع Sixtus IV (١٤٧١ - ١٤٨٤)

أشعل الحرب ضد المدن والأقاليم الإيطالية، لكنه سعى لجعل روما عاصمة أوروبا للآداب والفنون. كذلك أعطى وظائف ممتازة لأقاربه وأهل بيته.

٢- البابا إنوسنت السابع Innocent VII (١٤٨٤-١٤٩٢)

كان ضعيفاً سهل الإنقياد لأسرة «ميديشي الثانية»، وهي أسرة قوية فاسدة. باع وظائف الكنيسة وخلق وظائف جديدة للبيع. ووصل الفساد بين الكرادلة تحت حكمه إلى هوة منحطة جديدة.

٣- البابا إسكندر السادس Alexander VI (١٤٩٢ - ١٥٠٣)

كان من أسرة «بورجيا» الشهيرة بالقسوة والفجور. حصل على انتخابه للبابوية بالرشوة. كان أيضاً متورطاً في السياسات الإيطالية، وعمل على ترقية أفراد عائلته إلى مراكز أعلى.

٤- البابا جوليان الثاني Julian II (١٥٠٣ - ١٥١٣)

اشتهر بأنه البابا المقاتل الذي قاد فعلاً الجيوش البابوية في معركة ضد الفرنسيين والأسبان. دعا إلى مجمع «لاتيران» الخامس بقصد الإصلاح، لكن المجمع لم يصل إلى نتيجة.

٥- البابا ليو العاشر Leo X (١٥١٣ - ١٥٢١)

اتبع طريقة البابوات السابقين في تثبيت السطوة السياسية للبابوية. مزج حب التعالي بالإسراف والبذخ، وكان دائماً يبحث عن وسائل لترقية أقاربه. ليو العاشر (البابا المعاصر لمارتن لوثر) وصفه كاتب كاثوليكي بأنه «مذنب بالإهمال الذريع،

والاستهتار اللامستول، والحب العارم للمتعة».^(١)

البابوية والمال

هناك اتهامات كثيرة ضد البابوية، لكن التهمة الأكثر إنتشاراً كانت الاستغلال المالى. ضج الناس بالشكوى من أعلى حاكم إلى أدنى قروى بأن الكنيسة عاشت للمال. ومن داخل الكنيسة ضغط البابا على الأساقفة الذين عصروا الكهنة الذين هم بدورهم عصروا الشعب. قال مواطن أسباني:

" أرى أننا نادراً ما نحصل على شيء من خدام المسيح إلا بالمال.

" فى العماد بالمال.... فى الزواج بالمال - الاعتراف بالمال -

" لا ولا سر المسحة الأخيرة بدون المال. لا يدقون الأجراس بدون

" المال - لا مراسم فى الكنيسة للدفن بدون المال." ^(٢) يبدو أنهم فى كل يوم اخترعوا طرقاً جديدة لتنمية دخول الكنيسة. فقد كان هناك محصلون خصوصيون من قبل البابا سافروا إلى الأرياف. كانوا يطالبون بعُشر دخل الكاهن، ويحصلون على كل حصيلة الكاهن عن السنة الأولى من خدمته وبالطبع كانت المراكز والوظائف الكنسية لمن يدفع المبلغ الأكبر. الضرائب كانت تفرض سنوياً على رؤساء الدولة. وإذا سافر البابا أو احتفل بأحد الأعياد، حينئذ تفرض لذلك ضريبة إضافية. يقدر أن الكنيسة فى فرنسا وألمانيا استولت على ما يتراوح بين ثلث إلى نصف كل أملاك الدولة. فى إنجلترا تلفت الكنيسة وصرفت حوالى ٢٥٪ من

(1) Iserloh, Erwin (with Joseph Glazik and Hubert Jedin), *Reformation and Counter Reformation*, editors Jedin and Dalan, Seabury Press, 1980, P.7

(2) Quoted by Stevenson, William, *The Story of the Reformation*, John Knox Press, 1963, P. 19

الدخل القومى. فى هذه الفترة من التاريخ لم يعد الناس يفكرون فى الكنيسة على أنها مؤسسة للخدمة أو الإلهام لكن بالأحرى كملكية خاصة بكبار رجال الإكليروس، وجدت لتجلب لهم امتيازات ومكاسب اقتصادية.

بيع صكوك الغفران

كان مشروع بيع صكوك الغفران أحد المشروعات العديدة المدرة للمال، التى اخترعتها كنيسة العصر الوسيط. وهذه العملية هى التى أدت بطريق مباشر إلى الإصلاح البروتستانتى.

صكوك الغفران جزء من نظام التوبة

كان بيع صكوك الغفران امتداداً للنظام المتعلق بالتوبة. فالمنتظر من كل مسيحى أن يعترف بخطايه للكهنة، ويحصل على الغفران. بعد ذلك كان يتعين عليه القيام بأعمال خاصة بالتوبة، ليخفف من دينونته الأبدية. هذه الأعمال يمكن أن تكون فى صورة صلوات، أصوام، صدقات، الخ. لكن الكنيسة وجدت حينئذ طريقة أخرى ترضى دينونة الله على الشخص المعترف، وتلك كانت ابتياع «صك الغفران» من «خزينة الاستحقاقات» فى السماء. ولقد عللوا ذلك بأن الدم الذى سفكه المسيح كان كافياً للخلاص بكميات أوفر من حاجة الجنس البشرى، وأن قديسين وشهداء كثيرين عملوا الصالحات بما هو أكثر من اللازم لخلاص ذواتهم. هكذا بقيت هذه الخزينة الأبدية من الاستحقاقات التى أمكن السحب منها بواسطة صك الغفران للخطيئة العادى. وفى وقت لاحق امتد مبدأ صكوك الغفران ليشمل المسيحيين الذين احتجزوا فى المطهر. وكان فى استطاعة أقربائهم أن يشتروا صكوك الغفران ليحصلوا لهم على الإفراج.

صكوك الغفران والسيمفونية Simony (الاتجار بالرتب الكهنوتية)

كان بيع صكوك الغفران يتم بناء على مرسوم بابوي، وهذا كان يعنى عملياً التأكيد على نصيب البابا فى الدخل. علاوة على ذلك فقد ارتبطت الممارسة بشراء مناصب الأساقفة ووظائف كنسية أخرى وكان البابا يمنح الإذن ببيع صكوك الغفران فى منطقة معينة حتى يستطيع الموظف المستفيد أن يدفع للبابا بعد ذلك ثمن منصبه الجديد. (١)

أحد المؤرخين شرح الباعث على الإصلاح كما يلى:

" إن القضية التى شرع البروتستانت فى التغلب عليها كانت

" محاربة الخرافات والظلم - تعاليم وممارسات أثقلت ضمائر

" المؤمنين وحوافظهم. من وجهة نظر المصلحين، لم تكن القضية

" فى ديانة العصر الوسيط هى تحدى التقليد والسلطات الموقرة.....

" بل مؤسسة دينية أصبحت عديمة الفاعلية فى ممارستها التعبدية

" والليتورجية ونادراً ما كانت تصدق فى تعليمها العقائدى".

(Ozment, Steven, The Age of Reform, 1250 - 1550, P. 210)

(١) فى مجمع «لاتيران» الخامس فى سنة ١٥١٤ قدمت الدعوة لأجل إصلاح هذه الممارسة. لكن سرعان ما منح الباب رئيس الأساقفة «البرخت Albrecht» أبروشيتى «مجد برج ومانز Magdeburg & Mainz» بمبلغ عشرة آلاف قطعة ذهبية (عملة قديمة) على أن يجمع المبلغ من حصيلة بيع صكوك الغفران. هكذا اندفع يوهانز تيتزل على رأس بعثة المبيعات التى أغاظت مارتين لوثر وحفزته لتعليق رسائله على باب كاتدرائية وتنبيرج (انظر الفصل عن لوثر صفحة ٧٩)

بعد أن أوضحنا الموقف المتدهور داخل البابوية نعود الآن إلى إمعان الفكر في الحركات والشخصيات المختلفة التي كانت تدعو إلى الإصلاح قبل أن تقوم فعلاً حركة «الإصلاح» بوقت طويل.

Recommended English Readings

1. Grimm, Harold J. - **The Reformation Era - 1500-1650**, Macmillan New York, PP. 29 P. 33, 35-41.
2. KNOWLES, David (with Dimitri Obenensky) - **The Middle Ages**, (Vol. 11 in the series **The Christian Centuries**, Paulist Press, New York, 1978, PP. 405-434.
3. Latourette, Kenneth. S.- **A History of Christianity** Harper, New York, 1953, PP. 624-640.
4. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, (Christian Students' Library No. 3), The Christian Literature Society, 1958, PP. 8-12, 40, 41.
5. Ozment, Steven - **The AGE of Reform**, Yale University Press, 1980, PP. 155-181, 204-222.
6. Stevenson, Williston - **The Story of the Reformation**, John Knox, Richmood, 1963- PP. 16-22.
7. Walker, Williston- **A History of the Christian Church**, Scribner's New York, 1970 - PP. 261-264, 266-267, 274-285.

ثانياً: تحركات الإصلاح قبل الإصلاح الفعلى

كما هو واضح من الجزء السابق كانت كنيسة العصور الوسطى فى حاجة عظمى إلى الإصلاح «فى الرأس والأعضاء». فلقد انعقدت لهذا الغرض مجامع القرنين الرابع عشر والخامس عشر لكنها فشلت فى إنجازه. على أى حال، كان هناك عدد من الفرق والأفراد الذين حاولوا بطرق متعددة أن يمهّدوا السبيل للإصلاح. ومع أن هذه الجهود كانت مبكرة وفى العادة كان يفشلها النفوذ البابوى، ومع ذلك احتفظوا بروح الإصلاح نابضاً بالحياة وأعدوا الطريق للإصلاح الحقيقى القادم.

الكاثريون The Cathari

كانت جماعة «الكاثريين» (ومعناها الأَطْهَار) إحدى أقدم الفرق الداعية إلى تطهير الكنيسة فى القرن الثانى عشر. كانوا يعرفون «بالألبيجينيين The Albigeness» اسم المنطقة الفرنسية التى كانوا يعيشون فيها. كذلك وجدوا فى «كولون» بألمانيا وشمال إيطاليا وأسبانيا. كان قصدهم تطهير الكنيسة من تنعمها وفسادها وإعادةتها إلى بساطتها الأصلية. وقد كانوا لسوء الحظ هراطقة يبشرون بنوع من الفلسفة الثنائية، مستوردة من الشرق، شبيهة جداً «بالمانية». لكن بسبب مستوياتهم الأخلاقية الرفيعة وشجاعتهم وتضحيتهم الذاتية، ربحوا أتباعاً كثيرين من أفراد الشعب الفقراء. وقد بذلت محاولات لهداية الكاثريين عند بداية القرن الثالث عشر لكنها فشلت، وأصدر البابا «إنوسنت» الثالث الأمر بقمعهم. قامت حملة صليبية بالتعاون مع ملك فرنسا كانت نتيجتها إبادة جماعية، إذ انتهت حركة الكاثريين فى الواقع بمذبحة. ففى مدينة «بيزير»، قُتل بحد السيف أكثر من ٧٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال. إنهم كهراطقة صنعوا مشكلة للبابوية لكن المشكلة كانت فى الواقع تستحق الخطوات الصارمة التى استخدمت ضدهم.

الوالدنيون The Waldensians

كان الوالدنيون «معاصرين للكاثريين، وهم جماعة أسسها والدو Waldo المتوفى في سنة ١٢١٧ وكان تاجراً من «ليون» في فرنسا. طبق حرفياً قول المسيح «إن أردت أن تكون كاملاً فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني (مت ١٩: ٢١)». «ومع أنه كان ثرياً فلقد تبرع بكل شيء، تاركاً فقط ما يكفي لمعيشة أسرته». وسرعان ما جذب إليه آخرين أعجبوا «بافتقاره الرسولي». وقد رفض البابا إسكندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) إعطاءهم الإذن بالتبشير. فلما أصروا حرمهم في وقت لاحق. لكن الوالدنيين لم يكونوا هراطقة مثل الكاثريين. فهم لم يبشروا بعقيدة جديدة. بل جعلوا الكتاب المقدس مركزاً لحياتهم الروحية وطبقوا وصاياهم حرفياً، خاصة وصايا العهد الجديد. تجولوا اثنين اثنين لابسين ثياباً بسيطة من الصوف، حفاة الأقدام أو محتذيين الصنادل، معتمدين في معيشتهم تماماً على عطايا سامعيهم. ومع أن الكنيسة صدتّهم دائماً، لكن الوالدنيين استمروا في المناطق البعيدة في شمال إيطاليا. ولما هلّ إصلاح القرن السادس عشر برزوا من جديد وأصبحوا بروتستانتين بالكامل. والكنيسة «الوالدنية تواصل اليوم رسالتها في إيطاليا والأرجنتين وأورجواي أقدم الكنائس البروتستانتية قاطبة.

الكلونيون والسيستركيون The Cluiacs and Cistercians

برزت من داخل النظم الرهبانية في العصور الوسطى جماعات وأفراد عديدون، الذين في تقشف معيشتهم عبروا عن اشمئزازهم بعالمية كنيسة العصر الوسيط، وفي القرن العاشر تأسس نظام «كلوني الفرنسى Cluny of France» في محاولة

لتصحيح أخطاء النظم الرهبانية الأخرى بالقُدوة والتأثير. كذلك جاهرت حركة «كلونى» ضد آل سيمونى Simony (الاتجار بالوظائف الإكليريكية) وانتهاكات أخرى.

فى القرن الحادى عشر، فى فرنسا أيضا ظهر «السيستركيون The Cistercians» بهدف إصلاح الرهبانية.

كان قائدهم العظيم «برنارد الكليرفوى Bernard of Clairvaux» (١٠٩٠ - ١١٥٣) يجسّد المثل الأعلى للافتقار الرسولى وأصبح بقُدوته الشخصية وقيادته قوة أدبية مقتدرة. كان واعظاً له تأثيره. ومع أنه كان ملتزماً بدعم البابوية، فإنه عمل على إصلاح أمن الداخل. ولقد نال برنارد إعجاب كل من لوثر وكالفن. وكان المدعو «أرنولد من بريسكيا Arnold of Brescia» «أحد معاصرى «برنارد» أكثر تطرفاً فى نقده للبابوية. أصبح متورطاً جداً فى السياسات البابوية ونُفذ فيه حكم الإعدام سنة ١١٥٥ باعتباره هرطوقاً.

الدومينيكان The Dominicans

تأسس النظام الرهبانى للدومينيكان فى سنة ١٢١٦ بمجهود حازم لصدّ تأثير الكاثريين. خرج الدومينيكان فى إرساليات لهداية وإعادة المرتدين إلى الكنيسة الأم. حتى بعد موت المؤسس «دومينيك Dominic» فى سنة ١٢٢١ انتشر النظام انتشاراً واسعاً فى فرنسا، وأسبانيا، وإيطاليا، وألمانيا، وإنجلترا. وتسلسل إلى المدن المتحضرة وأثر فى مستويات الجامعات. «توماس اكوينى» كان من الدومينيكان، وكذلك كان «مايستر إيكهارت Meister Eckhart» و«جون تاوُلر John Tauler» و«سافونارولا Savonarola». إذا لم يكن الدومينيكان هكذا مصلحين، فإن بساطة حياتهم ومساعدتهم الكرازية أرسّت مثلاً عالية لباقي الكنيسة.

الفرنسيسكان The Franciscans

بدأ نظام الفرنسيسكان الذى أسسه القديس فرانسيس الأسيسى Francis of Assisi (١١٨٢ - ١٢٢٦) بتكريس أكثر لمثال «فقر الرسل». ففي سنة ١٢٠٨ حدث أنه سمع لأول مرة كلمات المسيح فى متى ١٠: ٧-١٤ وقرر على الفور «أن يعيش حسب الإنجيل المقدس». كان يركز بالتوبة وملكوت الله بدون مرتب، مرتدياً أبسط الملابس، متناولاً أى طعام يقدم له. كان يقتدى بالمسيح ويطيع وصايا المسيح بالمحبة. وسرعان ما جمع فرانسيس حوله آخرين كثيرين ذوى عقلية مشابهة. كانوا يخرجون اثنين اثنين كارزين ومعاونين الفلاحين فى أعمالهم ومعتنين بالبرص والمنبوذين. وقد تطور الفرنسيسكان كمنظمة مختصة بإرسالية كرازية للبلدان غير المسيحية. ذهب فرانسيس نفسه إلى مصر سنة ١٢١٩ وكرز أمام السلطان. أشهر مرسل فرنسيسكانى للعالم العربى كان «رايموند لول Raymond Lull» (١٢٣٢ - ١٣١٦) الذى كرز وكتب باللغة العربية. والقول (إنه مات شهيداً فى الجزائر ليس مقبولاً الآن من معظم المؤرخين). فى حين أن الفرنسيسكان لم يعملوا للإصلاح بإدراك، فإنهم باهتمامهم بالفقراء والمنبوذين ذكروا الإكليروس بحقيقة رسالة الكنيسة وأهدافها.

المتصوفان، إيكهارت، وجون تاوُلر The Mystics, Meister Eckhart and John Tauler

بعد ذلك، فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر تحول بعض المفكرين إلى مذهب الصوفية. واعتُبر «إيكهارت» الألمانى عقل الإفلاطونية المحدثه الذى علم بأن روح الإنسان هى شرارة الله. طبقا لإيكهارت كان الغرض من كل الممارسات التكريسية هو الحصول على الوحدة مع الإله. وأكد تلميذه «جون تاوُلر» (١٣٠٠ - ١٣٦١) أيضاً على أهمية الحياة التكريسية الداخلية، على أن الله «يولد

بداخلنا». هؤلاء الصوفيون كانوا موضع إعجاب لوثر، الذى وإن اختلف معهم أساساً فى اللاهوت، رأى فيهم أسلوب التحول عن المظاهر الخارجية التى كانت شائعة فى الكنيسة الكاثوليكية.

أخوة الحياة المشتركة

انتقل موضوع الصوفية إلى هولانده بمعرفة «جيرهارد جروت Gerhard Groot» (١٣٤٠ - ١٣٨٤) الذى أكد على حياة تكريسية عميقة ممتزجة يومياً بحياة مسيحية عملية. وبعد موته، أسس أتباعه «أخوة الحياة المشتركة». ومع أنهم ليسوا أتباع مذهب صوفى، فلقد عاشوا معاً فى منازل حيث مارسوا نمطاً لحياة تقشفية صارمة.

الاقتداء بالمسيح

كجزء من هذا الاتجاه نحو الصوفية ظهر أحد الكتب الكلاسيكية العظيمة فى العصر الوسيط وهو «كتاب الاقتداء بالمسيح». اسم مؤلف الكتاب ليس مؤكداً لكن تقليدياً ينسب إلى «توما القمبيزى Thomas a Kempis» (١٣٨٠ - ١٤٧١)، عضو أخوة الحياة المشتركة. قليلون هم الذين رتبوا بكل وضوح لغة التكريس الصوفى البسيط ليسوع:-

" ماذا تفيدك المجادلة الفلسفية فى غوامض الثالوث إذا كنت

" خالياً من التواضع. لذلك لا يرضى عنك الثالوث. إن الأقوال

" العالية لا تزكى الإنسان ولا تبرره، ولكن العيشة الفاضلة

" تجعله محبوباً عند الله." (من كتاب الاقتداء بالمسيح الفصل الأول عدد ٣).

كاترين دى سينا وجان دارك

القديسة «كاترين دى سينا Catherine of Siena» من إيطاليا (١٣٤٧ - ١٣٨٠) كانت امرأة اختارت حياة التصوف منذ طفولتها. أخذت العهد وترهنت فى نظام الدومينيكان. بعد ثلاث سنوات من حياة التكريس والصلوات المنفردة دخلت الحياة العامة حيث وهبت نفسها لخدمة الفقراء والمرضى والسجناء. بعد ذلك حولت جهودها لتأتى بالسلام إلى البابوية المتحاربة فى أيام «أفينيو» وساهمت كثيراً فى الوحدة بعد الانشقاق (أى البابوية الممزقة).

إمرأة صوفية أخرى مشهورة هى «جان دارك الفرنسية Joan of Arc» (١٤١٢ - ١٤٣١) التى فى عمرها المبكر آمنت بأنها مدعوة من الله أن تعطى نفسها لحياة مقدسة. وفى إيمانها بأن الله قد بعث بها لإنقاذ بلادها، أقنعت شارل السابع ملك فرنسا أن يحارب الإنجليز، فقادت الجيوش بنفسها وأنقذت الموقف لكن أعدائها أسروها وحاكموها وأثبتوا عليها جريمة الهرطقة لأنها اعتقدت فى نفسها أنها مسئولة مباشرة أمام الله وليس أمام الكنيسة، وحرقوها على القائمة المعدة لذلك قبل بلوغها سن العشرين. لكن فى وقت لاحق حكمت محكمة أخرى ببراءتها وأعلنوها قديسة. هاتان المرأتان كانتا مثالين بارزين للمسيحيين الذين حركوا ضمير الكنيسة بطهارة حياتهما وتكريسهما وطاعتها لدعوة الله.

سافونارولا Savonarola

بين أعظم قديسى فترة ما قبل الإصلاح كان «جيرولامو Girolamo سافونارولا» من فلورنسا بإيطاليا (١٤٥٢ - ١٤٩٨) كان أحد الدومينيكان الذى باشر حياة الكرازة والنبوة فى بلدته الأصلية ومكث هناك طول أيام حياته. وقد تحقق عدد من نبوءاته. كانت كرازته قوية حتى أن الآلاف حضروا للاستماع إليه. نادى بالإصلاح الأخلاقى والإصلاح السياسى. فى الواقع إنه السبب فى وضع دستور جديد لمدينة

فلورنسا حيث صار حكامها وقضاتها مسئولين أمام الله قبل الكنيسة. «الله وحده يكون ملكك يا فلورنسا من حيث كان ملكاً لإسرائيل بمقتضى العهد القديم». سافونارولا دُعي إلى روما من البابا الكسندر السادس لكنه رفض الذهاب. حينئذ منعه البابا من ممارسة الكرازة، بعد ذلك حرمه وأدانته كهروطوق يستحق الموت. وإذا كان يشعر بالأمان بمساندة الشعب في فلورنسا، هاجم سافونارولا البابا علانية. أعلن أن الكاهن والبابا ليسا إلا أدوات لتنفيذ مشيئة الله، وحينما يسحب الله وجوده فقد أصبحت آلات حديدية معطوبة. «إذا كان مطران الكنيسة يأمر بما هو ضد حياة التقوى والمحبة، فإنه لا يفقد طاعة الناس وحسب بل يستحق أن يكون «أناثيما». هكذا كان تأثير سافورولا عظيماً في فلورنسا حتى أنه استطاع أن يغير عيداً سنوياً إلى احتفال كبير للإصلاح. فلقد جاء الناس بامتعتهم الدنيوية... الصور، والكتب، وأوراق اللعب، والمصوغات، الخ، إلى الميدان العام وأشعلوا فيها النار على أنغام الترانيم والتسابيح الدينية.

لكن سافونارولا، كان له أعداء في المدينة وفي بعض الأوساط الصوفية الأخرى. وشعر الناس أنه ذهب إلى أبعد من اللازم في مهاجمة البابا. وجاء اليوم الذي رتبوا فيه لسافونارولا أن يبرهن نفسه بطريقة «التحكيم بالنار» (أن يمشى بقدميه داخل النار، فإذا لم يحترق كان ذلك برهانا على أنه ليس هرطوقيا أما إذا احترق فالعكس كان صحيحاً). ولسبب مجهول لم تتم هذه المحاكمة. من ثم فقد سافونارولا الخطوة عند الناس. فقبض عليه أعداؤه وعذبوه وحاكموه كهوطوق وخائن. وشُنق هو واثنان من رفاقه وأحرقت أجسادهم. وحيث أنه عاش قبيل حركة لوثر (ربما كان عمر لوثر ١٤ سنة لما مات سافونارولا) فلا بد أنه ترك بعض التأثير في المصلح الكبير. لوثر قرأ بعض تفسيراته للمزامير وأسمائها «قطعة من التعليم الإنجيلي والتقوى المسيحية» مع أن سافونارولا بقى كاثوليكيًا أمينًا، فإن بعض كتاباته شبيهة جدا بكتابات المصلحين. كتب في تأملاته يقول، «ليس

بإستحقاقاتهم الذاتية أو من أعمالهم الشخصية، نالوا الخلاص، كى لا يفتخر
أحد، لكن لأن هذا كان حسناً فى عينيك». (١)

(1) Quoted by Schaff, Philip, *History of the Christian Church*, Scribner's, 1910, Vol. V1, P. 711

Recommended English Readings

1. Grimm, Harold J. **The Reformation Era - 1500 - 1650**, PP. 46-49.
2. Jedin, Hubert and Dolan, John **History of Church - Vol. 1V, From the High Middle Ages to the Eve of the Reformation, Crossroads**, New York, 1982, PP. 99-102, 426-443.
3. Knowles, David **The Middle Ages**, (Vol. 11 in the series, **The Christian Centuries**), PP. 352-358, 365-371.
4. Latourette, K.S. **A History of Christianity**, PP. 643-650
5. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, PP. 8-12
6. Ozment, Steven, **The Age of Reform**, PP. 98-115, 127-134, 239-244.
7. Schaff, philip **History of the Christian Church**, Scribners 1910, Vol. VI PP. 243-263, 273-293.
8. Walker, Williston **A History of the christian Church**, PP. 225-238, 252-255.

ثالثاً: «جون ويكليف John Wyclif» (١٣٢٨ - ١٣٨٤)

و «جون هس John Huss» (١٣٧٣ - ١٤١٥)

مصلحان قبل الإصلاح

اثنان من رجال الكنيسة فى القرن الرابع عشر يستحقان التفاتاً خاصاً: «جون ويكليف من إنجلترا وجون هس من بوهيميا». كانا مصلحين قبل الإصلاح حين ذهبا أبعد من أى من الآخرين فى إثارة أسئلة أساسية. تحديا البابوية فى أمور تتعلق باللاهوت والسلطة. ذات اللغة التى استخدمها فى دراسة الكتاب المقدس كان لها صداها فى مصلحي القرن السادس عشر. لقد دفعا ثمن موقفهما بإصدار الحرم البابوى وفى حالة «هس» بموته شهيداً. لذلك يستحق ويكليف وهس معالجة منفصلة عن المصلحين السابقين الذين أتينا على ذكرهم.

(أ) جون ويكليف (١٣٢٨ - ١٣٨٤)

ويكليف مستشاراً للملك

لا نعرف إلا القليل عن حياة ويكليف المبكرة إلى أن دخل جامعة أكسفورد، وسرعان ما اكتشفت قدراته العلمية وعُين أستاذاً. وطلب إليه فى وقت لاحق أن يكون مستشاراً لاهوتياً للملك فى إحدى خصوماته مع البابوية. لكنه جلب على نفسه نظرة عدائية من الكنيسة لما بدأ يحقق فى حياة الترف التى يحياها الإكليروس وتورطهم فى الشئون السياسية. وافق على أن موظفى الكنيسة يحتفظوا بمناصبهم وقوتهم كأمانة أو وديعة، بانياً حجته على علم اللاهوت طبقاً لأغوسطينوس. فإذا انتهك أى واحد تلك الأمانة، حينئذ يجب أن تؤخذ منه. إن القوات المدنية التى تعمل بمشورة الله يمكن أن تنقل رجل الدين من وظيفته وتجرده من ممتلكاته الأرضية.

ويكليف يُغضب البابا ويُرضى الملك

ربما بدون قصد، أثار ويكليف قضية سياسية كما أثار قضية لاهوتية أيضاً. كان ذلك فى فترة بابوية «أفينيو Avignon» المشهورة بالشراء وسياسة فرض الضرائب الفاحشة. كانت إنجلترا فى ذلك الوقت ثائرة، والملوك والنبلاء حاسدين وطامعين فى ممتلكات الكنيسة. هكذا فإن ويكليف أثناء إغضابه البابا ربح حظوة الحكومة. دُعى فى سنة ١٣٧٧ ليمثل أمام مطران لندن لكن النبلاء وفروا له الحماية. أصدر البابا الأوامر للقبض عليه لمحاكمته، لكن الأوامر لم تسفر عن نتيجة بسبب أصدقاء ويكليف فى البلاط الملكى.

ويكليف يهاجم البابوية

عندئذ ذهب ويكليف إلى أبعد من ذلك فى مهاجمة البابوية هجوماً مباشراً. قال إن الكنيسة ليست متمركزة فى البابا والكرادلة، لكن فى شركة المختارين يكون المسيح بالتأكيد رأسها الوحيد، «ليس للبابا قوة فى الربط والحل أكثر من أى كاهن». إنها عندى مسألة إيمان بأنه لا يجب على أى إنسان أن يتبع البابا أو حتى أحد القديسين فى السماء إلا عندما يقتدون بالمسيح.^(١) فى كتاباته اللاحقة استخدم لغة عنيفة لدرجة أنه سمى البابا عدو المسيح.

ويكليف وسر الأفخارستيا

اختلف ويكليف فى الموقف الكاثوليكي بالنسبة لسر الأفخارستيا (الاستحالة الجوهرية) - إن الخبز والخمر يتحولان فعلاً إلى جسد الرب ودمه. آمن بأن الجسد والدم كانا حاضرين حقاً، لكن لم يكن هنا تحويل وتغيير فى الخبز والخمر، وإلى حد ما كان ذلك هو فكر مارتين لوتر. بهذه الآراء اشتدت المعارضة البابوية ضد

(1) Quoted by Schaff, Philip, History of the Christian Church Vol. VI, P. 333

ويكليف.

فى سنة ١٣٨٢ أذان كبير أساقفة كنتربرى أربع وعشرين فكرة ويكليف. ومنعه من إلقاء المحاضرات فى جامعة أكسفورد. لكن بسبب حماية أصدقائه، لم يستطيعوا مهاجمته شخصياً. مات سنة ١٣٨٤ وهو مازال يخدم فى كنيسة بإحدى القرى.

ويكليف يترجم الكتاب المقدس

ربما أعظم مساهمة من ويكليف كانت ترجمته للكتاب المقدس إلى اللغة الإنجليزية الدارجة. ترجم مباشرة من «الفولجاتا» اللاتينية. الظاهر أنه لم يكن يعرف العبرية أو اليونانية. لكن حينئذ، استطاع الرجل العادى أن يسمع كلمات «الكتاب» ويقرأ بلغة بلده. هذا أيضاً اعتبره الإكليروس خطأ عظيماً. فالكتاب المقدس باللاتينية كان لهم وحدهم ملكية خاصة، فإذا أصبح متاحاً لعامة الشعب. كان ذلك تدنياً، مثل قذف الجواهر أمام الخنازير. ترجمة ويكليف منعت سنة ١٤٠٨.

أهمية الكتاب المقدس عند ويكليف Wyclif

فضلاً عن ذلك، وضع ويكليف الكتاب المقدس فوق كل سلطة أخرى، كان لديه التقدير والاحترام للكتاب المقدس بما يقارن بتقدير أوغسطينوس وأيضاً المصلحين العظام.

«لا شىء يجب الإيمان به ما لم يكن مؤسساً على هذا الكتاب، ولا يجب إضافة شىء إلى تعليمه.... هذا الكتاب هو الحق الكامل الذى يجب أن يدرسه كل مسيحى. هو مقياس ونموذج كل المنطق. وإذا كان المنطق فى أكسفورد يتغير فى أحيان كثيرة، أجل كل عشرين سنة إلا أن الأسفار المقدسة نعم، نعم ولا، لا.

إنها لا تتغير أبداً. كلمة الله تبقى إلى الأبد». (١)

اللوالارديون The Lollards

وفيما هو مشغول بأن الكنيسة في الحقيقة لا تخدم الشعب، نظم ويكلييف فريقاً من «الكهنة الفقراء» الذين تجولوا كارزين في الأرياف. على مثال «الوالديين» ارتدوا أبسط الثياب ومشوا حفاة. بعد موت ويكلييف ازداد عددهم. أصبحوا في الواقع ذوي تأثير مكنهم من تقديم مشروع قانون في البرلمان استنكروا فيه وأدانوا رذائل الكنيسة. لكن بحلول سنة ١٤٠١ قويت المعارضة حتى أجازوا قانوناً يدين «اللوالارديين» باعتبارهم هراطقة.. فإذا قبض على أفراد منهم كان لابد من إعدامهم حرقاً. ومات منهم كثيرون بهذه الطريقة. ومع ذلك بقيت الحركة لسنوات عديدة.

ويكلييف مصلحاً

قد يجادل البعض في أن جون ويكلييف لم يكن مصلحاً على مستوى مارتن لوتر. لأن اللاهوت طبقاً لتعاليمه لم يكن كامل التطور. ومع ذلك فإنه في نقاط أخرى سبق المصلحين. فقد عظم الكرازة - وضع الكتاب المقدس فوق الكل وأوصله إلى أيدي جمهور الشعب - استنكر العصمة البابوية - طالب بأمانة الإنكليروس - تحدث عن الكنيسة كمجتمع المختارين.... الخ. إنه أكثر دقة أن نقول إن ويكلييف كان مصلحاً ولد قبل عصره. مع أن الحاجة إلى الإصلاح كانت واضحة، ومع ذلك فإن ظروف العصر السياسية والكنائسية كانت تحول دون الإصلاح مهما بذل ويكلييف من اهتمام وصراع في هذا السبيل.

(1) Quoted by Schaff, Philip, History of the Christian Church, 339Vol. VI, P.

(ب) جون هس (١٧٧٣ - ١٤١٥)

بوهيميا مستعدة للإصلاح

فى إقليم بوهيميا (حاليا تشيكوسلوفاكيا) خلال القرن الرابع عشر كان هناك الكثير من التقدم السياسى والرغبة للإصلاح فى الكنيسة، وبخاصة تحت حكم الملك شارل الرابع الذى كان أيضاً ينتمى للإمبراطورية الرومانية المقدسة.

صارت «براج» أبروشية مستقلة، وتأسست الجامعة. ومن الناحية الدينية تأثرت بوهيميا قليلاً «بالوالدينين». وهاجم بعض المبشرين ثراء الكنيسة وعالميتها. أما «جون ملك John Milic» و «متياس الجانوفى Matthias of Janov» وغيرهما فقد دعوا إلى مزيد من مراعاة عشاء الرب المتكرر وأكدوا على أن الكتاب المقدس قانون الحياة.

العلاقات مع إنجلترا ومع ويكليف

هناك حادثة قربت بوهيميا إلى إنجلترا وهى زواج الأميرة «أنا» ابنة شارل الرابع من رتشارد الثانى ملك إنجلترا. «أنا» أصبحت مفرمة بكتابات ويكليف. الطلبة البوهيميون جذبتهم جامعة أكسفورد وبالطبع جاءوا بآراء ويكليف إلى جامعة «براج». مع أن جون هس كان بلاشك ينفذ إرساليته للإصلاح على أى حال، فإن جو الحماس لحب الوطن والانتعاش الدينى فى بوهيميا أعد الأمة لما كان سيقوله.

هس تأثر بويكليف

وُلد هس من أبوين قرويين سنة ١٣٧٣ وتعلم فى جامعة «براج». وبعد حصوله على درجتى البكالوريوس والماجستير رُسم للكهنة سنة ١٤٠١ واستمر أستاذاً فى الجامعة. طبيعى جداً صار هس ملماً تماماً بأعمال ويكليف. وانقسم الدارسون

فى الرأى بالنسبة لمدى تأثر هس بويكليف. إلا أنه يوجد دليل قوى بأنه تأثر به فعلاً. فثمة فصول معينة من كتابات هس تكرر فكر ويكليف تماماً. ومع أنه لا يتفق مع ويكليف على كل نقطة (مثلاً اختلف معه على سر الأفخارستيا) فإن حجته الرئيسية ضد عصمة البابوية (المسيح وحده هو رأس الكنيسة) والمكانة المركزية للكتاب المقدس فوق كل سلطة أخرى، أثبتت شخصيته فى أعين السلطات على أنه تلميذ ويكليف.

هس اشتهر شعبياً لكن الكنيسة حرمته

كان هس وقتئذ يكرز فى إحدى الكنائس الكبرى فى براج جاذباً إليه انتباه جمهور غفير. وكان له أعداء فى الكنيسة والجامعة. كان ذلك وقت الشقاق البابوى، وكان الولاء منقسماً فى بوهيميا. حاول الملك «وينكسلاس Wenceslas» (ابن شارل الرابع) أن يكون محايداً وساند هس وزملاءه فى الجامعة. الجامعة نفسها كانت منقسمة بين الأحزاب الألمانية والبوهيمية. الفريق الألمانى انفصل ليكون جامعة «ليبيج». وأصبح هس مديراً للجامعة البوهيمية التى أصبحت الآن معهداً أصغر وأضعف. بيد أنه نُظِرَ إليه بارتياح أكثر فأكثر، ليس فقط من العصابة الألمانية الأكاديمية لكن أيضاً من الكنيسة. رئيس أساقفة براج «إبينيك Ebynek» الذى كان فى وقت سابق متعاطفاً مع هس، أصدر - بتشجيع من البابا - أمراً بحرمان هس. لكن الملك والشعب احتجوا لأن هس كان قد أصبح وقتئذ رمزاً للوطنية. واستمر فى هجماته على البابوية خصوصاً على بيع صكوك الغفران. مرة أخرى صدر الأمر البابوى بحرمان هس ووضعت مدينة براج تحت الحرم البابوى وحرمت عليها كل المراسم الدينية. وحرصاً على سلامته، أقنع الملك «وينكسلاس» جون هس أن يختفى. كانت هذه هى الفترة التى ألف فيها أشهر أعماله - «عن الكنيسة».

هس يُنظر إليه كعدو

بسبب مطابقته لآراء ويكلييف (الذى أدينت كتاباته من الجامعة والكنيسة) نُظِرَ إلى جون هس كجزء من سرطان منتشر، مهدداً حياة الكنيسة ذاتها. قالوا، «إنه يمثل نوعاً من الفوضوية. وهو المبدأ الذى كان يدعو إلى نبذ البابوية، وأن يُداس الأساقفة تحت النعال، وإلى تكسيح الرهبنة واستفزاز الثورة السياسية الاجتماعية».^(١) ربما لم يفتن هس نفسه فى بادئ الأمر، إلى أنه كان يُنظر إليه كشخص خطير جداً يستحق أقسى الإجراءات.

هس يُستدعى لمجمع كونستانس

فى سنة ١٤١٤ دُعِيَ كونستانس للانعقاد سعيًا وراء حلّ للبابوية المنقسمة. «سيجسموند Sigismund» الإمبراطور الرومانى المقدس والشخصية القوية فى المجمع إنتهزها فرصة لتسوية المشاكل فى بوهيميا. واقترح سيجسموند على هس أن يعرض قضيتته على المجمع. وحصل على وعد بالأمان فى التصرف معه، وأوقف البابا يوحنا الثالث والعشرون الأمر بحرمان هس. ووصل هس إلى كونستانس ليس بدون قلق على حياته لكن غير مدرك لوزن اللاهوت التقليدى ونظام الكنيسة التى سيواجهها. كان واثقاً أنه إذا أُعطى آذاناً صاغية أمكنه إقناع الأساقفة بصحة موقفه.

هس يُدان وينفذ فيه حكم الموت

فشلت ترقعاته تماماً. فعند وصوله ساقوه إلى السجن فى ظروف غير صحية. وأدان المجلس «ويكلييف» وأمر أن يحرق جسده الذى سبق دفنه مدة طويلة. ثم

(1) Betts, R.R., "Some Political Ideas of Early Czech Reformers, Quoted by Steven Ozment, op. cit. P. 170

اتهموا هس بالوكليفية. أجاب على اتهاماتهم بابتعاده عن ويكلييف فى بعض النقاط، لكنه رفض تغيير بعض المواقف إلا إذا تبرهن فيها الخطأ. أصر على وجوب أن يكون الكتاب المقدس وحده قاضى عقيدته وضميره. لم يقبل أن يخضع ضميره للمجمع. وبعد محاولات عديدة لإقناع هس أن ينكر رأيه، حولوه إلى السلاح المدنى (أى الدولة) مخافة أن يقع الذنب على الكنيسة فى سفك دمه. فى حالة إدانته بالهرطقة لم يكن هناك إلا مصير واحد. أحرقوه على قائم خشبى فى يوم ٦ يوليو سنة ١٤١٥.

يوجد بيان مشهور منسوب إلى هس فى يومه الأخير: «اليوم تشوون أوزة، لكن بعد مائة سنة من الآن سوف تقوم من رماد جثتى بجعة لا تشوونها». سواء قالها أو لم يقلها، فإنها نبوءة مناسبة لما كان سيأتى به القرن السادس عشر.

لوثر يمتدح هس

لوثر نفسه قال عن هس:

«إذا أعتبر مثل هذا الرجل هرطوقاً، إذاً لا يمكن أن

«ينظر إلى أى إنسان تحت الشمس كمسيحى حقيقى»^(١)

حركات الاستقلال القومية

أثار خبر موت هس صرخة شعبية عظمية فى كل بوهيميا. فريق من نبلاء بوهيميا عاهدوا أنفسهم أن يكرموا ذكراه. ادعوا بأن يكون خضوعهم للبابوات والأساقفة، فقط طالما كان تعليمهم موافقاً للكتاب المقدس. أحد طلباتهم أنه فى خدمة عشاء الرب يقدم الكاهن الكأس كما الخبز للشعب (كانت الممارسة

(1) Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. VI, P. 386

الكاثوليكية المقررة من مجمع كونستانس أن يقدم الخبز فقط للشعب بينما يحتفظ بالكأس للإكليروس). تكون في بوهيميا حزبان يساندان هذا الموقف، أحدهما متطرف والآخر معتدل، لدرجة أن المعارك دارت بينهما، لكنهما اتحدا ضد الجهود الخارجية من البابا لإخضاعهما. حملات عسكرية عديدة دفع بها الإمبراطور «سيجسموند» لغزو تشيكوسلوفاكيا، لكن كلها فشلت.

بنود براج الأربعة

في سنة ١٤٢٠ قدم أتباع هس أربعة مطالب تسمى «بنود براج الأربعة»:

- ١- التحرر من التضيق على الكرازة.
- ٢- العشاء الرباني بمقتضى النوعين (أى الكأس للعلمانيين).
- ٣- يلتزم الكهنة بأن يكونوا من ذوى الأملاك العالمية لكن يجب أن يكونوا رعاة رسولين بسطاء.
- ٤- عقوبة علنية للأخطاء المميتة، خصوصاً «السيمونية» أى الإتيجار برتب الكهنوت (بيع الوظائف الإكليريكية). (Simony)

بوهيميا تنفصل عن البابوية

أخيراً وبعد سنوات عديدة من الحرب كسب الإمبراطور سيجسموند الجولة لكنه قَبِلَ أن يتعامل مع «الهسيين» باعتدال. فقد وجد وفد منهم ترحيباً في مجمع «باسيل» سنة ١٤٣٣ وقبلت نسخة معدلة من بنود براج الأربعة. ومع أنه تم الوصول إلى هذه المصالحة الجزئية، فإن بوهيميا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، كانت فى الواقع منفصلة فى الممارسة والعقيدة عن بقية العالم المسيحى الغربى. هذه الكنيسة البوهيمية التى تكونت بعد ذلك من فرق متعددة صارت تعرف «بالأخوة المتحدين» (Unitas Fratrum). ومع أنهم انفصلوا عن روما،

إلا أنهم ظلوا يعتبرون أنفسهم كاثوليك. ولقد اندمج كثيرون فى زمن الإصلاح إما فى اللوثرية أو الكلفينية. فى القرن الثامن عشر قليلون جداً من «الهسيين» ظلوا فى بوهيميا لكن فريقاً منفصلاً كان قد انفض. أفراد هذا الفريق عرفوا «بالأخوة المورافيين». وهذه كانت الكنيسة التى أرسلت «جون أنتيز John Antes " أول مرسل عصرى لمصر فى القرن الثامن عشر. (١)

قال كاتب كاثوليكي معاصر عن مغزى الحركة الهسية فى بوهيميا «هناك منطقة من العالم المسيحى الغربى، التى كانت أيضاً أمة، قد فصلت نفسها ولأول مرة فى الحقيقة عن الخضوع لروما، مدعية فى نفس الوقت أنها تمثل الصورة الحقيقية للمسيحية. ذلك لأن سلطة الكهنة الرسولية تحت خليفة بطرس استبدلت بحكم الفرد تأسيساً على كلمة «الكتاب المقدس». (٢)

أما وأن حركة الإصلاح فى بوهيميا لم تنتشر أكثر من ذلك فقد يُعزى ذلك إلى ظروف العصر السياسية والكنائسية. كان على أوروبا أن تنتظر مائة سنة قبل إعدادها للإصلاح.

(١) كانت الكنيسة المورافية مهتمة جداً بالعمل المرسل فى الخارج أثناء القرن الثامن عشر. ففى سنة ١٧٥٢ بعثوا بالدكتور «وليم هوكر William Hooker» إلى الإسكندرية، وبعده أرسلوا «هنرى دانك Henry Danke» فى سنة ١٧٦٩. «جون أنتيز أشهر المورافيين جاء سنة ١٧٧٠. كان أيضاً موسيقياً مشهوراً. «جورج هنرى وينيجر George Henry Wieniger» وصل سنة ١٧٧٤. واستمر المجهود المورافى فى مصر حتى نهاية القرن الثامن عشر.

(2) Knowles, David (with Dimitri obolensky), The Middle Ages, Vol. 11 of The Christian Centuries, P. 456

Recommended English Readings

1. Grimm, Harold J. **The Reformation Era, 1500-1650, PP. 33-35**
2. Jedin, Hubert and **History of the Church, Vol. 1V, From the High**
Dolan, John **Middle Ages to the Eve of the Reformation, PP.**
443-459
3. Knowles, David **The Middle Ages, Vol. 11 in the series The Chris-**
tian Centuries, PP. 450-456
4. Latourette, K.S. **A History of Christianity, PP. 662-671**
5. Lefever, H. C. **The History of the Reformation, pp. 21-40.**
6. Ozment, Steven **The Age of Reform, 1250-1550, pp. 164 - 170.**
7. Schaff, Philip **History of the Christian Church, Vol. V1. PP.**
314-399
8. Walker, Williston **A History of the Christian Church, PP. 267-274**

رابعاً: الاتجاهات الثقافية فى العصر الوسيط

لما خرجت أوروبا من العصور المظلمة، بدأ فيها عصر النشاط الثقافى العظيم. كان معظم هذا النشاط مركزاً فى الجامعات التى كانت تتطور وقتئذ، وفيها تمتع العلماء بقسط من الحرية. كان أيضاً عصر النهضة التى ارتفعت انجازاتها فى الفن والعمارة والأدب والموسيقى إلى مستويات لا نظير لها حتى اليوم. كان هناك جو الاكتشاف والاستعداد للتغيير. ولم يكن بد من أن تمس هذه التطورات الكنيسة. وفى مناسبات عديدة تمكنت الكنيسة من استغلال هذه الاتجاهات لصالحها. لكن ليس دائماً، لأنه فى كثير من الأحيان كان يعتبر الشئ الجديد تحدياً لقوة الكنيسة وسلطتها.

ظهور الجامعات

الجامعات التى بدأت تزدهر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كانت تمثل تطوراً جديداً تماماً وإلى الأفضل فيما يتعلق بتلقى العلوم. فقد جمعت فى مكان واحد العلماء والطلبة وحشدت تحت سقف واحد الموهبة والمعلومة. كان التعليم الوحيد فى القرون السابقة يجرى فى أروقة الأديرة البعيدة المنعزلة. ومع أن علم اللاهوت كان لا يزال «سيد العلوم» وساد فى باريس وأكسفورد، فإن حقولاً أخرى للعلم ظهرت، وفى إيطاليا اشتهرت «بولونيا Bologne» بالقانون الكنسى والمدنى، «وساليرنو Salerno» فى الطب. لقد ذكرنا فقط جامعة براج، وكان لدى الكنيسة الكثير جداً لتقوله عن الجامعات. لم يكن فى الإمكان تأسيس جامعة جديدة بدون الموافقة البابوية ومع ذلك فإنه من الجامعات كانت ستسمع الدعوة إلى الإصلاح بإصرار وبأعلى صوت.

الكاثوليكية المقررة من مجمع كونستانس أن يقدم الخبز فقط للشعب بينما يحتفظ بالكأس للإكليروس). تكون فى بوهيميا حزبان يساندان هذا الموقف، أحدهما متطرف والآخر معتدل، لدرجة أن المعارك دارت بينهما، لكنهما اتحدا ضد الجهود الخارجية من البابا لإخضاعهما. حملات عسكرية عديدة دفع بها الإمبراطور «سيجسموند» لغزو تشيكوسلوفاكيا، لكن كلها فشلت.

بنود براج الأربعة

فى سنة ١٤٢٠ قدم أتباع هس أربعة مطالب تسمى «بنود براج الأربعة»:

- ١- التحرر من التضييق على الكرازة.
- ٢- العشاء الربانى بمقتضى النوعين (أى الكأس للعلمانيين).
- ٣- يلتزم الكهنة بأن يكونوا من ذوى الأملاك العالمية لكن يجب أن يكونوا رعاة رسولين بسطاء.
- ٤- عقوبة علنية للأخطاء المميتة، خصوصاً «السيمونية» أى الإتيجار برتب الكهنوت (بيع الوظائف الإكليريكية). (Simony)

بوهيميا تنفصل عن البابوية

أخيراً وبعد سنوات عديدة من الحرب كسب الإمبراطور سيجسموند الجولة لكنه قَبِلَ أن يتعامل مع «الهسيين» باعتدال. فقد وجد وفد منهم ترحيباً فى مجمع «باسيل» سنة ١٤٣٣ وقبلت نسخة معدلة من بنود براج الأربعة. ومع أنه تم الوصول إلى هذه المصالحة الجزئية، فإن بوهيميا فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر، كانت فى الواقع منفصلة فى الممارسة والعقيدة عن بقية العالم المسيحى الغربى. هذه الكنيسة البوهيمية التى تكونت بعد ذلك من فرق متعددة صارت تعرف «بالأخوة المتحدين» (Unitas Fratrum). ومع أنهم انفصلوا عن روما،

الكتاب، إلا أننا نشير إليه لكي نفكر في مساهمة العالم الذي أفلت من التقليد المسلم به من أصحاب هذا المذهب. إنه الرجل الإنجليزي «وليم أوكهام William Ockham» (١٢٨٠ - ١٣٤٩).

وليم أوكهام

استخدم فلاسفة اللاهوت في العصور الوسطى أدوات الفلسفة اليونانية (التي كانوا قد ورثوها عن العرب) ليبرهنوا على صحة اللاهوت المسيحي. آمنوا بأن العقيدة المسيحية يمكن إثباتها، وأنه توجد مبادئ عامة وجذرية يمكن التوصل إليها بالعقل البشري. وليم أوكهام بدأ يسائل هذه الفلسفة. قال إن العقل يمكنه فقط أن يعرف أشياء خاصة لكن ليس مبادئ عامة. مثلاً، يستطيع إنسان، أن يعرف أشخاصاً آخرين كأفراد لكنه بذلك لا يعرف - مهما كان عدد الذين يعرفهم - الفكر الكلي للبشرية. هذا الفكر غير المحدود يتعدى قوة العقل البشري. السبيل الوحيد ليدرك الناس غير المحدود هو عن طريق إعلانات الله بواسطة الكنيسة وخاصة بواسطة الكتاب المقدس. «لم يعتقد أوكهام أن مبادئ الكنيسة يمكن أن تكون غير صادقة. بل اعتقد أنه من الممكن معرفتها، ليس بالعقل، بل بالوحي - بسلطان الكنيسة أو الكتاب المقدس. بل بسلطان الكتاب المقدس والكنيسة معاً.^(١) كان لأوكهام تأثير واسع بين فلاسفة العصر الوسيط واتجه لتقويض الأساسات السكولستية التي تبنتها البابوية وبنيت عليها سياساتها. يعتقد العلماء أن أوكهام وضع الأساس لفلسفة «النزعة الإنسانية Humanism» وبوضحها كاتب كاثوليكي معاصر فيما يلي: «الاهتمام الزائد من المفكرين والشعراء بالإنسان الفرد، أكثر من اهتمامهم بالطبيعة الإنسانية كما هي، ولفت الانتباه إلى مشاكل الإرادة الحرة، والاستحقاق، والتبرير، والخلاص. اللاهوتيون الأوكهاميون شددوا

(1) Chadwick, Owen, The Reformation, Penguin, 1972, P. 34

على حرية الإرادة الإنسانية من ناحية، وعلى الحرية الإلهية من الناحية الأخرى.^(١)

أوكهام يتحدى عصمة البابا

جادل أوكهام أيضاً مثل دانتى فى استقلال الدولة عن الكنيسة. قال إن البابا يجب أن يخضع للإمبراطور فى الأمور المدنية. ومع أنه احترام سلطة البابوات والمجامع، لكنه لم يعتبرهم معصومين. السلطة الوحيدة المعصومة عنده، لابد أن توجد فى الكتاب المقدس. مارتن لوثر قال عن أوكهام، «لاشك أنه القائد بل هو أمهر فلاسفة العصر الوسيط».

مارسيلوس البادوفى Marcilius of Padua

كان مارسيلوس الإيطالى (١٢٩٠ - ١٣٤٣) من معاصرى أوكهام وهو الذى كتب رسالة علمية، بعنوان «المدافع عن السلام» أثارت أسئلة أساسية حول علاقة الكنيسة بالدولة. كان مارسيلوس أستاذاً للطب فى باريس. وأصبح مهتماً بالموقف السياسى فى عصره بسبب التوتر الخطير بين البابا والإمبراطور. كما يستدل من عنوان الرسالة: كان مارسيلوس يسعى للسلام. قال: أعلى درجات الصلاح الدنيوى، الحق الذى يؤدى إلى خلاص الحياة المدنية، وهو لا يحتوى على أقل معونة للخلاص الأبدى. فى اعتقاده أن الحياة المدنية لا يمكن أن تحصل على الخلاص إلا إذا انحصرت الكنيسة فى مهامها الروحية وعاونت الحكام فى تطوير الأهداف الكبرى للمجتمع السياسى.^(٢)

(1) Knowles, David (with Dimitri Obolensky), The Middle Ages, Vol. 11 of The Christian Centuries, P. 448

(2) Ozment, Steven, The Age of Reform, 1250-1550, P. 150

مارسيلوس يتحدى العصمة البابوية

كفيلسوف أكثر منه لاهوتى، كتب مارسيلوس مهاجماً ويعنف، سلطة البابوية المعصومة والحق الإلهى. فى رأيه أن سلطة وضع القانون تبقى مع الشعب فى الكنيسة والدولة كليهما. فكما أن الحاكم المدنى يجب أن يحصل على حقه فى أن يحكم، من المواطنين الذين عبروا عن إرادتهم بواسطة المحافل، هكذا البابوات والأساقفة يجب أن يتسلموا سلطتهم من كل جماعة المؤمنين الذين عبروا عن إرادتهم عن طريق مجامع الكنيسة. ولقد بنى مارسيلوس موقفه على الكتاب المقدس مبرهنناً أن بطرس لم يكن فى رتبة أعلى من باقى الرسل. رأى أن مسئولية وسلطة الإكليروس انحصرت فى القيادة وتعليم العقيدة. إذا كانت لهم سيادة على الإطلاق، وجب ألا تكون فى هذا العالم بل العالم الآتى. يمكن أن يتحسن النظام المدنى عن طريق الإكليروس بقيادتهم الأخلاقية وتوجيهاتهم، لكن ينبغى أن لا يكون لهم الحق فى فرض إرادتهم. السلطة النهائية فى الشئون الروحية فى هذه الحياة والحياة الآتية تبقى فى الكنيسة. لكن السلطة الأخيرة فى العالم الدنيوى تبقى فى الدولة. الحاكم المفوض من الشعب قد يكون له حق التدخل فى الشئون الكنسية التى تؤثر فى العالم الدنيوى، فيدعو إلى عقد المجامع، ويعين الأساقفة ويشرف على ممتلكات الكنيسة.

مارسيلوس ينتقد الفساد فى الكنيسة

كتب مارسيلوس عن فساد البابوية كتطور للقوة التى أصبحت أخيراً قوة مطلقة. فى الكنيسة الأولى كانت مساواة فكان الرسل قادة ومرشدين لكنهم لم يكونوا حكاماً. شيئاً فشيئاً اتخذ الأساقفة لأنفسهم سلطة أكثر، حتى انتهى الأمر أخيراً بطلبهم الطاعة من الملوك والأمراء.

مارسيلوس يدعو إلى عقد مجمع

دعا مارسيلوس كل الإكليروس من البابا إلى أقل كاهن أن يتبعوا مثال المسيح والرسول. وكما أن هؤلاء رفضوا كل الممتلكات العالمية وأخضعوا أنفسهم للسلطات المدنية، كذلك أيضاً يجب أن يفعل كهنة الكنيسة الكاثوليكية. السبيل الوحيد لإصلاح الكنيسة في رأى مارسيلوس هو أن يوجد مجمع عام يؤلف من الإكليروس والعلمانيين على قدم المساواة. هذا المجمع يكون القوة الوحيدة والمطلقة. ويصبح البابا نفسه خاضعاً للقرارات. فلا عجب إذاً أن قام البابا يوحنا الثانى والعشرون بحرمان مارسيلوس في سنة ١٣٢٧. من حسن حظه وبسبب حماية الإمبراطور، لم تستطع الكنيسة أن تتخذ ضده خطوات قانونية أخرى. وعندما جاء بابا آخر وهو اكليميندس السادس Clement V1 «قرأ كتابه» المدافع عن السلام» أعلن أنه أكثر الكتب التى رآها إمعاناً في الهرطقة.

كان مارسيلوس بدون شك رجلاً سبق زمانه بوقت طويل، لكن كما يقول «ويركمان Workman» إن مؤلفاته تشكل الآراء التى تنظم الآن تقدم أوروبا. فقد حطم عقيدة الحق الإلهى للملوك والادعاءات العالمية البابوية. فى تأكيد على الكتاب المقدس كان مارسيلوس يتحدث بصوت لوثر...^(١)

مارسيلوس يؤثر فى المصلحين اللاحقين

يوجد دليل بأن مارسيلوس أثر فى بعض مصلحي القرن السادس عشر. فقد صدرت طبعة من «المدافع عن السلام» فى بازل بسويسرا فى أيام «زوينجلي». عقيدة كنيسة الدولة التى تطورت فى ألمانيا تشبه تماماً تعليم مارسيلوس. ولقد استخدم توماس كرومويل Thomas Cromwell «فى إنجلترا ترجمة إنجليزية لكتاب

(1) Workman, H.B., Dawn of the Reformation, Epworth Press, P.80

«المدافع عن السلام» ليدعم طلب الملك هنرى الثامن ليتحرر من ريقه بابا روما.
كتب مؤرخ ألماني اسمه «باستور Pastor» يقول «إذا كان كالفن قد اعتمد على أى
واحد من سابقيه بخصوص مبادئه لإدارة الكنيسة، فعلى الكاتب الغيور
(مارسيلوس) فى القرن الرابع عشر.^(١)

(1) Quoted by Schaff, Philip, *History of the Christian Church*, Vol. V1,
P. 77.

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen **The Reformation**, Penguin, 1972, P. 33-35
2. Knowles, David **The Middle Ages**, (Vol. 11 in the series, **The Christian Centuries** , PP. PP. 445-448
3. Latourette, K.S. **A History of Christianity**, PP. 479, PP. 516-518
4. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, PP. 12-18
5. Ozment, Steven **The Age of Reform, 1250-1550**, PP. 149-155
6. Schaff, Philip **History of the Christian Church**, Vol. V1. PP. 72-78, 190-193
7. Walker, Williston **A History of the Christian Church**, PP. 242-244, 251, 252, 264, 265.

خامساً: النزعة الإنسانية Humanis

فلسفة النزعة الإنسانية

ابتداء من القرن الرابع عشر، وأكثر قوة في الخامس عشر لتزدهر في السادس عشر، كانت الحركة المسماة «النزعة الإنسانية» ستلعب دوراً هاماً في الإعداد للإصلاح. و«النزعة الإنسانية» «كفلسفة» تعتبر الكائن الإنسانى مركزاً لكل الدراسات. إنها تضع الثقة في قوة الطبيعة الإنسانية والإمكانات التي لا حد لها في الإنجاز الإنسانى. و «النزعة الإنسانية العصرية» تعتبر الله بلا مغزى وفي معظم المناسبات تنكر وجوده. إن النزعة الإنسانية المتعلقة بالعصور الوسطى لم تكن ملحدة، لكن بالأحرى مضت يداً في يد مع «النهضة Renaissance» معظمة ومعجبة بإنجازات الرسامين، والمثاليين، والموسيقيين والمهندسين. كانت فترة إعادة اكتشاف العلوم اليونانية، أفلاطون بنوع خاص. والكتاب من أمثال «بيترارك» و«دانتي» بأن هناك آفاقاً جديدة للإنسانية في الفن والموسيقى والأدب. أما «بيكو ديلا ميراندولا Pico Della Mirandola» من فلورنسا بإيطاليا فقد رأى في انتعاش الأفلاطونية وسيلة لتوحيد كل الأديان في البحث الأزلى عن الله. طبيعى جداً أن فلاسفة النزعة الإنسانية وجدوا في الكنيسة معوقاً لتقدم الفلسفة الجديدة. إن صلابة العقيدة اللاهوتية في فلسفة العصور الوسطى وسلطة البابوية المسيطرة بالكامل كتمت الفكر المبدع وحطمت جهود أولئك الذين يفكرون في ذلك. وكان هناك أشخاص مثل «فرانسوا رابيليس Francois Rabelais» الفرنسى (١٤٩٤ - ١٥٥٣) الذين كتبوا روايات هجومية قاسية ساخرين بالكنيسة ومعبرين عن كراحتهم للنفاق، والتقاليد، والأنظمة المتجمدة - خصوصاً الكنيسة.

المسيحيون من ذوى النزعة الإنسانية

لكن هناك فريق من ذوى النزعة الإنسانية الذين لم يكونوا مقاومين للكنيسة، وسعوا إلى إصلاحها من الداخل. آمنوا «بنزعة إنسانية مسيحية» التى يمكنها بواسطة البحوث الدراسية والتعليم من أن تأتى بنور جديد وحياة جديدة لمؤسسة قديمة. ويعبر عن ذلك أحد الكتاب بقوله:

«كانوا مهتمين بسلامة الأخلاق أكثر من اللاهوت، وبالتعليم أكثر من الإيمان، وبالطبيعة أكثر من النعمة. ومع ذلك لم يجادلوا فى العقيدة الأساسية للكنيسة. ولكى يحافظوا على تماسك المجتمع المسيحى فى العصر الوسيط رفض معظمهم (أتباع النزعة الإنسانية) أن يتبعوا البروتستانت فى انفصالهم عن الكاثوليك.^(١)

تأكيدات النزعة الإنسانية

كان لهذه الحركة الثقافية الجديدة «للنزعة الإنسانية» تأكيدات عديدة: المعرفة والتعليم لكل إنسان - اكتشاف الكتاب المقدس من جديد واستخدامه المسئول - انتقاد الكنيسة الكاثوليكية على ضوء الكتاب المقدس الذى يؤدى إلى الإصلاح، والأخلاق العالية المبنية على حياة تكريسية عميقة. ويضعها كاتب آخر بالنسبة لهم على هذا النحو: الجهل يتطابق مع الخطية، والمعرفة مع الإصلاح. يمكن التعبير عن العقيدة بطرق عديدة بالكشف عن الوثائق المزورة، بإنشاء نصوص كاملة الدقة ومصدق عليها، بإعادة فحص هذه النصوص فى نور المعرفة لاكتشاف معناها الكامل، وبأن تنزع من حياة الكنيسة وأنشطتها كل المعتقدات والممارسات التى تنقصها سلطة الكتاب المقدس أو مصادقة الكنيسة الأولى.^(٢)

(1) Grimm, H.J., The Reformation Era, 1500-1650, P. 53

(2) Johnson, Paul - A History of Christianity, P. 269

بعض أبرز أصحاب مذهب النزعة الإنسانية كانوا كما يلي:

لورينزو فاللا الإيطالي Lorenzo Valla of Italy

فى إيطاليا برهن «لورينزو فاللا» (١٤٠٥ - ١٤٥٧) على أن «تقدمة قسطنطين»^(١) التى سبق أن استخدمتها الكنيسة فى دعم ادعائها بالسلطان المطلق، كانت مزورة. قام أيضا بدراسة علمية للمخطوطات اليونانية واللاتينية ونشر رسالة كشفت عن أخطاء كثيرة فى «الفولجاتا»

جيمينيز دى سيزنيروس الأسباني Jimenez de Cisneros of Spain

فى أسبانيا، كان من أهم أهداف «فرانسيسكو جيمينيز دى سيزنيروس» رئيس أساقفة «توليدو» استخدام «النزعة الإنسانية» فى إصلاح الكنيسة. شجع نظام التعليم الجديد فى جامعة «الكالا» Alcala حيث نشر أيضاً على حسابه الخاص الكتاب المقدس الشهير «Polglot» المتعدد اللغات. هذا العمل كان يحتوى على نصوص الكتاب المقدس باللغات العبرية، واليونانية، والآرامية، والترجوم، والسبعينية، والفولجاتا. هذا الكتاب المقدس، الأول من نوعه منذ نسخة «أوريغانوس السادسة». ملأ ستة مجلدات.

لافيفر دى تابلز الفرنسى Lefevre D'Etaples of France

فى فرنسا ركز «جاك لافيفر دى تابلز» (١٤٥٥ - ١٥٣٦) على الدراسات «الكتابية». نشر سفر المزامير محتويًا على خمس ترجمات لاتينية مختلفة. كتب

(٣) مقدمة قسطنطين كانت وثيقة المفروض أنها كتبت بيد الإمبراطور قسطنطين فى القرن الرابع، ناقلًا بها إلى الكنيسة سلطته كحاكم دينوى. «فاللا» برهن أنه لم يكن ممكناً أن تكون قد كتبت قبل القرن الثامن.

تفسيراً للأناجيل ورسائل بولس وترجمة فرنسية للعهد الجديد. اضطهدته جامعة «السوريون» الكاثوليكية في باريس. لكنه ظل أميناً للكنيسة. كالفن تأثر بجاك دي تابلز.

جون كوليت الإنجليزى John Colet of England

في إنجلترا تدرّب جون كوليت (١٤٦٩ - ١٥١٩) على فلسفة النزعة الإنسانية، على يد «ميراندولا» من فلورنسا بإيطاليا. رجع ليحاضر في أكسفورد عن رسائل بولس. أصبح مشهوراً بمواعظه التفسيرية في كاتدرائية القديس بولس في لندن. كان كوليت صديقاً حميماً لسير «توماس مور» و «ايرازموس». أحد إنجازاته الكبرى كان تأسيس مدرسة للأولاد في كنيسة القديس بولس. كانت حينئذ فريدة من نوعها، فلقد قبلت ١٥٠ ولداً كانوا محرومين من كل فرصة للتعليم، وذلك لتدريبهم على اليونانية واللاتينية والفضائل المسيحية. وقد استخدم كوليت ثروته الشخصية لدعم المدرسة.

توماس مور الإنجليزى Thomas More of England

لاشك أن أشهر فلاسفة النزعة الإنسانية كان السير «توماس مور» (١٤٧٨ - ١٥٣٥). وإذ كان صديقاً حميماً لجون كوليت وايرازموس، قدم أساساً جديداً في دراسة اللاتينية واليونانية. دافع عن ترجمة ايرازموس اليونانية للعهد الجديد ضد منتقديها، وعبر عن اهتمامه بإصلاحات الكنيسة. كان مور، بصفة خاصة، يندد بالفلسفة اللاهوتية للقرون الوسطى قائلاً: «يمكننى أن أحصل على التغذية الجسدية، باستحلاب جدى في غريال بنفس السهولة التى أحصل بها على التغذية الروحية من قراءة فلاسفة اللاهوت فى القرون الوسطى». على أى حال كان مور مفكراً سياسياً أكثر منه لاهوتياً. عمل الكثير لمساندة هنرى الثامن فى طلباته ضد البابوية. وقد عينه هنرى وزيراً حامل الأختام فى سنة ١٥٢٩. أشهر كتبه هو

«اليوتوبيا» أو الدولة المثالية، الذى تخيل فيه حكومة ديمقراطية كاملة لدولة خيالية حيث يعيش جميع الناس فى سلام وراحة وسعادة. الدين فى اليوتوبيا يوسس على العقل، والطبيعة، وتتمركز العدالة فى الأسرة. ديانات أخرى يمكن التجاوز عنها غير المسيحية. بالرغم من الهرطقة الظاهرة فى اليوتوبيا، بقى مور كاثوليكياً أميناً. وعارض الإصلاح اللوثرى. ولما أصر الملك على سيادة الملكية فوق الكنيسة، استقال من منصبه. مات فى سنة ١٥٣٥ بقطع رأسه.

النزعة الإنسانية فى ألمانيا

كان الألمان من أصحاب هذا المذهب متأثرين فى الأصل بالإيطاليين. أصبحوا متفوقين فى اليونانية والعبرية، ودرسوا الكتاب المقدس بعناية وأرادوا أن يستعيدوا تأسيس المسيحية الأولى. فى ألمانيا كان أيضاً شعور قوى بالاستياء ضد تدخل البابوية فى الشئون السياسية.

يوهانز روشلين الألمانى Johannes Reuchlin of Germany

باستثناء «ايرازموس» كان «يوهانز روشلين (١٤٥٥ - ١٥٢٢)». أفضل المعروفين من الألمان ذوى النزعة الإنسانية». تلقى العلم بتوسع فى الدراسات الكلاسيكية، أولاً فى باريس ثم فى فلورنسا على يد ميراندولا. كما تأثرت حياته الروحية أيضاً «بأخوة الحياة المشتركة». ولما كان يرغب فى أن يكون قادراً على دراسة الكتاب المقدس فى كلتا لغتيه الأصليتين، أصبح روشلين أسبق عالم مسيحى فى العبرية. وبسبب إمامه باللغة العبرية صار مشتركاً فى مشادة حول ما يجب أن يسمح به للأدب العبرى. كانت هناك مشاعر قوية ضد السامية وقتئذ، فقد طوّل الإمبراطور أن يأمر بإتلاف كل الآداب اليهودية. لكن روشلين احتج بأن «العهد القديم»، والتلمود، والكابالا، والكتابات اليهودية فى الفلسفة والعلم، كانت ذات قيمة ثمينة وليست هرطوقية. ومع أنه ربح الجولة فى وقت المناقشة،

لكنه أدين من أجلها فيما بعد. ولما بدأت حركة الإصلاح، عزل روملين نفسه عنها. ومع أنه فى إحدى المناسبات حمى مؤلفات لوثر من أن تحرق، أعلن البابا «ليو» العاشر أن كتب روملين نفسه هرطوقية وأحرقها.

ايرازموس الألمانى Erasmus of Germany

يتفق المؤرخون بدون استثناء على أن «ديسيدايروس ايرازموس» (١٤٦٩ - ١٥٣٦) كان أبرز فلاسفة «النزعة الإنسانية» وأبعدهم تأثيراً. ولد فى هولاندا ابناً غير شرعى لأحد الكهنة، وتلقى تعليمه المبكر بين «أخوة الحياة المشتركة». كان راهباً أوغسطينياً لوقت وجيز. وفى وقت وجوده فى الدير طور أسلوبه الأدبى اللاتينى المؤثر. وصار فى فترة لاحقة سكرتيراً لأسقف «كامبريا Cambria» فى فرنسا، ثم رسم حينئذ كاهناً سنة ١٤٩٢. حصل على درجة «بكالوريوس» من جامعة السوربون فى سنة ١٤٩٨. لكن هنا أيضاً أصبح فاقد الأمل بسبب الأفق الضيق فى طريقة التعليم لفلسفة اللاهوت فى القرون الوسطى. على مثال الآخرين من معتنقى مذهب «النزعة الإنسانية» رأى قيمة ضئيلة فى مساجلة هذا السؤال: «هل الصلاة لمدة عشر دقائق تقام لأجل عشرة أشخاص يكون لها تأثير مثل صلوات لمدة دقيقة واحدة؟!».

بعد حصوله على درجته العلمية زار إنجلترا. هناك (فى إنجلترا) سمع ايرازموس مواعظ «كوليت» عن الرسالة إلى رومية وتحقق لأول مرة من القيمة الحقيقية للكتاب المقدس كتوضيح للإيمان المسيحى. كانت زيارته لإنجلترا وتضامنه مع كوليت ومع «مور» بداية لحقبة جديدة بالنسبة له فى كلا المعرفة والإيمان.

مؤلفات ايرازموس

أول عمل لإيرازموس كان كتاباً عن اقتباسات المؤلفين اللاتين المشهورين. اسم

الكتاب « أقوال مأثورة Adages ». لاقى الكتاب رواجاً عظيماً وأكّد شهرته. شعر أن رسالته هي أن يحو الجهل، خاصة بين العلمانيين. ولهذا الغرض ألف « انشريدون The Enchiridion » أو كتاب « الفارس المسيحي ». وهو كتاب صغير عن الأخلاق المسيحية، مركزاً على خطة الله للخلاص وتلبية الإنسان لهذا الخلاص. انتقد الكنيسة مباشرة لما كتب أنه لا قيمة في الصيام، ولا في زيارة الأماكن المقدسة ولا في التوسل إلى القديسين ولا في شراء صكوك الغفران. لأنه بالتقوى والمحبة فقط يمكن أن يحيا الإنسان حياة مسيحية حقيقية. ويضعها أحد الكتاب كما يلي، « تأسيساً على الأخلاق الرواقية، والإفلاطونية والمسيحية، متأثرة بصوفية « أخوة الحياة المشتركة » ومعززة بكتابات آباء الكنيسة، وضعت « نزعة إيرازموس الإنسانية » تأكيداً خاصاً على الحالة الداخلية للدين، وحياة الفضيلة والعلاقات الأخلاقية الاجتماعية.^(١)

إيرازموس والكتاب المقدس

ازداد إيرازموس اقتناعاً بأن السبيل للإصلاح كان عن طريق الكتاب المقدس. لذلك شرع في إعداد نسخة علمية « للعهد الجديد » مع ترجمته الذاتية باللاتينية. الواقع أن إيرازموس كرسها للبابا « ليو » العاشر الذي امتدحها، بالرغم من أنها أظهرت أخطاء متعددة في « الفولجاتا ». هذه الترجمة انتشرت انتشاراً واسعاً واستخدمها لوثر وآخرون من قادة الإصلاح في إخراج ترجمات باللغة الدارجة. وقد عاونت إيرازموس على بلوغ هدفه بأن جعل الكتاب المقدس متاحاً لكل إنسان. لقد كانت حُكماً على الكنيسة التي حظرت على العلمانيين أن يكون في أيديهم الكتاب المقدس. من أيام « الوالدنيين » كان وجود نسخة من الكتاب المقدس في حوزة شخص علماني.. ذلك في أعين الكنيسة كان جريمة عقابها الموت. لذلك كان

(1) Grimm, H. S., The Reformation Era, P. 63

إيرازموس يتحدى السلطة البابوية عندما كتب يقول، «المسيح يريد أن تذاع أسرارهِ وتنشر على أوسع نطاق. أتمنى أن تلتزم أضعف امرأة بقراءة الإنجيل ورسائل بولس، كما أرغب في أن تترجم الأسفار المقدسة إلى كل اللغات. أتوق أن يتغنى الصانع والزارع بأجزاء منها ويرتلها لنفسه وهو يخطو وراء المحراث، وأن يدندن النساج بكلمات الإنجيل على لحن المكوك الذي في يده، وأن يتسلى المسافر بقصص «الكتاب» طارداً ملل الرحلة.^(١)

في الثناء على الطيش In Praise of Folly

أشهر أعمال إيرازموس كان كتاباً بعنوان «الثناء على الطيش»، عبارة عن قصة رمزية هجومية انتقد فيها أساليب وأخلاق طبقات المجتمع من الملوك والعلماء إلى الجنود والتجار. لقد وجه أعظم سهامه النفاذة إلى الكنيسة، إلى البابوات والرهبان، إلى الخرافات والأوثان داخل أعلى وظائف الكنيسة. لكنه فعل ذلك بطريقة اليد الناعمة حتى أن أوروبا المثقفة سارعت إلى شراء الكتاب وقراه الناس وضحكوا. في الواقع أصبح ناجحاً واسع الشهرة. وطبعت كل كتبه المرة تلو الأخرى. كتاب الثناء على الطيش صدرت منه ٣٩ طبعة. أحد أصحاب المطابع في باريس أخرج ٢٤٠٠٠ نسخة بالزيادة، لما سمع أن الكتاب قد يختفى. بحلول سنة ١٥٣٠ كانت هناك ٣٠٠٠ نسخة من كتابه «العهد الجديد» يتداولها الناس، ٧٥٠٠ نسخة من كتبه الأخرى. جرت إحصائية تبين منها أنه في أي سنة معينة، ما بين ١٠٪ من الكتب المباعة في أكسفورد ولندن وباريس كتبها إيرازموس.

(1) Quoted by Lefever, H.C., The History of the Reformation, P.50

ايرازموس واللاهوتيون فلاسفة العصور الوسطى

احتفظ إيرازموس بازدرء خاص للاهوتيين فلاسفة عصرهم. وفي هذا يقول «شادويك» أكثر من أى إنسان بمفرده خفض إيرازموس من سمعة البابوات والإكليروس والرهبان. و(فوق الكل) من سمعة اللاهوتيين.^(١)

لقد أدان اللاهوتيين كأناس تسببوا فى تشويش الأذهان أكثر مما أناروا عقول الناس. وعلى حد قوله هو، «قد يستطيع الإنسان أن يجد طريقه خارج محارة البحر أسرع من المتاهات الثقافية لهؤلاء الفلاسفة اللاهوتيين» وفى وقت آخر كتب أيضاً يقول، «أنت لا تدان إذا كنت لا تعرف ما إذا كان للروح القدس المنبثق من الاب والابن بداية واحدة أو بدايتان، لكنك لا تستطيع الهروب من الدينونة إذا كنت لا تزرع ثمار الروح: محبة، فرح، سلام، صبر، لطف، صلاح، معاناة، رحمة، إيمان، زهد، إحسان.^(٢)

ادعى إيرازموس أن شفيعه كان اللص التائب لأن السماء قبلته بالقليل من علم اللاهوت أو بدونه.

ايرازموس والعلمانيون

انطلاقاً من فكرته الوضعية عن الإكليروس، واهتمامه بأن يحصل كل الناس على الكتاب المقدس، وكراهته الشديدة للجهل (قيل إن كراهة إيرازموس للجهل تشبه كراهة لوثر وكالفن للخطية).. انطلاقاً من هذا كله تولد فى قلبه إيمان بأن الأمل فى إصلاح الكنيسة يأتى عن طريق العلمانية. كان ايرازموس عظيم الاهتمام والاعتبار لسكان المدن من الطبقة المتوسطة الكادحين الصابرين، مع أنه مثل لوثر، اتجه إلى الشك فى الطبقات الدنيا من الفلاحين. وكان شديد التأثير

(1) Chadwick, Owen, The Reformation, P. 33

(2) Quoted by Johnson, Paul, A History of Christianity, P. 275

بمدرسة الأولاد التي أسسها «كوليت»، فإنه (أى كوليت) لم يعين كهنة ولا أساقفة، ولانبلاء -فى الشئون المالية وكل المهام الإدارية الخاصة بالمدرسة- بل عين بعض المواطنين من ذوى السمعة الراسخة. ولما سُئل عن السبب قال كوليت إنه لم يكن هناك شىء مؤكد فى الأمور الإنسانية، ومع ذلك وجد هو فيهم أقل ما يمكن من الانحراف.^(١)

ايرازموس ولوثر

من المهم لتفهم ايرازموس أن نتأمل علاقته بالإصلاح وخاصة بمارتن لوثر. لما سمع عن لوثر لأول مرة سره أن يعرف شيئاً عن شخص كان يكافح لتصحيح انحراف الكنيسة، لكن عندما اتهمه الناس بأنه يساند لوثر ادعى بأنه كان أول من أدان كتب لوثر. ومع أنه حث «المنتخب فريدريك الحكيم» بأن لا يسلم لوثر لأعدائه، انفصل ايرازموس فى آخر الأمر عن المصلح.

ايرازموس وحرية الإرادة

هناك العديد من الأسباب التى من أجلها ابتعد كل من لوثر وايرازموس عن الآخر. لاهوتياً كان هناك فرق عظيم. آمن ايرازموس كفيلسوف إنسانى فى العصر الوسيط بأن الكائنات البشرية يمكن أن تتغير وتتطور للأفضل بمجهودها الذاتى. أما لوثر، فقد تمسك بثبات بعقيدة أوغسطينوس فى الخطية الأصلية التى يستحيل على الإنسان أن يخلص منها إلا بنعمة الله فقط.

هذا الفرق ظهر بوضوح فى مناظرتهما عن «الجبرية» وحرية الإرادة. قال لوثر إن الإنسان بطبيعته الساقطة كان قليل الحيلة محكوماً عليه بالهلاك إلا إذا تدخلت نعمة الله. ايرازموس عند هذه النقطة تابعاً لعقيدة الراهب «بيلاقيوس»، ارتعب

(1) Ibid, P. 273

من فكرة أن الله يفرض طلبات على الإنسان يعلم هو أن الإنسان لا يستطيع إتمامها، ثم يعاقبه على عدم إتمامها. لذلك كتب ايرازموس إلى لوثر يقول، «بحرية الإرادة أفهم... القوة... التى يستطيع بها الإنسان أن يطابق نفسه مع الشيء الذى يؤدي إلى الخلاص الأبدى أو أن يتحول عنه... مع أن حرية الإرادة قد جرحت لكنها لم تنطفئ، ومع أنها تعاقبت مع الشلل جاعلة إيانا أمام قبول النعمة منحرفين إلى الشر أكثر من اتجاهنا نحو الخير، فإن حرية الإرادة لا تبنى».

ايرازموس ولوثر يختلفان

هذان الرجلان كانا أيضاً مختلفين فى المزاج. ايرازموس كان هادئاً، أديباً، ميالاً إلى التراضى فى أوقات الأزمات. لوثر كان مندفعاً، طموحاً، مستبداً برأيه، رجل تنفيذ. مع أن كليهما بشغف آمنا بالحاجة إلى الإصلاح، لكن اختلفا على وسيلة إنجازه. ايرازموس تمسك بأنه مع الكتاب المقدس المفتوح وتثقيف العلمانيين يمكن أن يحدث الإصلاح فى هدوء وسلام داخل الكنيسة. لوثر كان ثورياً. الوسيلة الجذرية وحدها هى التى تشفى المرضى، حتى إن كان هذا يعنى انقسام الكنيسة. ورأى ايرازموس عدواً أكثر منه مدافعاً عن قضية. كتب إلى ايرازموس يقول، «كلماتك تصل إلى هذه النتيجة، إنه قلما يهتمك ما يعتقد أى شخص فى أى مكان مادام سلام العالم لا يعكره أحد. يبدو أنك تعتبر العقائد المسيحية شيئاً أقل قيمة من آراء الفلاسفة والناس..... تريد أن تنهى معركتنا كصانع سلام.... دعنى أخبرك وأجعل قولتى تغوص بعمق فى عقلك، إنى مَعْنَى ومهتم بحقيقة خطيرة وحيوية وأبدية، نعم إنها حقيقة أساسية لدرجة ينبغى معها أن تصان ويدافع عنها. ولو كلفتنا الحياة نفسها، حتى لو تمزقت الدنيا كلها فى الاضطراب والقتال، ليس هذا فقط بل حتى لو تحطمت فى الفوضى وتلاشت.^(١)

(1) From The Bondage of the Will in Erasmus-Luther, Quoted by Ozment, The Age of Reform, 1250-1550, PP. 298-299

ايرازموس كشف عن اشمئزازه ليؤكد نفسه بأسلوب لوثر، فأجابه بالقول، «أنا ند ضعيف فى مثل هذه المباراة. أنا أقل خبرة من الآخرين، وفى داخلى كراهة شديدة للقتال. نتيجة لذلك فضلت دائماً اللعب فى حقول دراسية أكثر حرية.. فضلت ذلك على القتال مدرعاً بالحديد فى معركة مغلقة... إنى أفضل هذا المنعطف الطبيعى على ذاك الذى يمكن أن ألاحظه فى بعض الناس الذين ينهمكون بلا تبصر فى فكر واحد لدرجة لا يستطيعون معها احتمال أى رأى مخالف.^(١)

ايرازموس والقوات العالمية

هذا الخلاف تأكد بصورة أبعد لما كشف لوثر نفسه بأنه يريد أن يستعين بالقوات الدنيوية. نبلاء ألمانيا، لإنجاز أهدافه. كان ايرازموس يرتاب فى القوة المنسوبة إلى الأمراء. إنه ضمها فقط مع الحرب والخراب فكتب إلى لوثر يقول، «النسر الألمانى صورة للملك، لا هو جميل، ولا هو مغرّد، ولا هو صالح للطعام، لكنه من الضواري أكلى اللحم، مفترس، قاطع طريق، مدمر، منفرد، مكروه من الجميع، وباء... أليست مدن النبلاء تُشيد بأيدي الشعب وتُهدم بأمر النبلاء؟ ألا تغتنى الدولة بصناعة مواطنيها فقط لكى تنهبها أطماع حكامها؟ أليس ممثلو الشعب هم الذين يسنون القوانين الصالحة، ثم ينتهكها الملوك، ألا يحب عامة الناس الشعب بينما يخطط الحكام للحرب.^(٢)

ايرازموس ولوثر عن اللاهوت

ربما أعظم تصدع أساسى بين ايرازموس ولوثر كان الأهمية النسبية المعطاة للعقيدة والتعليم. هذا الفرق كان نموذجاً معروفاً عن ذوى النزعة الإنسانية وجماعة

(1) A Diatribe Concerning Free Will, Quoted by Ozment, Steven, The Age of Reform, 1250-1550, Ibid, P. 295

(2) Quoted by Johnson, Paul, A History of Christianity PP.276,277

المصلحين بصفة عامة. كان لجماعة «النزعة الإنسانية» رد الفعل إزاء الأساليب العقائدية الجامدة التي يتبعها فلاسفة اللاهوت فى العصور الوسطى، ويقولون إن التعليم لا ينبغى أن يلى بل يكون حراً ومفتوحاً متيحاً للمتعلم أن يتبع عقله حيثما يقوده. المصلحون قاوموا أيضاً فلاسفة اللاهوت، لكنهم قالوا ليس إن لاهوتهم كان جامداً بل إنه كان خاطئاً ومضللاً. الإصلاح عندهم كان يعنى تصحيح الخطأ فى علم اللاهوت. فحالما يتم التصحيح حينئذ يجب أن يتعلمه المسيحيون تماماً على نفس نمط فلاسفة اللاهوت. عند ذوى النزعة الإنسانية كان ذلك أيضاً أسلوباً للتعليم إجبارياً لكنه مرفوض من ذوى النزعة الإنسانية.

ايرازموس ولوثر عن الأخلاق

على نفس الدرب أكد ايرازموس على الأخلاق قبل اللاهوت. جعل النتائج الأخلاقية اختباراً للحق العقائدى وانتقد لوثر وأتباعه لفشلهم فى تحسين الصفة الأخلاقية للحياة.

كان ذلك إساءة للمصلح.

كتب لوثر يقول، «العقيدة والحياة يلزم التمييز بينهما. فالحياة بيننا رديئة كما هى بين البابويين. ومن ثم فنحن لا نحاربهم وندينهم بسبب حياتهم الرديئة. أنا لا أعتبر نفسى تقياً. لكن حين يصل الأمر إلى التساؤل عما إذا كان المرء يقدم التعليم المستقيم عن «كلمة الله»، فهناك أتخذ موقفى وأحارب. تلك هى دعوتى. مناظرة العقيدة لم تحدث قط حتى الآن. لكن معاندة العقيدة، فذلك هو القبض على الأوزة من عنقها. صحيح أن مملكة البابويين شريرة وكذلك إدارتها. حالما نثبت ذلك يصبح من السهل أن نستمر ونبرهن على أن حياتهم أيضاً شريرة. لكن لما تبقى كلمة الله نقية، فحتى إذا كانت الحياة غير مثالية فإن الحياة توضع فى مركز يجعلها تصل إلى ما يجب أن تكون عليه. ذلك هو السبب فى أن كل شىء مرتبط

بطهارة «الكلمة». أنا نجحت فقط إن كنت مارست التعليم بالصواب.^(١)

حدود إيرازموس

حكم التاريخ على إيرازموس هو أنه لم يكن رجل الساعة بالنسبة لعصره. فبالرغم من أعماله الأدبية الكبرى، فإن عدم رغبته في مناصرة هذا الجانب أو ذاك بأي طريقة حاسمة، حرمة من تعاطف الكاثوليك وأيضاً البروتستانت. بعض نقاد الكاثوليك ذكروا كتابات إيرازموس كأنها وحى «الإصلاح» وفي سنة ١٥٥٩ حرّمها البابا بولس الرابع. المؤرخ الكاثوليكي العصري «لورتز Lortz» يقول عنه، «إيرازموس بقى فى الكنيسة.... لكن كنصف كاثوليكي.. حائر، متردد، معلق فى الوسط.^(٢) أما حكم لوثر فهو مثال الفكر البروتستانتي للقرن السادس عشر حيث قال «لقد فعل إيرازموس ما رسم لفعله. أدخل اللغات القديمة فى مكان الدراسات الفلسفية اللاهوتية المؤذية.

إنه غالباً سيموت مثل موسى فى أرض موآب.... إنه عمل ما يكفى للتغلب على الشر، لكن أن يؤدى ذلك إلى أرض الموعد، فليس هذا -فى رأى- من عمله.^(٣)

(1) Quoted by Ozment, Steven, *The Age of Reform, 1250-1255*, PP. 315, 316

(2) Ibid P. 299.

(3) Schaff, Philippi, *History of the Christian Church*, Vol. & 111, P. 642

سادساً: اختراع الطباعة وتقدم العلوم

التعليم أثناء العصور الوسطى

من الفصول السابقة يجب أن يكون واضحاً لدى القارئ أن الزيادة في التعليم والتهديب لعبت دوراً له دلالة في إعداد قاعدة «الإصلاح». ومن المفيد أن نقدر ذلك إذا أخذنا في الاعتبار ما تعنيه «العصور المظلمة» بالنسبة للمعرفة العامة لدى الشعب. فلم تكن هناك مدارس شعبية أو مدارس خاصة على الإطلاق. باستثناء الأديرة لم يكن ممكناً العثور على كتب. الكتب الموجودة كانت هي المكتوبة بخط اليد. نسبة الأمية كانت تقريباً ٩٩٪. لذلك فإن افتتاح «كوليت» مدرسة للأولاد في لندن كان هذا حدثاً ثورياً. العديد من كهنة الأبرشيات كانوا بالجهد يعرفون القراءة والكتابة. وعندما شك الأسقف الإنجليزي «هوپر Hooper» في ضعف ثقافة الكهنة رتب اختباراً لرعاة أسقفيته: أن يجيبوا على أسئلة بسيطة عن «الوصايا العشر» و «الصلاة الربانية» و «قانون إيمان الرسل». تسعون فقط نجحوا من بين ٣١١ الذين اختبروا. وبالطبع كان الكتاب المقدس محظوراً على الجميع باستثناء الإكليروس. علاوة على ذلك فقد كان مكتوباً باللاتينية التي لم يكن يفهمها أحد سوى العلماء.

العطش إلى التعليم

هكذا لما بدأ الناس يهتمون بالتعليم ولو بطريقة محدودة. كان ذلك اتجاهًا عظيم الدلالة. تقدم الجامعات -دانتى وبيترارك يكتبان أدباً عظيماً باللغة الشعبية الإيطالية- الازدراء بالكهنة الجهلاء - الرغبة في الفهم والحاجة إلى وضع الكتاب المقدس في أيديهم وإلى قراءته في لغتهم الأصلية - هذه التطورات جعلت من المحتتم أن يأتي الإصلاح ويحدث بصورة أو بأخرى. وهذا وصف كما وضعه «اوزمنت Ozment»، «إن الطريق إلى الإصلاح كان مرصوفاً بإساءات لم يسبق لها

مثيل وبأشواق شعبية دينية طال انتظارها.

(THE AGE OF REFORM, 1250 - 1550, P. 211)

اختراع الطباعة

لم يكن هناك وقت أنسب أمكن إيجاده لواحد من أعظم المخترعات فى تاريخ الإنسانية: الطباعة بحرف مطبعى متحرك. مع ظهور «الكتاب المقدس فى سنة ١٤٥٦ فى مان Mains» بألمانيا على مطبعة «يوهان جوتنبرج Johann Gutenberg» كان قد بدأ عصر جديد. فى نفس الوقت أصبح متاحاً تصنيع ورق رخيص. كانت صناعة الورق معروفة عند اليابان والعرب لمدة قرون عديدة لكنها تأخرت فى الوصول إلى أوروبا. البردى المصرى كان أقدم كل أنواع الورق، لكن الطريقة لم تكن عملية فى بلاد أخرى.^(١) قبل هذين الاختراعين كانت الوسيلة الوحيدة «لطباعة» كتاب هى نسخه كلمة كلمة بخط اليد على جلد الغنم أو جلد العجول. وكان عمل نسخة واحدة من الكتاب المقدس كله يستغرق شهوراً عديدة ويحتاج أيضاً إلى عدد ١٧٠ من جلود العجول أو ٣٠٠ من جلد الغنم. واضح أن الذين يقتنون مثل هذه الكتب كانوا واسعى الثراء أو من كبار العلماء. لكن مع سرعة الطباعة ورخص الورق أمكن انتاج آلاف النسخ فى ليلة واحدة وأمكن بيعها بأسعار معقولة.

المطابع تساعد فى الإصلاح

كانت الثورة فى طريقها إلى الأمام. بحلول نهاية القرن الخامس عشر تواجدت المطابع فى أكثر من مائتى مدينة وبلدة فى أوروبا. وقدر عدد الكتب التى طبعت

(١) حتى القرن الخامس كانت مصر هى المورد الرئيسى للورق، مصدرة من ورق البردى لكل نواحي الإمبراطورية الرومانية.

بسته ملايين كتاب كان معظمها فى موضوعات دينية. أما الكتب التى طبعت فى الأربعين سنة (بين سنة ١٤٦٠ - سنة ١٥٠٠) فاقت فى عددها ما أنتجه الكتاب والرهبان على مدى العصور الوسطى كلها. قوة الدفع العظيمة للطباعة كسلاح فى المعركة من أجل «الإصلاح» أدركها بسرعة مارتن لوثر بين سنة ١٥١٧ - سنة ١٥٢٠ كتب لوثر ثلاثين نبذة دينية وزعت فى ٣٠٠.٠٠٠ نسخة مطبوعة. وإضافة إلى التعطش الملهب للمعرفة من جانب الجمهور، فإن إتاحة وجود الكتب الرخيصة رفعت نسبة الذين يعرفون القراءة فى ألمانيا من صفر تقريباً إلى ٤٪ وهذا كان يعنى ٤٠٠.٠٠٠ قارئ متحمس.

انتشار «كلمة الله» المطبوعة يتحدى البابوية

حينئذاك أصبح للناس قاعدة لأسئلتهم. فمع وجود «كلمة الله» فى أيديهم أمكنهم تقييم أعمال الإكليروس من «كلمة الله» نفسها وأن يزودوا بالوثائق قضيتهم ضد الكنيسة. ولم تستطع البابوية بعد ذلك أن تختفى وراء التصريحات الصادرة من الكاتدرائية بل كان عليها أن تواجه جمهوراً واسع الاطلاع فى كل أوروبا طالب بالبرهان «الكتابى» والتاريخى لأجل الإدعاءات البابوية. أكثر من ذلك لم تعد البابوية بعد ذلك قادرة على قمع رأى المعارض. قبل حلول الطباعة، كان يسهل التخلص من النسخ القليلة لأى كتاب مشبوه وذلك بإحراقها. فما أن تدفقت آلاف النسخ من المطابع لم يكن هناك سبيل أمام دولة الفاتيكان يمكنها من إبعاد مثل هذه الكتب عن أيدي الشعب. ومع أن الفاتيكان استمر فى استخدام قائمة «الكتب الممنوعة» مدعياً أن اقتناء مثل هذه الكتب يشكل مخالفة قانونية، أما الآن فلم يعد فى سلطان الكنيسة إزاحة الكتب الممنوعة من التداول.

انتشار الأسفار المقدسة

مضى التيار بسرعة فى الاتجاه الآخر. فبالرغم من محاولات الإكليروس أصبحت الكتب والقراءة مطلب الساعة. التعليم أصبح فى خدمة «الإصلاح». شراء كتاب وتقليب صفحاته، والقراءة وطلب العلم، أصبحت شهوة الإكليروس والعلمانية معاً. الكنيسة البروتستانتية الصاعدة روجت الكتب المقدسة فى اللغات الوطنية وحثت على أن يتعلم الأولاد والبنات القراءة حتى يستطيعوا قراءة الأسفار المقدسة لأنفسهم. المصلحون تخيلوا ببصيرتهم علمانية واسعة الاطلاع والوعى بالكتب المقدسة كالعمود الفقرى الحقيقى للمجتمع. احتاج الأمر فى سنة ١٥٣٨ إلى رعاية إنجليز لجعل الكتب المقدسة الإنجليزىة فى متناول أبروشياتهم، «حتى يطلع عليها كل إنسان ويقرأها بعد ذلك».

التعليم والتهديب عاوناً فى مجىء الإصلاح

توجد آراء مختلفة بشأن تأثير مذهب «النزعة الإنسانية»، والتعليم والطباعة، على «الإصلاح». من المحتمل أن الإصلاح بدون هذه التطورات كان سيحدث بأى طريقة. إذا أخذنا فى الاعتبار الوضع فى الكنيسة فإن شيئاً ما من هذا القبيل كان يجب أن يحدث. لكنه صحيح بنفس المقدار أن عطايا الله للتعليم وظهور الطباعة والنشر عندما ظهرت، أعطت الإصلاح فاعلية ومكانة بين الناس لم يكن ممكناً إيجادها بطريقة أخرى. وقد فسرها أحد الكتّاب كما يلى، «إن ما أنجزته الطباعة جعل القرن السادس عشر أعظم العصور للمعلومات اللاهوتية وحب البحث والاستقصاء فى التاريخ الغربى، حتى أن العلمانية سواء كانت ملمة بالقراءة أو لم

تكن اكتشفت بوضوح أكثر من أى وقت مضى كيف أثرت القضايا اللاهوتية
المجردة تأثيراً مباشراً فى حياتهم.^(١)

(1) Ozment, Steven, The Age of Reform, 1250-1550, P. 204

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen **The Reformation**, PP. 29-39
2. Grimm, H.J. **The Reformation Era**, PP. 50-72
3. Johnson, Paul **A History of Christianity**, PP. 267-281
4. Latourette, K.S. **A History of Christianity**, PP. 659-662
5. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, PP. 41-52
6. Ozment, Steven **The Age of Reform 1250-1550**, PP. 199-204 ,
290-317
7. Schaff, Philip **History of the Christian Church**, Vol V1, PP.
618-658
8. Stevenson, William **The Story of the Reformation**, John Knox, 1963,
PP. 24-26
9. Walker, Williston **A History of the Christian Church**, PP. 291-297

سابعاً: ظروف القرنين الـ ١٥، ١٦ السياسية

والاقتصادية والاجتماعية

تأملنا فى التطورات الدينية والثقافية التى أدت إلى الإصلاح. يمكن تسميتها الأسباب المباشرة. كان هناك أيضاً تغييرات عديدة مستمرة فى أوروبا خلال القرن السابق على الإصلاح مباشرة، التى يمكن تسميتها الأسباب غير المباشرة. كتب الكاتب الكاثوليكي «أروين ايزرلو» يقول، لم يكن سبب الإصلاح نابعاً فقط من الحاجة إلى تصحيح المساوىء والعودة إلى الأصول - لكن أيضاً كتسوية للأحوال المتغيرة فى أوروبا فى القرن الخامس عشر.^(١)

(أ) العوامل السياسية

ظهور الدول الأوروبية الحديثة

أهم شىء فى هذا المشهد المتغير كان نمو الدول القومية فى صورة كيانات سياسية مستقلة. لم تعد أوروبا محكومة من كنيسة وإمبراطورية كوحدة متكاملة. الدول الأكبر والأهم فى أوروبا الحديثة تكونت بالتدريج. المجموعة التى كانت مكونة من إقطاعيات صغيرة يحكمها لوردات إقطاعيون، كانت وقتئذ تتشكل تقريباً استقلالياً فى شعوب فرنسا، وأسبانيا، وألمانيا، وإنجلترا، هذا حدث بالتدريج على مدى ثلاثة قرون. كان هذا مصحوباً وعلى نوع ما مسبباً بانحدار الكنيسة والإمبراطورية كقوات سياسية. نظرة مختصرة على هذه القوات الوطنية الكبرى تعطينا فكرة عن هذا الموضوع.

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Hubert Jedin, Editor, Vol. V, P. 4

ملك فرنسا يعارض البابا

الصراع بين الملك فيليب الرابع والبابا «بونيفاس Boniface» السابع على ضريبة الإكليروس أثناء القرن الثالث عشر في فرنسا، انتهى بانتصار الملك. بعد ذلك في محاولة من البابا لفرض سلطته أصدر المرسوم البابوي «يونا م سانكتوم» (انظر انحدار البابوية في الباب أولاً) مدعياً السلطة المطلقة على الشؤون الروحية والمدنية. وكان رد الفعل من «فيليب» أنه استدعى مجلساً من اللوردات في مدينته. هذا المجلس اتهم البابا بجرائم مختلفة. من ثم أرسل الملك قوة من الجنود الذين سجنوا البابا فعلاً لفترة معينة. المغزى في هذه الأحداث ليس فقط أن الكنيسة قوبلت بالتحدي بل إن الملك تلقى الدعم الكامل من شعبه. كانت بلدان فرنسا كلها متحدة وراءه. بحلول سنة ١٤٣٨ و «إقرار بورجز العمل»^(١) «The Pragmatic Sanction of Bourges»، كانت الكنيسة الفرنسية تنتخب رجالها من الإكليروس رافضة دفع رسوم سنوية لروما.

قوة ملك إنجلترا ضد البابا

كانت إنجلترا إحدى أول الدول التي تحولت إلى حكومة دستورية. التوقيع على «الماجنا كارتا Magna Carta» (الوثيقة العظمى) وازنت حقوق وسلطان الملك مع حقوق وقوة البارونات. ليس أن «الماجنا كارتا» كانت ديمقراطية بالمعنى الحديث للكلمة لأن الناس العاديين لم يمنحوا حقوقاً أكثر مما كان لهم من قبل، ومع ذلك كان هناك اتحاد قومي وموازنة للقوة بين الملك والبرلمان. بحلول القرن الخامس عشر كان الملوك يتحكمون في تعيينات الأساقفة. وقد قوى هنري السابع هيبة العرش

(١) إقرار بورجز البراجماتي «أصدره الملك شارل السابع مخفضاً بطريقة فعالة سلطان البابوية في فرنسا في ٢٣ مادة أعلنوا أن المجالس أرفع منزلة من البابا، ووجب أن يكون ترشيح الوظائف الكنائسية العليا في أيدي البلاط الملكي.

بدرجة عظمى لما اندمج فى السياسات الأوروبية بتزويج ابنه من أميرة أسبانيا. ولم يسبق أن كانت القوة السياسية للملك الإنجليزى أكثر منها فى تحدى الملك هنرى الثامن العلنى للبابا فى القرن السادس عشر. هذا فى الحقيقة يبين كيف جاء «الإصلاح» إلى إنجلترا.

استقلال أسبانيا السياسى عن البابوية

أثناء أزمنة العصور الوسطى كانت أسبانيا مكونة من أربعة أقاليم. لكن بزواج الملكة ايزابيل Isabelle والملك فرديناند Ferdinand سنة ١٤٦٩ أصبحت أسبانيا أمة واحدة. الملك والملكة كانا قوين بدرجة كافية لتوحيد الأمة حولهما. كما فى بلاد أخرى وجدا ركيزتهما فى المدن من التجار والفنيين والصناع. أمكنهما تجريد النبلاء الإقطاعيين والإكليروس من قوتهم التقليدية. «محاكم التفتيش الأسبانية» (نظام قضائى أقيم لمحاكمة الهرطقة وإرغام غير المسيحيين على تغيير عقيدتهم)، كانت بإشراف تام من البلاط الملكى لم يكن هناك استئناف إلى روما من أحكام محكمة التفتيش. هذه المحاكم كان لها أيضاً سلطان فوق كل الأنظمة الدينية بل فوق الأساقفة أنفسهم. فى عصر الإصلاح أصبحت أسبانيا بصفتها أقوى أمة كاثوليكية، قاعدة لهجوم الكنيسة ضد البروتستانتية. لكنها كانت أيضاً قوية لدرجة استطاعت معها أن تتسلط على البابا فى أى وقت شاءت.

الدول أقوى من البابوية

يقول «شادويك»، «عملياً وببطء كان البابوات يفقدون السلطة على الكنائس فى الدول المختلفة، التعيينات فى المراكز العليا - حق فرض الاكتتابات والحفاظ على مناعة الأملاك الكنائسية من الضرائب وحق سماع الاستئنافات بدون تدخل أصبح البابا فى مركز أضعف لأن الحكومات كانت تزداد قوة، وكلما قويت

الحكومات أصبحت ثروات الكنيسة الطائلة وممتلكاتها عديمة الحيلة». (١)

قادة الكنيسة فى المراكز الحكومية

جدير بالملاحظة أن البابوية بدافع من حاجتها إلى حب البقاء، اتجهت أكثر فأكثر إلى السياسة. فبالإضافة إلى الهيبة والثراء كان لدى البابوية أيضاً المعرفة. وكان الملوك الجدد بالكاد يعرفون القراءة والكتابة فتحولوا إلى الإكليروس لسد حاجتهم إلى الوزراء، مثل الكاردينال «ولسى Wolsey»، الإنجليزى، وكبير مفتشى أسبانيا «توركيمادا Torquemada»، ومنتخبى الأسقف الألمان. فى كل دولة تقريباً تواجد الإكليروس المتعلمون فى المراكز العليا، وأحياناً أتعبتهم ضمائرهم على ولائهم المزدوج بين الكنيسة والدولة.

البابوية كقوة سياسية

ولما لم تعد الكنيسة قادرة على أن توقع الخوف فى قلوب الملوك بالقطع ومراسم الحرم، وجدت نفسها مضطرة للتعامل بطريقة إجرائية جداً مع القوات الدينية، العظمى منها والصغرى. «البابوات فى مشوار القرن الخامس عشر، بدلاً من التركيز على إرساليتهم الدينية القويمة... أصبحوا بالأكثر أمراء بين الأمراء الذين أمكن عقد المعاهدات معهم واندلاع الحرب ضدهم كما ضد أى أمير آخر». (٢)

(ب) العوامل الاقتصادية

الاقتصاد البسيط بالمقايضة فى القرون الوسطى

خلال نفس فترة التغيير السياسى، كانت تحدث تغييرات ثورية فى عالم الأعمال والمال. فى الواقع إن تنظيمات القرون الوسطى الإقطاعية، نادراً ما تشبه

(1) Chadwick, owen, The Reformation, P. 26

(2) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 5

ما نتحدث عنه الآن كأعمال وأموال. فالناس كانوا يعتمدون على الأرض. أنتجوا معظم ما احتاجوا إليه من طعام ولباس. معظم التجارة كانت تتم بالمقايضة. الأيام المعينة للسوق أعطت الفرصة لشخص واحد أن يبادل محاصيله الزائدة ببضائع لم ينتجها بنفسه. كان هناك شيء ما مثل النقود، لكن النبلاء والإكليروس هم وحدهم الذين امتلكوا ليدفعوا أجور العمال الذين بنوا لهم قصورهم.

ظهور أعمال التجارة الحديثة والصرافة

على مدى قرون عديدة تغيرت الصورة. الأعمال التجارية صارت منظمة. المصانع ظهرت. التجارة مع بلاد أخرى ازدادت بدرجة عظيمة عندما أقلعت السفن إلى أفريقيا وآسيا وأخيراً إلى الأمريكتين. تطور الصرافة والمعاملات المالية كان لها مغزى عظيم. فقامت المؤسسات التي كان عملها الوحيد إدارة الأموال في الأزمنة السابقة، وقد تعلم الناس من «العهد القديم» تحريم الربا الفاحش، اعتقدوا أن كسب المال من المال خطأ. أما الآن فالتسليف والاقتراض ومنح القروض وتحصيل الأرباح... هذه التطورات بدأت الحركة تجاه النظام الرأسمالي الذي تجرى به معظم الأعمال التجارية في العالم اليوم.

التغيير الاقتصادي يسبب التغيير الاجتماعي

هذه التغييرات خلقت طبقة جديدة كاملة من التجار والماليين. ومعهم ظهرت طوائف من الصناع المهرة الذين أنتجوا بضائع للأسواق وشيدوا مباني جديدة للمدن النامية. من سوء الحظ لم تعم الفائدة كل إنسان. فأصحاب الأملاك (النبلاء القدامى) وجدوا أنفسهم منزاحين جانباً، فاقدين ثرواتهم ومكانتهم وقوتهم السياسية. الطبقة الأدنى في سلم المجتمع. العمال والفلاحون استغلهم التجار والمقاولون أكثر فأكثر، النشاط المالى المتزايد سبب تضخماً خطيراً والنتيجة فقر أكثر. ولقد أدى هذا طبعاً إلى عدم الاستقرار الاجتماعى، واستدعى إصلاحاً من

نوع آخر. سنرى فيما يلى أن ثورة الفلاحين فى ألمانيا القرن السادس عشر كان لها تأثير مباشر على «الإصلاح».

(ج) العوامل الاجتماعية

فى القرن الرابع عشر عانت أوروبا بشكل مرعب من أوبئة الكوليرا، والطاعون الدملى، والطاعون الأسود وأيضاً من الحروب. عدد السكان تناقص فعلاً، لكن الخسائر عوضت فى القرن التالى: من ٥٠ مليون فى سنة ١٣٠٠ زاد عدد السكان إلى ٦٠ مليون سنة ١٥٠٠ وإلى ٨٥ مليون فى سنة ١٦٠٠.

نمو المدن

لكن أهم من التعداد كان انتقال الناس من الريف إلى المدن. فى العصور الوسطى، مدينة عدد سكانها ٥٠.٠٠٠ كانت تعتبر كبيرة جداً. السبب الرئيسى فى وجودها كان حضور الملك أو الأمير أو الأسقف لكن لما تأسست الجامعات، وتطورت التجارة والصناعة أصبحت المدن مركزاً لهذه الأنشطة. لذلك طبعى جداً أن الناس انجذبوا إلى المدن باحثين عن ميزات لم يمكن العثور عليها إلا هناك. فى سنة ١٥٠٠، خمس مدن، هى لندن، وباريس وفلورنسا، وفينيسيا، وناپلى، كان عدد سكان كل منها ١٠٠.٠٠٠ نسمة. بعد قرن آخر أصبح عدد هذه العواصم المركزية ١٦ مدينة.

المدن كمراكز للحياة الاقتصادية

والسياسية والثقافية والاجتماعية

بروز المدن كمراكز للنشاط الثقافى والتجارى تسبب فى تغيير اجتماعى هام. كما كانت روما فى الأزمنة القديمة المركز الذى قيل إن كل الهرطقات تجمعت فيه، هكذا المراكز الحضرية الكبرى فى أوروبا جذبت العلماء الذين تحدوا اللاهوت

التقليدي للقرون الوسطى. الجيل الجديد من الملوك الذين كانوا يهدمون النماذج الاقطاعية السياسية ويجردون اللوردات والبارونات من قوتهم، استخدموا المدن كقاعدة لهم. التجار وأصحاب البنوك والصناع الذين كانوا يعيدون تكوين كل الهيكل الاقتصادي لأوروبا، بما أنهم كانوا السبب الأكبر في تطوير المدن، لم يستطيعوا الآن مباشرة أعمالهم بدونها. بل إن أحد الدارسين اقترح أن «اللاهوت البروتستانتي خاصة في صيغتيه (الزوينجالية والكالفينية)، تميز بأنه لاهوت حضارى خاص، أى كانعكاس ودفاع عن القيم الاجتماعية والسياسية للمتحمسين في المدن الحرة، خصوصاً عن مساواتهم والإحساس القوى بالتضامن الاجتماعى». (Ozment, Steven, The Age of Reform 1250-1550, P. 192)

أوروبا متأهبة للإصلاح

كانت أوروبا تتحرك نحو العصر الثورى سواء أدركت ذلك أم لم تدركه. كل طبقات المجتمع تأثرت بالتغييرات الفكرية العميقة الجارية، بعضها للأفضل وبعضها للأردأ. لكن المسرح كان معداً لأولئك الذين فى الموقف، سيميزون العناصر العاملة من أجل الإصلاح والفرص لاتخاذ الخطوات العملية المطلوبة. كان هناك استعداد بل فى الواقع اشتياق ليوم جديد فى كل جوانب المجتمع وقد لاحظ «ايزرلو»: «أن انتهاكات القرن الخامس عشر لم تكن أفدح ولا أفضح من انتهاكات القرن الرابع عشر، لكن الناس لم يتحملوها بسهولة، لأنهم كانوا أكثر يقظة، وأكثر وعياً، وأكثر انتقاداً، وبالمعنى الأصح، كانوا أكثر مطالبة ومن ثم أكثر إحساساً بالتناقض بين المثالى والواقع، بين التعليم والحياة، بين الادعاء والإنجازات.^(١)

لقد حان وقت الإصلاح.

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 4

Recommended English Readings

1. Bryce, James **The Holy Roman Empire**, Schocken, New York, 1961, PP. 358-370
2. Chadwick, Owen **The Reformation**, PP. 25-29
3. Grimm, H.J. **The Reformation Era** - PP. 5-29
4. Iserloh, Erwin **History of the Church** (Hubert Jedin, Editor), Vol. V, Seabury, NY, 1980, PP. 3-11
5. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, PP. 5-12
6. Ozment, Steven **The Age of Reform, 1250-1550**, PP. 182-198
7. Schaff, Philip **History of the Christian Church**, Vol. VI. PP. 774-780
8. Walker, Williston **A History of the Christian Church**, PP. 285-290

٢- مارتن لوثر والكنيسة فى ألمانيا

أولاً: حياة لوثر المبكرة

عصر جديد فى الكنيسة

نأتى الآن إلى الشخص الذى افتتح عصراً جديداً فى تاريخ الكنيسة، بل الواقع فى تاريخ أوروبا نفسها. بعض المؤرخين يؤرخون بداية ما يسمى بالعصور الحديثة من وقت ظهور مارتن لوثر. يقال إن الكتب التى كتبت عن لوثر أكثر عدداً مما كتب عن أى شخص آخر. من حسن الحظ أن لدينا الطبعة الحديثة وبالغة العربية عن حياته وتعليمه بقلم الدكتور حنا جرجس الخضرى... وحيث أن هذا المجلد الرابع يجب أن يحيط بكل الأحداث الهامة فى إصلاح القرن السادس عشر، فبالضرورة سوف نتصرف مع لوثر بإيجاز.

لوثر يكتب بصراحة عن نفسه

من المهم ملاحظة أن الدارسين نشروا نظريات عديدة عن لوثر والقوات التى حفزته. ولا خلاف على كونه عالماً، ومصلحاً دينياً، وثائراً سياسياً. لكن صراعه الروحى العميق ينسب أحياناً إلى سوء صحته أو الخرافات، أو إلى حياته الشقية كطفل، أو إلى كراهته لأبيه، الخ. بطريقة ما، نعرف القدر الوفير من المعلومات عن لوثر. فى التدفق العظيم لكتاباتهِ تحدث بكل صراحة عن حياته الذاتية، خاصة عن شدة صراعاته الروحية فى شبابه. لقد عرى نفسه أمام العالم غير مدرك أن مئات الألوف سيقروا كلماته وأن مئات العلماء سيحللون شخصيته لكن حتى لو أدرك - فلأنه لوثر - لكان قد سجل بالتأكيد كتاباته كما هى الآن على أى حال.

أسرة لوثر تنتقل إلى «مانفيلد»

ولد مارتن لوثر فى ١٠ نوفمبر سنة ١٤٨٣ فى ايسلبن «بمقاطعة» ساكسونى بألمانيا، لقد جاء من أصل قروى فقير. كان أبوه «هانز» عاملاً فى مناجم النحاس

وكانت أمه «مارجريت زيجلر» تقوم بعمل شاق مثل القرويات الأخريات لتوفر مؤونة لأسرتها. بعد ولادة مارتن بسنة (وهو واحد من سبعة إخوة وأخوات) انتقلت الأسرة إلى مدينة مانسفيلد حيث صادف «هانز لوثر» نجاحاً أكثر، مكتسباً الإشراف على مناجم التعدين وأفران صهر المعادن. واضح أن «هانز» تحسنت مكانته وامت ثروته، حيث أنه انتخب عضواً في مجلس المدينة سنة ١٤٩١.

نظام التربية في بيت لوثر

تربى لوثر في كنف والديه طبقاً للتقليد الكاثوليكي الصارم. فعلماه صلوات الكنيسة، والصلاة الربانية، وقانون الإيمان الرسولي، والوصايا العشر. في مدرسة مانسفيلد المحلية تعلم قواعد اللغة اللاتينية. وقرأ لمؤلفين في الأدب الكلاسيكي اللاتيني واليوناني. وتعلم الموسيقى ومبادئ الدين. النظام في البيت والمدرسة كان دقيقاً طبقاً لعادات العصر. وفي وقت لاحق كتب لوثر عن تلقيه الضربات لعدم طاعته الأوامر في كلا من البيت والمدرسة. أما لأي درجة أثرت هذه الاختبارات فيما بعد على حياته الروحية، وشعوره بمركب النقص، وتمرده ضد السلطات.. هذه كلها كانت موضوع مناقشات ومسابقات كثيرة من الدارسين والعلماء.

لوثر تلقى تعليمه الأولي من الفرنسيسكان

لما بلغ من العمر ١٤ سنة أرسل الشاب مارتن إلى مدينة مجدبورج حيث درس في مدرسة «أخوة الحياة المشتركة». إنه هنا أيضاً تأثر بتكريس الرهبان الفرنسيسكان. وتذكر بصفة خاصة، راهباً كان في الأصل أميراً، يمشى حافي القدمين في الشوارع يستعطى الطعام، المدرسة أمدته بتعليمات أكمل في التدريب والولاء للكنيسة. إنه هنا رأى لوثر لأول مرة نسخة كاملة للكتاب المقدس الذي قرأه بافتتان. شيء آخر تذكره واستمر معه سنوات عديدة هو صورة رسم سفينة

ترمز إلى الكنيسة. القبطان هو الروح القدس، الركاب كانوا البابا، والكرادلة، والأساقفة، البحارة كانوا من الكهنة والرهبان. لكن الناس العلمانيين، المفروض أنهم أعضاء الكنيسة، كانوا كلهم في الماء يصارعون الموج ليجدوا ملاذهم في التعلق على جوانب السفينة.

لوثر يرثم في «ايزيناخ Eisenach»

في سنة ١٤٩٨ كان لوثر قد دخل مدرسة الفرنسييسكان بمدينة ايزيناخ ليواصل تعليمه في جو التقوى الكاثوليكي التقليدي. في هذه المدينة اكتشفت قدرات مارتن على التسبيح وشجعتة مدام «أرسولا كوتا». فأخذته إلى بيتها وساعدته بطرق متعددة.

في «إيرفورت» يدرس لوثر

الفلسفة اللاهوتية للعصور الوسطى ويحصل

على البكالوريوس والماجستير

بعد ثلاث سنوات في «ايزيناخ» أرسل «هانز لوثر» ابنه مارتن إلى جامعة «إيرفورت» ليتخصص في دراسة القانون. في هذا الوقت كان «هانز» ناجحاً في حياته العملية بحيث استطاع أن يدفع مصروفات التعليم لمارتن ويشتري كتبه. وكانت هذه الجامعة باعتبارها إحدى أبرز الجامعات الألمانية تطبق نظاماً تقشفيًا قاسياً على التلاميذ. هنا درس لوثر أرسطوطاليس ولاهوت العصر الوسيط لوليم أوكهام. (انظر رابعاً في الجزء الأول). أوكهام كان يعلم العقيدة أو الفلسفة القائلة بأن الإدراكات الشمولية أو المجردة لا وجود لها. فالعقل الإنساني لا يستطيع أن يستوعب الشموليات، لكن يمكنه فقط أن يعرف أشياء مستقلة أو مفردة (Nominalism) لذلك فإن الفهم الديني يجب الحصول عليه عن طريق الإلهام قبل

المنطق. تعاليم أوكهام كان لابد أن تترك أثراً ملحوظاً على لوثر خلال سنواته الجامعية. لوثر حصل على درجة «ليسانس» فى الآداب سنة ١٥٠٢. ثم ابتداءً يعلم قواعد اللغة والمنطق، وفى نفس الوقت استمر فى التحضير لدرجة الماجستير التى منحت له سنة ١٥٠٥. يبدو أنه نزولاً على رغبات والده التحق بكلية الحقوق. لكن اتضح من كتاباته اللاحقة أن ضميره لم يكن مستريحاً لهذا القرار.

تجديد لوثر

لوثر يدخل الدير

أكثر فأكثر شعر بميله إلى عمل دينى، وعاونت الأحداث أيضاً فى دفعه نحو هذا الاتجاه. إن موت أحد أصدقائه أعطاه فكراً ثانياً عن طول حياته الشخصية. ثم فى يوم ما أثناء سفره من بيته عائداً إلى إيرفورت صادفته عاصفة رعدية واندفعت بالقرب منه حزمة من الصاعقة الرمزية ملقية به فوق الأرض. وفى رعبه استغاث بالقديسة «آن St. Anne»، كى تبقى على حياته وأقسم إذا نجا بحياته أن يدخل الدير. وهكذا فعل مديراً ظهره لمدرسة الحقوق والتحق بالدير الأوغسطينى فى إيرفورت. أبوه «هانز لوثر» استشاط غضباً عند سماعه الخبر، وفى خطاب كتبه لوثر بعد وقت طويل، اعتذر لأبيه عن اتخاذ عهد الرهبنة بدون علمه. عند هذا الوقت، كان لوثر قد تحول ضد الرهبنة كلها.

وصف حياة الرهبنة كنوع من التدريب فى الأمراض العقلية، حياة تسرق الشبان والشابات إلى الجنون بمطالبها الشاذة للفقر، والعفة، والطاعة. على أى حال لما أخذ لوثر العهد فى إيرفورت كان عملياً يستجيب جهد المستطاع للورطة الروحية الخاصة به. كان يحدق به الإحساس بأن هذا العالم باطل والأهمية السائدة لخلاص حياته. مهما ندم على قرار العهد، لكنه قرار اضطر إلى اتخاذ فى حينه.

لوثر راهب أمين

الأنظمة الأوغسطينية كانت صارمة جداً، ولوثر بصفاته الخاصة انغمس في حياتها - قلباً، وروحاً، وعقلاً، وجسماً. في سنوات لاحقة قال لوثر عن نفسه، «كنت راهباً طيباً وحافظت على لائحة (النظام المخصص لى) بكل دقة حتى ليتمكنى القول إنه إذا وصل فى أى وقت أحد الرهبان إلى السماء بسبب رهبانيته فذلك الراهب هو أنا..... ولو كنت استمررت مدة أطول لقتلت نفسى بالسهر الطويل والصلوات والقراءات والواجبات الأخرى». لكن مهما كانت قسوة اختباراتهم لم يستطع أن يجد سلام الروح. «لقد حاولت بكل جهدى أن أحافظ على اللائحة. تعودت أن أكون منسحق القلب وأجهز قائمة بخطاياى. اعترفت بها المرة بعد المرة بكل حرص، نفذت العقوبات الدينية التى عينوها لى. ومع كل ذلك ظل ضميرى يدق ويقلقنى، ظل يخبرنى: أنت قصرت هناك، أنت لم تندم بما يكفى، لقد خصمت تلك الخطية من قائمة خطاياك»^(١).

لوثر يُرسم كاهناً

فى سنة ١٥٠٧ كان مستعداً أن يُرسم فى سلك الكهنة وقام بخدمة القداس لأول مرة وكان هذا اختباراً مرعباً للوثر. واعتقاداً منه أنه حمل فعلاً بين يديه جسد ودم الرب المصلوب، طغى عليه إحساس بعدم استحقاقه الشخصى.. أما هانز لوثر فقد حضر الوليمة احتفالاً برسامة مارتن، بل إنه دفع جانباً من التكلفة، لكنه أيضاً انتقد ابنه جهاراً لعدم احترام أبيه وأمه باختياره مجرى حياة لا تعود عليهما بالفائدة فى شيخوختهما.

(1) Quoted by Chadwick, Owen, The Reformation, P. 45

لوثر و «ستوبيتز Staupitz»

قرب هذا الوقت بدأت علاقة بين لوثر والأسقف العام للأديرة الأوغسطينية، «جوهان ستوبيتز». أكثر فأكثر كان كل تفكيره منحصرأ في «إله» البر الذي أدان الخطاة وأولهم لوثر. تذكر صورة المسيح الملونة على لوحة من زجاج نافذة في «مانسفيلد» مهدداً الجنس البشرى بالسيف. لوثر وجد نفسه بلا أمل في هذا العالم أو العالم الآتى، لأنه لا شىء فى كل ما أداه من صلوات وصيامات.. أمكن أن يعوض عن شفاعته خطيته. «ستوبيتز» أصبح الآب الروحى للشباب، ناصحاً إياه فى قلقه واضطرابه بأن إله البر هو أيضاً إله المحبة، وحول فكر لوثر من خطاياهم إلى مراحم المسيح، ومن الناموس إلى الصليب، ومن الفلسفات اللاهوتية إلى دراسة الأسفار المقدسة، وفى وقت لاحق كتب لوثر إلى ستوبيتز يقول، «أنت قبل أى شخص آخر هو الإنسان الذى جعل نور الإنجيل بضىء فى ظلام قلبى».

لوثر أستاذ للدين

فى ويتنبرج وايرفورت

فى سنة ١٥٠٨ عين ستوبيتز لوثر فى مدرسة ويتنبرج مدرساً للفلسفة واستمر أيضاً فى دراساته. خلال تلك السنة مُنح درجة البكالوريوس فى الدراسات الكتابية التى أهلتته لتدريس «الكتاب المقدس» بدلا من الفلسفة ، كذلك استفاد جداً من وجود ستوبيتز فى ويتنبرج. فى سنة ١٥٠٩ عاد مدرساً لايرفورت. خلال هذه الفترة قرأ مرة أخرى لفلاسفة اللاهوت فى العصر الوسيط، خصوصاً «أوكهام». مع أنه فى السنوات اللاحقة رفض أصحاب هذه الفلسفة رفضاً باتاً، فإنه ربح من أوكهام مهارة البحث المنطقى الانتقادى. وعلى نحو ما، وضع لوثر يده على أدوات فلاسفة اللاهوت، رافضاً فى نفس الوقت مادة فكرهم. وقد اعترف

بهذا الفضل لأوكهام بتلقيبه «سيدى العزيز».

لوثر فى روما

فى سنة ١٥١٠ اختير لوثر عضواً فى وفد مرسل إلى روما لعلاج مشكلة تتصل بالنظام الأوغسطينى. وانتظر لوثر هذه الرحلة ليحل مشاكله الروحية الشخصية بكنيسة ما، توقع أن يجد فى روما المركز الحقيقى للكنيسة، عمقاً فى الروحانية لم يكن له وجود فى ألمانيا. لكنه بدلاً من ذلك لم يجد إلا العالميات والرسميات وعدم الاكتراث الدينى. لقد أفزعه عدم كفاءة الكاهن الذى اعترف أمامه. وصدّم لإهمال الكهنة والسرعة التى تسابق بها الكهنة الإيطاليون فى إقامة القداس. أمكنهم الانتهاء، من ستة أو سبعة قداسات بينما كان يتلو هو واحداً فقط. فعندما كان يقرأ الإنجيل، كانوا هم قد انتهوا من القراءة ويقولون له: «أسرع استعجل. دعونا نرسل (الإبن) إلى بيته إلى سيدتنا (مريم)». لوثر رأى أيضاً القوة الدنيوية فى الإدارة البابوية الرومانية. عندئذ تحقق بأن الأمر كان أكثر جدّاً من أخطاء الكهنة الفردية التى كان يلزم تصحيحها لكن النظام بأكمله هو الذى كان يجب أن يجرى إصلاحه.

لوثر يدرس فى ويتنبرج

فى سنة ١٥١١ كان لوثر مرة أخرى فى ويتنبرج، ومازال فى أعماق صراعه الروحى. لكنه يتقدم بسرعة كدارس ومدرس. فى سنة ١٥١٢ مُنح درجة الدكتوراه فى اللاهوت. محاضراته عن اللاهوت الكتابى فى «المزامير» و «رومية» و «غلاطية» و «العبرانيين» و «تيطس» كانت تجذب الانتباه. الطلبة تقاطروا واحتشدوا ليسمعوه، لأنه ترك الأساليب المجازية المنتشرة وقتئذ، مقدماً التعليم البسيط للكتاب المقدس بقواعده اللغوية وتاريخه. لوثر كان أيضاً يعيد اكتشاف أوغسطينوس، خاصة الأوجه الإنجيلية فى تعليمه اللاهوتى. دراسة أوغسطينوس

ساعدته على مراجعة مفهومه لعدل الله. رأى أن كلمة عدل هي أحلى كل الكلمات، لأنها كانت تعنى الآن أنه «البر الإلهي الذي يكسوننا به الله، وبه نحن نتبرر». كتب لأحد أصدقائه في سنة ١٥١٧، يقول: «اللاهوت الذي أعلم به، وهو اللاهوت عن أوغسطينوس متقدم ومسيطر في الجامعة. الله هو الذي أنجز. أرسطو طاليس ينحدر إلى أسفل، وربما مصيره الانحدار إلى الجحيم.... إن أحداً لا يذهب، لسماع محاضرة إلا إذا كان المحاضر يعلم باللاهوت الذي أنادى أنا به، الذي هو لاهوت الكتاب المقدس واللاهوت عن أوغسطينوس واللاهوت عن جميع اللاهوتيين الصادقين للكنيسة.

أنا متأكد تماماً أن الكنيسة لا يمكن إصلاحها إلا إذا تخلصنا من طقوس موسى ولاهوت الفلاسفة، ومن الفلسفة والنطق بالطريقة التي تدرس بها هذه العلوم اليوم، ونضع في مكانها شيئاً آخر.^(١)

لوثر والصوفيون

بدأ لوثر أيضاً يقدر مؤلفات الصوفيين الألمان مثل «إيكهارت» و «تاوئر» (انظر ثانياً). لقد أخذ في الاعتبار التأكيد الصوفي على الحاجة إلى الدين من الداخل، وعلى السمة الشخصية للخطية، ومسئولية الإنسان شخصياً عن خطيته. خلال هذه الفترة لعب ستويتز دوراً هاماً في تطور لوثر. والواقع أن لوثر نفسه قال «ما كان في استطاعتي أن أحيأ بدونه». فعندما انتاب لوثر اليأس ظل ستويتز يحيله إلى الكتاب المقدس ورسالته الإيجابية. كان لوثر يفكر دائماً في التوبة كمحاولة تعذيبية عقيمة للحصول على البر أمام الله. ستويتز بين له أن البر في الكتاب المقدس يعنى محبة الرب من كل القلب انعكاساً لمحبة الله غير المحدودة للخطاة.

(1) Quoted by Chadwick, Owen, The Reformation, P. 46.

البار بالإيمان يحيا

كان لوثر يتحرك شيئاً فشيئاً نحو الوضع اللاهوتى الذى يحرره من قلقه. فى أحد الأيام كان يقرأ للمرة الثانية الآية فى رومية ١: ١٧. «البار بالإيمان يحيا» ويكتشف فيها لنفسه عالماً كاملاً جديداً للمعانى. ليس فى الامكان تحديد متى وقعت هذه الحادثة. معظم المؤرخين يضعونها فيما بين ١٥١٣-١٥١٥. مع أن لوثر يصفها بأنها اختبار تجديد، فإنها فى الواقع بلوغ نهاية عملية اشتملت على دراسته لأغسطينوس والصوفيين، وعلى إرشادات ستويتز، ودراسة لوثر الذاتية للكتاب المقدس. لكى نقدر هذا التحول الجذرى، من المفيد أن نقتبس من لوثر مباشرة. لكن قبل كل شىء يجب أن نطلع على كلمات اليأس منه فيما يلى:

اليأس الروحى

«أنا أيضا أعرف إنساناً، الذى بحسب تأكيده. ابتلى مراراً بمثل هذه العقوبات، ومع التسليم بأنها قصيرة المدى، لكنها كانت فظيعة وجهنمية لدرجة لا يستطيع معها لسان أن يحكيها، ولا قلم أن يكتبها، ولا إنسان يصدقها ما لم يكن قد اختبرها بنفسه.

«فيها يبدو الله مستشيطاً فى غضبه، وهكذا بنفس الطريقة تبدو كل الخليقة لا ملاذ، لا راحة، لا فى الداخل ولا فى الخارج، لكن كل شىء يتم. ثم يصرخ بكلمات هذه الآية، «إنى قد انقطعت من قدام عينيك» (مزمور ٣١: ٢٢) ولا يجرؤ على القول، «يارب لا توبخنى بغضبك» (مزمور ٦: ١). الغريب، أن الروح فى هذه اللحظة ليست قادرة على الاعتقاد بأنه فى الإمكان افتدائها فى أى وقت لكنه مجرد إحساس بأن العقوبة لم تصل بعد إلى نهايتها. هذه العقوبة فى الحقيقة أبدية، والروح لا يمكن أن تعتبرها مجرد عقوبة وقتية. إن كل ما يبقى هو رغبة مكشوفة طلباً للعون مع تأوهات مريعة، لكن الروح لا تعرف أين توجه استغاثتها

للمعونة. الروح مشدودة مع المسيح (المصلوب) حتى أن كل عظامها يمكن إحصائها، ولا يوجد فيها ركن واحد ليس مفعماً بأمر المرارة من وطأة الرعب، والخوف، والحزن. لكن بمثل هذه الطريقة كأنما كان كل شيء أبدياً بدون استثناء.

بر الله

دعونا ببساطة نقارن الآن هذا اليأس الروحي الذي غمر أسطر الرسالة التي شرح فيها لوثر - قبل موته بوقت قصير سنة ١٥٤٥، وبعد الحادث بوقت طويل - شرح تجديده الحاسم، الإدراك اللاهوتي الأساسى للإصلاح: «رغبة غريبة غير عادية اكتنفتنى لأفهم بولس فى الرسالة إلى رومية، لم تكن برودة قلب هى التى وقفت فى طريقى حتى تلك اللحظة، لكنها فقرة وحيدة فى الأصحاح الأول» «لأن فيه بر الله معلن» (رو ١: ١٧). ذلك أنى كرهت هذه العبارة «بر الله» التى لقنوها لى لأفهمها فلسفياً، من استخدامها العادى بواسطة جميع الذين يعلمون العقيدة، كأنها تشير إلى ما يسمى بالبر الرسمى أو البر العامل الذى به يكون الله باراً ويعاقب الخطاة والأشرار، لكن أنا الذى عشت على كل حال بلا لوم كراهب، شعرت أنا نفسى بكونى خاطئاً قدام الله بضمير مضطرب جداً، ولم أستطع الاعتماد على كونى صالحاً بالقناعة التى استطعت تنفيذها بنفسى، أنا لم أحب، لا بل كرهت الله البار الذى يعاقب الخطاة، وأنا فى صمت تمرت على الله، إن لم يكن بالتجديف فعلى الأقل بالتذمر المرعب: ألم يكن كافياً أن الخطاة المساكين، الهالكين أبدياً كنتيجة للخطية الأصلية الأولى، ألم يكن كافياً أن يطرحوا منبوذين فى شر خالص طبقاً لناموس الوصايا العشر، بل يزداد على ذلك أن الله يضيف عذاباً فوق عذاب عن طريق الإنجيل، وحتى عن طريق الإنجيل يهددنا ببره وغضبه؟ لذلك مضيت أهذى بضمير شرس، مشوش. ومع ذلك رجعت من وقت لآخر إلى هذه الفقرة بعينها فى رسالة بولس مشتتلاً بالظماً إلى معرفة ما قصده القديس بولس.

أخيراً شكراً لمراحم الله، وداومت على التفكير بدون هوادة حول هذا الأمر فى إحدى الليالى واستعدت السياق الذى وردت فيه، أى، «فيه بر الله معلن.....» كما هى مكتوبة، «البار بالإيمان يحيا». حينئذ بدأت أفهم بر الله على أنه البر الذى عن طريقه، بعطية الله، يحيا البار، أى بالإيمان، وأن هذا هو معنى الفقرة: فى الإنجيل بر الله معلن، أى البر الممنوح من الله، الذى عن طريقه يجعلنا الله الرحيم أبراراً بالإيمان، كما هو مكتوب: «البار بالإيمان يحيا». انتابنى الشعور أنى على الفور ولدت ثانية ودخلت من أوسع الأبواب إلى الفردوس نفسه. الأسفار المقدسة برفقها كشفت لى عن ملامح مختلفة، ثم قلبت كل «السفر» فى ذاكرتى وقارنت المشابهات فى تعبيرات أخرى، مثلاً، عمل الله، أى ما يجريه الله فىنا، قوة الله التى يجعلنا بها أقوياء، حكمة الله التى يجعلنا بها حكماء، قدرة الله، خلاص الله، مجد الله. كما كرهت عبارة «بر الله» من قبل، الآن قدرتها بنفس المقدار من الحب باعتبارها عندى أحلى الكلمات. هكذا فى الحقيقة كانت لى هذه العبارة من بولس بوابة الفردوس...^(١)

المفهوم الكاثوليكي واللوثري للتبرير

هذا الاكتشاف من لوتر لم يكن جديداً بمعنى أن قادة الكنيسة مثل أوغسطينوس لم يفكروا فيه قط من قبل. الكتاب الكاثوليك بينوا أنه، «إذا اختزلنا عقيدة التبرير بالإيمان إلى الإصلاح الأعم للخلاص بالنعمة المجانية، فقد استمسك بها أوغسطينوس بوضوح وقوة، ويمكننا القول، إن كل المسيحيين الحقيقيين يحافظون عليها».

(Kostlin Quoted by Philip Schaff, History of the Church Vol. V11, P. 123)

جانسين (اقتباساً أيضاً من «سكاف») يقول: «من كل الكتب المعترف بها

(1) Quotation by Ebeling, Gerhard, LUTHER, Fontana, 1972, PP. 38-41

والتي تستخدمها الكنيسة الكاثوليكية، سواء من المتعلمين أو العامة، لا يوجد كتاب واحد يخلو من عقيدة التبرير بالمسيح وحده» الفرق في اكتشاف لوثر يكمن في إحساسه بأن التبرير بالمسيح لم يعد مرسوماً إلهياً رسمياً تتوسط الكنيسة في توصيله للمسيحي، لكنه الآن موجه إليه شخصياً لكي يمتلكه ذاتياً من الداخل. التبرير بهذا المعنى لم يؤكد فقط الخلاص الأبدي للفرد، لكن أيضاً اعتقه من ثقل الخطية في هذه الحياة الحاضرة.

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland H. **The Reformation of the Sixteenth Century Beacon**, 1952, PP. 22-35
2. Chadwick, Owen **The Reformation**, PP. 43-47
3. Grimm, H. J. **The Reformation Era**, PP. 75-89
4. Latourette, K.S. **A History of Christianity**, PP. 703-707
5. Lefever, H.C. **The History of the Reformation**, PP. 5-12
6. Schaff, Philip **History of the Christian Church**, Vol. V11, PP. 105-145
7. Stevenson, William **The Story of the Reformation**, PP. 29-31
8. Walker, Williston **A History of the Christian Church** PP. 301-304.

ثانياً: لوثر يتحدى البابوية

بيع صكوك الغفران

ممارسة بيع صكوك الغفران كانت قد انتشرت في كل الكنائس كوسيلة لجمع المال. كانت الحملة الخاصة لجمع صكوك الغفران بالقرب من «ويتنبرج-WITTEN-BERG» هي التي استفزت مارتن لوثر ليتخذ الخطوة الدرامية الأولى تجاه «الإصلاح».

«البرخت ALBRECHT، والبابا يتعاونان في بيع صكوك الغفران»

بعكس الاعتقاد الشائع، لم يكن لدى البابا أرصدة كافية لتنفيذ مشروعاته الطموحة للبناء. إعادة بناء كنيسة القديس بطرس سبق أن بدأها البابا يوليوس الثاني سنة ١٥٠٥. البابا «ليو» العاشر ورث المشروع. فجدد عملية بيع الصكوك التي وضعها يوليوس وبدأ البحث عن أمكنة يمكن أن تباع فيها الصكوك، في ألمانيا وجد البرخت مطران مجدبرج وهلبرستاد، الفرصة ليكسب مطرانية «مانز MAINZ» وهي منطقة غنية جداً. لكنها تكلف مبلغاً طائلاً من المال. فوجد البابا «ليو» والبرخت الفرصة لعمل اتفاق يعود بالفائدة على كليهما. فاتفقا أن البرخت يدعو في مواعظه لشراء صكوك الغفران لأجل كنيسة القديس بطرس لمدة ثمانى سنوات، على أن يسمح له بأن يحتفظ بنصف الدخل ليدفع ما يلزم لمطرانية «مانز». كان واضحاً أن الاتفاقية غير قانونية لربطها الاتجار بالرتب الكهنوتية مع بذاءة بيع صكوك الغفران. المؤرخون الكاثوليك أدانوها. فأسموها لوثر «موضوع مقايضة في عملية تجارية بالجملة» ودعاها «ميسنجر MEISSINGER».

المسألة كلها كانت فضيحة مهينة مدوية. (١)

تيتزل TETZEL يبيع صكوك الغفران فى مجدبرج

فى يناير سنة ١٥١٧ أوكل البرخت مهمة الدعاية لصكوك الغفران إلى «يوهانز تيتزل»، راهب دومينيكانى. بدأ تيتزل الرحلة فى منطقة مجدبرج مقدماً عرضاً عظيماً لصكوك الغفران. جماهير غفيرة من الناس كانوا يتجمعون ويتبعونه فى الشوارع، حيث يتكون موكب مهيب بالأعلام، والأجراس، والشموع تتقدمه إلى الكنيسة. هناك يعرض المرسوم البابوى على وسادة من القטיפه على المذبح العالى ومن تحتها الخزانة الحديدية لجمع النقود. وكان تيتزل يباشر مواعظه مثيراً لعواطف الشعب نحو الأقرباء الراحلين ومؤكدا لهم «أنه بمجرد أن ترن العملة النقدية فى الصندوق تقفز الروح من المطهر» كثيرون من الناس اشمازوا من هذا الإطار والمدح فى صك الغفران لتحقيق أعلى قدر من الربح المالى. لكن عامة الشعب، البسطاء بطبيعتهم أسرعوا ليأتوا بأموالهم ليحصلوا على الشهادة التى تعلن أن أحد الأقارب الأعزاء قد توفر له عدد من سنوات عذابه.

فريدريك يمنع تيتزل

كان مستحيلاً على تيتزل أن يدخل «ويتنبرج» لأن الأمير فريدريك، الحكيم، حاكم سكسونيا ما كان يسمح بذلك. ففى ويتنبرج كان لفريدريك مصالحه الخاصة فى صكوك الغفران - ذخائر القديسين، قطع صغيرة من العظام أو الشعر، مسامير من الصليب، كسرة خبز من «العشاء الأخير»، الخ. كان فى الإمكان أن يُمنح الناس صكوك الغفران لمدة قد تصل إلى مليونى سنة إذا دفعوا ليشاهدوا هذه الذخائر، لذلك لم يكن فريدريك متحمساً أن يجعل أموال صكوك الغفران، التى

(1) ISERLOH, ERWIN, HISTORY OF THE CHURCH, VOL. V, P. 45

كان يمكن أن تتحول لأغراضه، تختفى فى صندوق تيتزل. لكن تيتزل كان يقوم بحملة فى منطقة مجاورة، لذلك انتقل كثيرون من وتنبرج ليسمعوا ويلقوا إليه بأموالهم.

لوثر ينتقد بيع صكوك الغفران

لم يكن لوثر معنياً بالأموال التى تدخل جيب تيتزل من سكان وتنبرج. إنه اعتبر بيع صكوك الغفران عملاً خاطئاً فى حد ذاته. لقد انتقد عملية صك الغفران قبل ذلك بكثير فى محاضراته عن «المزامير» و «رومية». وحالما أصبح تيتزل نشيطاً، بدأ لوثر يعظ ضد صكوك الغفران، قائلاً إنه بسبب صكوك الغفران تعلم الناس شيئاً واحداً هو أن يخافوا عقاب الخطية أكثر من الخطية نفسها. فى إبريل سنة ١٥١٧ خرج مناهضاً «الاستعراض الكبير» الذى أقامه تيتزل لبيع صكوك الغفران. قال إن صكوك الغفران إنما تقف فى طريق التوبة الداخلية الصادقة.

وفى رسالة موضوعية عن صكوك الغفران نادى بأن صكوك الغفران يجب رفضها ونبذها إذا كانت فقط فرصة للأمان الكاذب والخمول الروحى. «علينا أن نبحث عن نعمة الله الشافية بدون انقطاع».^(١)

القضايا الخمس والتسعون

فى يوم ٣١ أكتوبر سنة ١٥١٧ أعد لوثر قضية أو سؤالاً أو تقريراً ضد بيع صكوك الغفران وسمرها على باب كاتدرائية وتنبرج.

ميلاد الإصلاح

حقيقة إن الأسئلة كُتبت باللاتينية، والمقصود بها مبدئياً أن تكون نقاطاً للبحث بين الأكاديميين، لا أن تغير من القضية. هنا بدأ الإصلاح، فقد تأكد لوثر نفسه من

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 47

أن قضاياه قد عرفت بإرساله نسخا منها إلى أساقفة آخرين في المنطقة. في خطاب بتاريخ ٣١ أكتوبر كتب مباشرة إلى «البرخت» مطران «مانز» مشتكياً «بأن دعاة صك الغفران بقصصهم الخادعة ووعودهم عن صكوك الغفران يجعلون الشعب مستكيناً إلى الأمان وعدم الخوف». وحث المطران أن يغير تعليماته إلى تيتزل، «وإلا جلب على الكنيسة الخزي المهين والعار العظيم». سواء قصد لوثر ذلك أو لم يقصد، فلقد ترجمت هذه القضايا إلى الألمانية وطبعت وانتشرت في كل مكان. وعندما بدأ تأثيرها يظهر على عملية بيع الصكوك أرسل البرخت مطران «مانز» نسخة إلى البابا، الذي يقال إنه مر عليها باستخفاف كمجرد مشاجرة بين الدومينيكان والأغسطينيين. مفروض أيضاً أنه قال، «لوثر ألماني مخمور، سوف يشعر بالتحسن عندما يعود إلى رشده».

اللاهوت الزائف لصكوك الغفران

في قضاياه الخمس والتسعين لم يتحدث لوثر ضد صكوك الغفران من حيث هي صكوك لكن ضد إساءة استخدامها فقد كان همه أن الناس يضعون ثقتهم في صك الغفران أكثر من التوبة الصادقة. أنه يبين أن الصكوك البابوية لا تمحو الذنب، ولا تحقق المصالحة مع الله. المسيحي لا يمكن أن يشتري السلام مع الله. فقط «القلب المنسحق والمنكسر» يسترد العلاقة الصحيحة، إنه يشك في قيمة «خزينة الاستحقاق» قائلاً «إنها إذا كانت لدى البابا قوة لفتح الخزينة الحقيقية للكنيسة فهي إنجيل المجد ونعمة الله». كان لوثر قلقاً جداً بشأن الآثار السلبية للتبشير بصكوك الغفران. «الطمأنينة الكاذبة الفظيعة يمكن أن تضلل البسطاء وتقودهم إلى الاعتقاد بأن نار غضب الله يمكن اطفائها بدفعة من المال».^(١)

(1) Rupp, G., Luther's Progress to the Diet of Worms, S.C.M., P.53

احترام لوثر للكنيسة

فى نشره القضايا الـ ٩٥ كان لوثر بعيداً جداً عن أن يصنع شرخاً فى الكنيسة. آمن -وكان مصيباً أنه كان يفتقد إصلاحاً يقوم به قادة الكنيسة على أساس القيم والمبادئ المختصة بذات الكنيسة. كتب فى وقت لاحق إلى البابا دفاعاً عن موقفه، «أنا قبل كل شىء أعلن أنه ليس فى نيتى أن أقول أو أؤكد شيئاً إلا ما هو مذكور أساساً فى الكتاب المقدس وبعدئذ ما هو مذكور عن آباء الكنيسة، المسلم به والمحفوظ فى الكنيسة الرومانية وفى قانون الشريعة والمراسيم البابوية. ويقول «إيزرلو» المؤرخ الكاثوليكي، «بهذه الطريقة يصبح واضحاً أنه كان بأمانة مهتماً بقوة الكنيسة والاحترام الواجب لما لها من مفاتيح الملكوت». فى رأى إيزرلو «أن الكنيسة الكاثوليكية خسرت فرصة حقيقية لربح لوثر إلى جانب الإصلاح من داخل الكنيسة، وفاتها أن تمنع فصله النهائى». بالطبع كان مطلوباً أيضاً من جانب الأساقفة المعنيين ومن البابا.... مقدار مساو من القوة الدينية.... والمسئولية الرعوية. كون هذا المطلب لم يخطر على البال، يكشف عن ضعف الكنيسة الجذرى فى تلك الفترة. فى هذا الفشل أكثر من أى شىء آخر يكمن نصيبها فى اللوم على قيام الإصلاح.^(١)

تيتزل وفون ايك Von Eck يهاجمان لوثر

سرعان ما أصبح لوثر هدفاً للهجوم. تيتزل وجماعة الدومينيكان بدأوا يكتبون ويتحدثون ضده. وطرح تيتزل قضايا (أو انتقادات) عددها ١٠٦ ضد قضايا لوثر الـ ٩٥. «جوهان فون ايك» وصف لوثر بأنه يوهيمى مشيراً إلى تشابه وجهات لوثر مع إطار جون هس. الكاردينال «سيلفيستر بريرياس Sylvester Prierias»

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 51

المستشار اللاهوتى الدومينيكي للبابا «ليو» أعد رداً على لوثر وصفه فيه بأنه «أبرص بعقل من نحاس وأنف من حديد (لوثر كما سوف نرى كان مقتدراً فى الإجابة بنفس اللغة العنيفة). عندئذ نشر لوثر رداً دفاعياً عن قضايا مخصصاً رده للبابا، اعتقاداً منه بأن أنشطة تيتزل كانت تنفذ بدون موافقة البابوية.

لوثر يكسب مساجلته الأولى

بدأ البابا يأخذ الأمر بأكثر جدية لما علم أن مبيعات صكوك الغفران آخذة فى الهبوط بسبب كتابات لوثر. لذلك أمر جماعة الأوغسطينيين أن يؤدبوه ويدربوه على الطاعة. فى إبريل سنة ١٥١٨ أقيم حوار فى «هيدلبرج» لمناقشة موضوعات مثل الخطية الأصلية، النعمة وحرية الإرادة. دافع لوثر عن وجهة نظره باقتدار اكتسب معه مساندة الرهبان بل حتى الدومينيكانى «مارتن بوكير Marten Bucer» الذى انضم فى وقت لاحق إلى حركة الإصلاح.

لوثر يُستدعى إلى روما

فى ٧ أغسطس سنة ١٥١٨ وصلت دعوة ليحضر إلى روما، ومرفق مع الدعوة ورقة مكتوبة من «بريرياس Prierias» عنوانها «محاورة ضد استنتاجات مارتن لوثر الوقحة». لكن اللغة كانت متطرفة جداً وبروح متعجرفة بحيث بالكاد يمكن تسميتها حواراً. فقد ذكرت بوضوح أنه بسبب قوة البابا المطلقة وعصمته من الخطأ فلا ضرورة للجدال مع هرطوقى. علم لوثر أن رحلته إلى روما ستؤدى به مباشرة إلى الحرمان الكنسى والموت. فاستأنف لدى الأمير الناخب فريدريك حاكم سكسونيا كى يتدخل. عند هذه النقطة لعبت السياسة دوراً نافعاً. كان البابا مشوقاً إلى كسب صداقة فريدريك. وكان الإمبراطور مكسمليان مشرفاً على الموت. وكان فى إمكان فريدريك، أحد سبعة ناخبين (١) أن يساعد جدياً فى

(١) «الليكتور» أو الناخب هو أحد أمراء الإمبراطورية الذين لهم حق التصويت فى انتخاب الإمبراطور.

انتخاب الإمبراطور التالى حسب رغبات البابا «ليو».. لذلك لما طلب فريدرىك أن تعقد جلسة الاستماع إلى لوثر فى ألمانيا وافق البابا.

الكاردينال «كاجيتان Cajetan» يحاول اقناع لوثر

عندئذ تلقى لوثر دعوة للمثول أمام الكاردينال كاجيتان، الممثل البابوى فى «اوجسبرج» بألمانيا يوم ١٢ أكتوبر سنة ١٥١٨، ولما كان كاجيتان على وعى بالعناصر السياسية فى الموقف، صار على أتم استعداد للتفاهم مع لوثر. فكانت هناك ثلاث جلسات استماع حاول فيها كاجيتان اقناع لوثر بأن ينكر بياناته السابقة. أظهر لوثر نفسه كمن يرغب فى تلقى العلم من العالم العظيم، لكن ما لم يتبرهن الخطأ من الكتاب المقدس وتعاليم آباء الكنيسة فليس فى مقدوره أن يتخلى عن شىء، بالرغم من محاولات كاجيتان كى يتراجع لوثر عن موقفه. وازداد الحوار حدة قرب انتهاء الجلسة لما شكك لوثر فى عصمة البابا، بل ذهب بعيداً إلى حد التأكيد على أن مجمع بازل كان مصيباً فى إصراره على أن البابا يمكن أن يخطئ. وعندما افترقا فى اليوم الثالث طلب كاجيتان من لوثر أن لا يعود إلى أن يغير رأيه.

فريدرىك يحمى لوثر

حاول كاجيتان بعد ذلك أن يؤثر عليه عن طريق «ستوييتز» الذى استطاع أن يقنع لوثر بأن يكتب خطاب اعتذار عن أسلوبه العنيد. لوثر كتب أيضاً لصديقه كارلستاد شارحاً انطباعاته عن كاجيتان، «قد يكون كاجيتان أحد المشهورين من أتباع توما الأكوينى لكنه لاهوتى غامض ينقصه الذكاء... ومن هنا فقيامه بإصدار حكم فى هذه المسألة يقارن بحمار يعزف على قيثار. (١) بناء على قرار

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 58

كاجيتان طلب البابا من فريديريك أن يرسل لوثر إلى روما للمحاكمة. لكن فريديريك رفض قائلاً إنه يسلم لوثر فقط إذا ثبت أنه مذبذب من قاض منصف أو من مجمع. لقد ربح لوثر الآن صديقاً قوياً وحليفاً هو فريديريك.

لوثر و «ميلتيتز Miltitz»

أرسل البابا مندوباً آخر فى شخص «كارل فون ميلتيتز» بهدف كسب دعم فريديريك وحثه على تسليم لوثر إلى أصحاب السلطة فى روما. قدم ميلتيتز «وردة من ذهب إلى فريديريك كهدية اعترافاً بخدماته للبابوية، لكنه وجد أن فريديريك يرفض تسليم لوثر. على أى حال - أقنع ميلتيتز فريديريك أن يرتب لعقد اجتماع له مع لوثر، ولو أن أوامر البابا كانت أن لا يتعامل مع لوثر مباشرة بل يعود بتقرير إلى روما. يبدو أن الاجتماع كان ودياً للغاية فقد اتفق ميلتيتز ولوثر على أن يكف الجانبان عن الدعوة للقضية أو الكتابة عنها إلى أن يمكن عرضها على أسقف «سالزبورج». كذلك وعد لوثر أن يستحث الناس ليكونوا مخلصين للكنيسة، إنه (أى لوثر) يكتب إلى البابا باتضاع مقراً بأنه لم يكن لديه النية لإيذاء الكنيسة. لكن رسالة لوثر كانت تحتوى على دفاع قوى عن أعماله وأن ميلتيتز بلغها للبابا بطريقة يفهم منها أن لوثر تأسف لأعماله الهرطوقية. كان البابا سعيداً أن يصدق أحسن خبر ويرحب بعودة «الإبن الحبيب» إلى الكنيسة.

انتخاب شارل الخامس إمبراطوراً

فى الواقع كان «ليو» مصمماً على اكتساب فريديريك إلى جانبه فى الانتخابات الملكية حتى أنه أهمل قضية لوثر لمدة سنة تقريباً. ولما مات مكسميليان الإمبراطور الرومانى المقدس فى يناير سنة ١٥١٩، حول «ليو» كل جهده لإقناع فريديريك أن يكون مرشحاً أو على الأقل مدعماً لفرنسيس الأول حاكم فرنسا. بل عرض أن يعين أحد أصدقاء فريديريك كردينالاً (وقد تساءل المؤرخون

عما إذا كان «ليو» قد فكر فى لوثر) واختار الناخبون شارل الخامس ملك أسبانيا الذى كان فى الحقيقة ألمانياً وتحت تأثير القادة الألمان إلى حد كبير جداً. لقد أثار انتخاب شارل صعوبات جديدة للبابا، ليس أقلها التعامل مع المصلح الألماني مارتن لوثر.

مساجلات ليبزج

استمرت المواجهة فى ألمانيا حيث سبق الترتيب لإجراء حوار مع يوهان أيك الزميل الأكاديمي السابق للوثر فى ليبزج فى يوليو سنة ١٥١٩. وكان على أيك أن يحاور كارلستاد (صديق لوثر) فى موضوعات التعيين السابق، وحرية الإرادة، وعصمة الكتاب المقدس. لكن لوثر كان على صلة وثيقة بهذه الإجراءات لأنه كان ينشر الرسائل ضد «أيك» مخالفاً بذلك وعده مع «ميلتيز» بأن يلتزم الصمت. لقد وصل لوثر الآن إلى مرحلة الشك فى أن عصمة البابا يمكن تبريرها تاريخياً. فبين أن القرون الأحد عشر الأولى من تاريخ الكنيسة ومجمع نيقية والأسفار المقدسة كانت تعارض مبدأ العصمة وتنكره. لم يكن بد من استدراجه إلى مساجلة ليبزج. ومع إنه منطقى وخطيب مفوه، إلا أنه لم تكن لديه مهارات أيك فى الحوار. شيئاً فشيئاً استطاع أيك الضغط على لوثر ليعلن أن «جون هس» (الذى أحرقوه كهرطوق فى بوهيميا. انظر ثالثاً (ب) كان على صواب أحياناً وأن مجمع «كونستانس» الذى أدانته كان مخطئاً. قال لوثر بصراحة، «بين معتقدات جون هس التى أديننت مع تلاميذه، يوجد منها الكثير الذى يعتبر اعتقاداً مسيحياً صادقاً وإنجيلياً والذى لا يمكن أن تنكره الكنيسة الكاثوليكية». وأصبح لوثر فى موقف انزعاج خطير فقد بدأ بإنكاره عصمة البابا، والآن أنكر عصمة المجمع. أين إذن يمكن أن توجد العصمة؟^(١)

(1) Chadwick, owen, The Reformation, PP. 50,51

الكتاب المقدس وحده (Sola Scriptura)

وتحرك لوثر للإجابة على ذلك السؤال بكلمات أصبحت شعار الإصلاح وهي «Sola Scriptura» أى فقط فى الكتاب المقدس. ومع أن لوثر كان مازال يؤكد ولائه للكنيسة بأنه لم يكن ينوى قط الانفصال عن السدة الرسولية، فإنه أسر لأصدقائه عن اعتقاده بأن البابوية تزيد أكثر فأكثر كقوة دنيوية. كتب لصديقه «سبالاتين Spalatin أنه ساءل نفسه عما إذا لم يكن البابا نفسه ضد المسيح فيها هو قد صلب المسيح، «أى صلب الحق». كانت حوارات ليبزج نقطة تحول للوثر، تحقق خلالها أن منطق وضعه سوف يدفعه عاجلاً أو آجلاً إلى الانفصال عن روما. فى السنة التالية كان يقول «كلنا هسيون دون أن نعرف. القديس بولس والقديس أوغسطينوس هسيان». المؤرخون الكاثوليك اعترفوا أيضاً بنقطة التحول هذه. يقول «ايزرلو»، «طبقاً للوثر يمكن أن تخطئ المجامع وقد أخطأت..... لهذا السبب تثبت الكتاب المقدس مصدراً وحيداً للإيمان وأصبحت عبارة «فقط فى الكتاب المقدس» مبدأ رسمياً للإصلاح. لم يعد لوثر يعترف بسلطة كنائسية تعليمية لها المركز الأعلى.... (فى مساجلة ليبزج) أوضح «أيك» أن لوثر لم يكن يعنى الإصلاح لكن الهجوم على كيان الكنيسة. (١)

منشورات لوثر

ربما يكون لوثر قد خسر مساجلة ليبزج، لكنه ربح شعبية ودعماً قومياً على نطاق واسع . كان اسمه على كل لسان، وكل ما كان يكتبه طبع وبيع على الفور. خلال سنة ١٥٢٠ انتهز الفرصة وطبع ثلاث نبذات أبرزت موقفه اللاهوتى.

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 64

إلى الضمير المسيحى للأمة الألمانية

١- خطاب موجه إلى الضمير المسيحى للشعب الألمانى

هنا تحدث لوثر عن «أسوار أريحا الثلاثة» التى أقامتها الكنيسة الرومانية لتحمى نفسها من مواجهة الحق (أ) الادعاء بأن الكنيسة أعلى مقاماً من السلطة المدنية (ب) الادعاء بأن البابا وحده له السلطان أن يفسر الكتب المقدسة (ج) الادعاء بأن البابا فقط له حق دعوة مجمع الكنيسة العام. إن دعوة لوثر «للضمير المسيحى» كان القصد منها هدم هذه الأسوار وإصلاح الكنيسة. كانت خاطئة تلك الفكرة القائلة بوجود طبقة من الإكليروس أرفع فى المرتبة من مسيحيين آخرين. الكل كهنة من حق الجميع أن يفسروا الكتاب المقدس. الجميع لهم السلطة فى الكنيسة. وينفس القياس فإنه فى الشئون المدنية ليس الإكليروس فوق القانون، بل يجب أن يحاكموا بموجبه مثل أى مواطن آخر.

عمل لوثر على التشهير ببذخ البلاط البابوى ورأى عامة الشعب خصوصاً الألمان يفتقرون لكى يعظموا البابا لذلك يجب على الأمراء (أى أصحاب السلطة الدنيوية) أن يضعوا حداً لهذا الاستغلال المالى والاتجار بالمصالح الدينية (مثل بيع صكوك الغفران). الاسم، اللقب، علامات الملكية، هذه كلها غمليها: القوة، السلطة، الحقوق، الحرية، كل هذه تحولت إلى البابوات. فليستوقف الشعب «التيونى» المجيد (أهل المانيا) عن أن يكونوا «أراجوزات، للحبر الأعظم الرومانى». (١)

لا تميز بين المسيحيين

ويمضى لوثر إلى القول، «لأن كل المسيحيين ينتمون إلى نفس الرتبة المسيحية

(1) Quoted by Lefever, H.C., The History of the Reformation, P. 78.

الحقيقية ولا امتياز لواحد عن الآخر إلا امتياز الوظيفة». ذلك لأن لنا معمودية واحدة، وإنجيلاً واحداً، وإيماناً واحداً..

وهذه وحدها هي التي تصنع الشعب الروحي والمسيحي. تأسيساً على ذلك، فهناك بين العلمانيين، والكهنة والأمرء، والأساقفة، والإكليروس، وأهل الدنيا لا يوجد اعتبار إلا للخدمة أو العمل وليس المركز.

«لذلك حين تتطلب الضرورة، ويكون البابا مكدراً للعالم المسيحي، يجب على أول شخص مقتدر بصفته عضواً حقيقياً في الجسد الكامل، أن يبذل ما في وسعه حتى ينعقد مجمع شرعى وحر». (١)

مهاجمة أسلوب الأسرار المقدسة في الكنيسة

٢- السبى البابلى للكنيسة

في هذه الرسالة الثانية هاجم لوثر (نظام الأسرار المقدسة للكنيسة الرومانية التي بموجبها أحكمت قبضتها على حياة المسيحيين من المهد إلى اللحد، جاعلة كل حدث هام تحت سلطة الإكليروس). مثل هذا الأسلوب اعتبره لوثر سبياً بابلياً مركزه روما (إشارة إلى حقبة السبى في العهد القديم). وسعيًا إلى احتفاظ الإكليروس بالحقوق التي كانت تخص كل المسيحيين، كانت الكنيسة تجرد الأفراد المسيحيين من حريتهم (مثل الأسرى) في الاتصال بالله شخصياً ومباشرة بالإيمان.

العشاء الربانى والمعمودية

السران الوحيدان

وانتقل لوثر إلى إنكار صلاحية كل الأسرار باستثناء عشاء الرب والمعمودية.

(1) Quoted by Iserloh, Erwin, History of the Church, P. 68

سمح بإمكان أن يكون للتوبة صفة سر من الأسرار المقدسة لكنه بكى على انتهاك الكنيسة لهذا السر. أعلن أن الكنيسة قد شوهت المعانى الكتابية للندم والاعتراف والفدية. أما عن المعمودية فقد كانت أكثر من وعد بغفران الخطايا بل كانت بالأكثر بداية اختبار التجديد لمدى الحياة.

مفهوم لوثر لسر الأفخارستيا (القریان المقدس)

حينئذ أثار لوثر أسئلة ثلاثة حول الأفخارستيا. (أ) أعلن أنه ليس بحسب الكتاب أن تحبس الكنائس تناول الكأس عن العلمانية. كلا، الخبز والخمر يجب أن يتناولهما الجميع. (ب) شكك فى مبدأ «الاستحالة الجوهرية transubstantiation» فالخبز والخمر تحولاً فعلاً إلى لحم ودم. بدلاً من ذلك ناقش مبرهنات على الاستحالة دون تغيير فى العرض Consubstantiation على أن الجسد والدم كانا حقيقة ومعجزياً موجودين فى ، وحول، وتحت الخبز والخمر، لكن لم يكن هناك تغيير مادي فى العناصر. (ج) أخيراً هاجم التعليم بأن العشاء عمل صالح أو أنه «ذبيحة» عن المشترك بل الأفخارستيا عهد المسيح أو ميثاقه، وعد بالصفح عن الخطايا مؤكداً للمؤمنين بموت المسيح.

لوثر يهاجم البابا فى خطاب

٣- حرية الإنسان المسيحى

أرفق لوثر بهذه النبذة الدينية خطاباً إلى البابا، المفروض أنه قصد به كسب صداقته. لكن بعد الكلمات الرقيقة القليلة وعبارات التحية، اندفع فى هجوم معيب على البابوية: «كنيسة روما، سابقاً أقدس كل الكنائس أصبحت مغارة لأعتى اللصوص الخارجين على القانون، أكثر وقاحة من كل بيوت الدعارة، المملكة الفعلية للخطية والموت والجحيم حتى أن عدو المسيح، لو قدر له أن يأتى، ما كان

يمكنه أن يبتكر أى إضافة إلى شرها». (١)

حرية المسيحي في الإيمان والمحبة

كان الخطاب سىء الخط لأنه بالتأكيد حطّ من قدر تأثير الرسالة التي هي محاضرة جميلة عن الحرية المسيحية، فهي خالية من النغمة الجدلية للخطاب. نحن في هذه الرسالة نحظى بأشهر أقوال لوثر: «الإنسان المسيحي هو السيد الأوفر حرية من الجميع وليس خاضعاً لأحد، بحق الإيمان، الإنسان المسيحي بين الكل هو أعظم خادم يؤدي الواجب، ومطيع للآخرين، بفضل المحبة. «فالإيمان والمحبة يكونان السمة الحقيقية للمسيحي. الإيمان يربطه بالله والمحبة تربطه بزميله الإنسان. الشاهد الكتابي للوثر عن ذلك هو (١كو ٩: ١٩) «فإنى إذ كنت حراً من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأريح الأكثرين»، ويستمر لوثر في المناقشة عن الأعمال الصالحة كثمر الإيمان وبرهانه. «من الإيمان تتدفق المحبة والابتهاج بالرب، ومن المحبة يأتى الروح المسرور، الراضى، الحر، متطوعاً لخدمة جارنا، دون اعتبار لشكران أو نكران، لمدح أو لوم لمكسب أو خسارة. غايتها أن لا تضع الناس تحت الديون، ولا هى تفرق بين الأصدقاء والأعداء أو تنتظر شكراً أو إنكار الجميل، لكنها حرية ورضى تنفق نفسها وما تملك». (٢)

مثال الحياة المسيحية

الرسالة كلها كانت تتنفس السلام والفهم، إنها عرض جذاب لمثال الحياة المسيحية. تكشف الجانب الإنساني المحب عند لوثر تبايناً مع لغة الهجوم والسباب فى الكثير من كتاباته. نحن لا نعلم ما إذا كان البابا «ليو» قرأ أو اهتم أن يقرأ

(1) Quoted by Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. VI, P. 225

(2) Quoted by Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. V11, PP. 222,223

«الحرية المسيحية». مرسوم الحرمان كان في طريقه إلى لوثر. وبداية حقبة جديدة
من الصراع والاختبار للوثر كانت وشيكة.

Recommended English Readings

1. Bainton, R.H. **The Reformation of the 16th Century, PP. 36-56**
2. Chadwick, Owen **The Reformation, PP. 47-54**
3. Grimm, H.J. **The Reformation Era, PP, 89-112**
4. Iserloh, Erwin **History of the Church, Vol. 5, PP. 42-71**
5. Latourette, K.S. **A History of Christianity, PP. 707-716**
6. Lefever, H.C. **The History of the Reformation, PP. 63-83**
7. Schaff, Philip **History of the Christian Church, Vol.VII. PP. 146-182, 203-227**
8. Stevenson, William **The Story of the Reformation, PP. 31-39**
9. Walker, Williston **A History of the Christian Church, PP. 304-309**

ثالثاً: الحرمان الكنسى للوثر ومحاكمته

(أ) مرسوم الحرمان البابوى

ضرورة إصدار الحرم

بعد مساجلات ليبزج ونشر نبذات لوثر، لم تجد الإدارة البابوية طريقاً آخر سوى حرمان الراهب الألماني. فلقد جعل الأمر واضحاً فى ذلك الوقت بأنه «هو نفسه سيمضى فى إصلاح الكنيسة ولو بدون مجمع وأيضاً بدون الإدارة البابوية. إنه التجأ مباشرة إلى العلمانية. وكان هذا ذنباً لا يغتفر، أى الهرطقة الحقيقية، ولو أنها لم تكد تذكر فى مرسوم الحرمان.^(١)

المرسوم البابوى

«المرسوم» (حرفياً هو الخاتم الذى يوضع على الوثائق البابوية الرسمية) الموجه إلى لوثر كان يسمى «قم يارب» - من أول كلماته. إنه وثيقة مطولة بها قائمة من ٤١ مادة تطلب من لوثر أن ينكرها، السطور الأولى كانت كالتى: «قم يارب واحكم فى قضيتك. إن خنزيراً يقتحم كرمك. قم يابطرس وتبصر فى قضية الكنيسة الرومانية المقدسة أم الكنائس المكرسة بالدم. قم يابولس، يامن بتعليمك وموتك أنرت وتنير الكنيسة. قوموا ياكل القديسين وكل الكنيسة التى هوجم تفسيرها للكتاب المقدس.^(٢)

روح الإدارة البابوية

يمكن للمرء أن يفهم على الفور من المرسوم نفسه كيف كان الإصلاح لا يخطر

(1) Friedenthal, Richard, Luther, His Life and Times, (translated by John Nowell), Harcourt, Brace, Jovanvich Inc. 1970, P. 248

(2) Quoted by Bainton, The Reformation of the 16th, Century, P. 58

على بال الإدارة البابوية. كما كتب فيليب سكاف، «إنه (أى المرسوم) يتنفس الروح الأصلية للإدارة البابوية، ويخلط نغمات العجرفة الكهنوتية، القلق على الحق، مقت الهزيمة والانشقاق، الحزن الأبوى وقسوة القصاص. البابا يتكلم كما لو كان هو التجسيد الشخصى للحق، والقاضى المعصوم لكل شئون الإيمان، وموزع الكفاءات والجزاءات الأبدية.^(١)

صعوبة نشر المرسوم

مندوبو البابا أرسلوا لنشر المرسوم فى كل أوروبا، لكنهم وجدوا معارضة متزايدة عند اقترابهم من المناطق الألمانية. فى ليبزج رفض الحكام الإعلان عن المرسوم. فى أمكنة أخرى أبادوها وشيعوا المندوبين بأغانى ساخرة، مجلس كلية «ويتنبرج» رفض أن ينشر المرسوم. عرضه على الأمير فريدريك الحكيم الذى طلب مشورة ايرازموس. اقترح ايرازموس أن جريمة لوثر تتضمن «المساس بتاج البابا المثلث ومعدة الرهبان». عندئذ قرر فريدريك رفض أى عمل ضد لوثر.

إعلان لوثر المضاد

تسلم لوثر المرسوم يوم ١٠ أكتوبر سنة ١٥٢٠. فوزع هو إعلاناً مضاداً مبيناً أن المرسوم هرطقة تدنس المقدسات والتجأ إلى الإمبراطور كى يرتب جلسة استماع غير متحيزة أمام مجمع مستقل. وكما قال هو، «إذا لم يتبرأ البابا من المرسوم أو يستنكره ويعاقب «أيك» وشركاه الذين يراعون مثل هذا المرسوم، عندئذ لا يشك أحد فى أنه عدو الله، ومضطهد المسيح، وهادم المسيحية، وال ضد الحقيقى للمسيح.^(٢) كان هناك تعبير شعبى متعاطف واسع الانتشار، كما قال أحد مندوبي البابا فى بلاغه إلى روما «تقريباً تسعة أعشار المانيا تتكون من ثائرين وهرطقة

(1) Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. V11, P. 229

(2) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 75

لوثرين...»

كتابات لوثر تُحرق

مرسوم البابا يحرق

أحد أوامر المرسوم أن تحرق كتابات لوثر. حدث هذا في «مانز» و «لوفان» و «كولون» يوم ١٠ ديسمبر سنة ١٥٢٠ خارج بوابة مدينة «ويتنبرج» أحرق لوثر ثلاثة مجلدات من القانون الكنسى وبعض كتابات فلاسفة القرون الوسطى. وأخيراً ألقى بالمرسوم الكريه فوق لهيب النار قائلاً، «ليت هذه النيران تهلكك لأنك اعترضت حق الله». (احتمال إشارة إلى يشوع ٧: ٢٥). فى وقت لاحق كتب لوثر دفاعاً عن عمله يقول: «إذا كانت هذه النشرة (المرسوم) تثبت فالمسيح وكلمته يسقطان إلى الأرض، لكن إذا لم تثبت فالقانون الكنسى بأكمله مع البابا وأسقفية روما تسقط كلها إلى الأرض».^(١)

القطيعة التامة بين لوثر وروما

لاحظ المؤرخون أن خطورة ذنب لوثر فى حرقه مرسوم البابا كانت أقل من ذنبه فى حرق القانون الكنسى لأن هذا كان أساس نظام الكنيسة الكاثوليكية الذى نشأ من روما القديمة ومن تقليد الأباطرة واستمرار روما القيصريّة والقاعدة المؤكدة لكنيسة العصر الوسيط. الثغرة بينهما الآن اتسعت لأقصى مداها. كانت حرباً علنية. وجعلها لوثر واضحة حين قال، «لقد قلت (فى حوار ليبزج) إن مجمع كونستانس أدان بعض مشروعات هس التى كانت مسيحية بالحق. أنا أسحب ما قلته، كل مشروعاته كانت مسيحية، وفى إدانته أدان البابا الإنجيل». «لم تعد هذه خصومة لاهوتية داخل الكنيسة. إنها تحركت وانتقلت على مسرح السياسات

(1) Friedenthal, Richard, Luther, P. 252

الأوروبية. «ألمانيا كلها فى ثورة»، هكذا أبلغ نائب البابا، «تسعة أعشار السكان يهتفون «لوثر»! العشر الباقي لا يعنيه لوثر فى شىء ويصرخ «الموت لبلاط روما»! الفلاحون المجاورون لويتنبرج، إذا قابلوا مسافراً على الطريق سألوه «هل أنت مع لوثر» ويوسعونه ضرباً إذا أجاب بأنه ليس معه.^(١)

(ب) محاكمة لوثر فى «دايت أوف ويرمز

The Diet of Worms

شارل الخامس إمبراطوراً رومانياً للإمبراطورية الرومانية المقدسة

اختير شارل الخامس ملك أسبانيا إمبراطوراً رومانياً للإمبراطورية الرومانية المقدسة سنة ١٥١٩، بعد منافسة شرسة مع فرانسيس الأول ملك فرنسا. مع أن أسرته كانت ألمانية ولغته فرنسية، كان شارل -ثقافياً ودينياً- أسبانياً وبذلك كان كاثوليكياً صحيح المعتقد شديد التحفظ. كنوع من اجتماع قمة تمت الدعوة لانعقاده فى «ويرمز» الذى كان شارل يرجو عن طريقه توحيد الأجزاء الصغيرة المبعثرة فى إمبراطوريته. حقيقة كونه ملتزماً بأن يعالج قضية «الأخ مارتن» كانت بالنسبة للإمبراطور تعطيلاً لأعمال أكثر أهمية. لم يكن لديه إلا القليل جداً من معرفة مغزى قضية لوثر بالنسبة للكنيسة، وفى الواقع بالنسبة للإمبراطورية. لكنه كان مشغولاً بالتخلص من هذا «الراهب المتعصب» الذى كان رافضاً قبول أى سلطة سواء كانت سلطة البلاط البابوى أو سلطة الإمبراطور نفسه.

لوثر يستدعى إلى «دايت أوف ويرمز»

تحت تأثير «فريدريك الحكيم» أرسل شارل الخامس إلى لوثر دعوة ليحضر إلى

(1) Chadwick, Owen, The Reformation, P. 55

«دايت» هذا نصها: «العزير المحترم والتقى، نحن وولايات الإمبراطورية المقدسة، المجتمعون هنا الآن، بعد أن أخذنا ووصلنا إلى القرار بأنه بسبب العقائد والمؤلفات التي لفترة ما جاءت منك، نريد أن نحصل منك على معلومة، ولهذا السبب منحناك ضماننا وضمان الإمبراطورية، والسلوك المأمون حتى يمكنك الحضور إلينا».^(١) هذه الرسالة الودية العاطفية المرسلة يوم ١٦ مارس لم تذكر شيئاً عن استنكار أعماله، لكن يوم ٢٦ مارس نشر الياندر، مندوب البابا أمراً رسمياً لمصادرة مؤلفات لوثر واستدعائه إلى «ويرمز» ليسحب أقواله. لكن أصدقاء لوثر عندما تذكروا ما حدث لجون هس في مجمع كونستانس (انظر ثالثاً (ب) حاولوا إقناعه بعدم الذهاب لكنه أجاب، «حتى إذا كان هناك كثرة من الشياطين في «ويرمز» بعدد بلاطات الأسطح، فما زلت أنوى الذهاب إلى هناك»

لوثر أمام «دايت أوف ويرمز»

وصل إلى «ويرمز» برفقة عدد من أصدقائه وظهر أمام الإمبراطور والمندوبين المجتمعين في يوم ١٧ إبريل. توقع أن ينهمك في مناقشات لاهوتية وكان مستعداً للدفاع عن موقفه. بدلاً من ذلك أطلعوه على مجموعة من مؤلفاته وسألوه إذا كانت حقيقة من تأليفه. ولما قال إنها كتبه، سألوه إذا كان مستعداً «أن ينكر هذه الكتب أو أى شيء فيها» أجاب لوثر أنه في حاجة إلى بعض الوقت ليتبصر في إجابته. منحه المجلس ٢٤ ساعة بعد قضاء ليلة في الصلاة رجع لوثر يوم ١٨ إبريل سنة ١٥٢١ وأذاع إعلانه الشهير.

هنا أثبت

«ما لم أقنع بشهادة الكتاب المقدس أو بسبب واضح، لأنى لا أثق في البابا

(1) Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 77

ولا فى المجمع وحدها، حيث من المعروف أنهم كثيراً ما أخطأوا وناقضوا أنفسهم، فأنا ملتزم بأقوال الكتاب المقدس التى اقتبستها وضميرى أسير كلمة الله. إنى لا أستطيع وسوف لا أنكر أى شىء، فإنه ليس مأموناً ولا صواباً أن نخالف الضمير. لذلك لا أستطيع أن أفعل شيئاً خلافاً لذلك، هنا أثبت، ليت الله يعيننى. (١)

لوثر يغادر «ويرمز»

أعيد لوثر إلى مكان إقامته فى «ويرمز». وبذلت محاولات عديدة كى يغير من موقفه لكن كلها باءت بالفشل. وعبر عنها «ايزرلو» الكاتب الكاثولىكى فيما يلى: «لم تكن فقط مسألة مظلمة، ولا معارضة لوجهة نظر كنائسية سياسية، ولا حتى مجرد إصلاح، لكنها فى الأساس مفاهيم مختلفة لطبيعة الكنيسة. (٢)

يوم ٥ أبريل تلقى لوثر كلمة بأن الإمبراطور قرر أن يتحرك ضده. فترك «ويرمز» فى اليوم التالى، وخوفاً من أن لا يفى الإمبراطور بوعده بالتصرف المأمون مع لوثر، رتب أصدقائه مع الأمير فريدريك أن يتم خطفه على الطريق وإيداعه قلعة «وارتبورج Wartburg»

مرسوم «ويرمز» يدين لوثر

كان مرسوم «ويرمز» معداً بواسطة ألياندر Aleander يوم ٨ مايو لكنه لم يكن موقعا من الإمبراطور حتى ٢٦ مايو. يقول المرسوم فى جزء منه، «يجب أن يعتبر مارتن لوثر من كل منا ومنكم ومن كل واحد، عضواً مقطوعاً من الكنيسة ومن

(1) Quoted by Ozment, Steven, The Age of Reform 1250-1550, P.245

ملحوظة: معظم الدارسين الآن، يعتبرون جملة «لا أستطيع أن أفعل شيئاً خلاف ذلك» إضافة فى وقت لاحق وليست جزءاً من بيان لوثر الأصلى.

(2) Iserloh, Erwin, History of the Church Vol. V, P. 79

الله، ومنشقاً عنيداً وهرطوقاً مجاهراً.^(١) بعد ذلك أصبح تقديم المساعدة للوثر أو مواساته خيانة ضد الإمبراطور وبالمثل تجديفاً ضد الكنيسة.

(ج) فى قاعة «وارتبورج»

عشرة شهور فى وارتبورج

مكث مارتن لوثر فى قلعة وارتبورج من مايو سنة ١٥٢١ إلى مارس ١٥٢٢. قليلون جداً من أقرب أصدقائه هم الذين عرفوا محل إقامته. كانت هناك فعلاً إشاعات بأنه مات أثناء فترة وجوده فى القلعة. عاش لوثر شخصية علمانية تحت اسم «سكوير جورج Squire George»، أطلق لحيته وخلع رداء الراهب.

لوثر يصارع الشيطان

عزلة القلعة جعلت لوثر فى حالة إحباط. كان أحياناً يلوم نفسه لأنه تسبب فى ازعاج الكنيسة. وفى أوقات أخرى لأنه كان ضعيفاً أكثر من اللازم أما قضاته فى «يرمز». صلواته بدت باردة، وكان باستمرار مدركاً لتجاربه وعذاباته الصادرة من الشيطان. (لكن قصة القائه بالمحبرة فى وجه الشيطان ثبت أنها أسطورة خيالية). فى خطاب لصديقه «سبالاتين Spalatin»، عبر عن نفسه قائلاً «لقد حان الوقت للصلاة بكل قوة ضد الشيطان، إنه جالب مأساة رهيبة على ألمانيا. وأنا الذى أخاف أن الرب قد لا يستجيب (أى لصلاته) مازلت أغط فى النوم متكاسلاً عن الصلاة والمقاومة حتى أنى أكره نفسى بما لا يقاس وأرانى عبثاً على نفسى ربما لأنى وحيد وأنت لا تساعدنى.^(٢)

(1) Ibid, P. 80

(2) Ibid, P. 81

لوثر يكتب عن الاعتراف

المخرج الوحيد لنشاط لوثر يكمن فى الكتابة. كتب المواعظ، وشرح الأسفار المقدسة وكتب المقالات عن موضوعات لاهوتية. فى إحدى هذه المقالات هاجم الاعتراف الإجبارى: «إنى أعتبر الاعتراف الشخصى شيئاً ثميناً جداً ونافعاً للصحة الروحية. آه. فى الحقيقة من المؤلم جداً لكل المسيحيين إذا لم يكن هناك اعتراف خاص ويجب أن يشكروا الله بكل قلوبهم أن الاعتراف مسموح ومتاح لهم. لكنه شئ عجيب أن يجعله البابا سنة إجبارية ويضعها ضمن سلسلة الوصايا كما يفعل أيضاً بالعفة.^(١)

ويكتب عن الخطية بعد النعمة

فى مقال آخر ناقش موضوع الخطية الملتصقة بالمسيحى بعد اختباره الخلاص: لأن حركة الغضب والشهوة موجودة فى التقى والملحد، ونفس الشئ قبل النعمة وبعد النعمة، تماماً مثل نفس الجسد قبل النعمة وبعد النعمة، لكن فى النعمة لا تستطيع الحركة الجسدية أن تفعل شيئاً، بينما بدون النعمة يكون لها السيطرة.

الذنوب بأجمعها تفتفر، لكن ليست بعد كلها قد أبيدت. لأننا نؤمن أن غفران جميع الخطايا قد حدث بدون شك، لكن علينا أن نعمل كل يوم ونترقب طمس كل الخطايا وإزالتها بالتمام. والذين يجاهدون فى هذا السبيل يعملون عملاً صالحاً. انظر، هذا هو إيمانى، لأن ذلك هو الإيمان الكاثوليكي..... الله لا يخلص خطاة وهميين لكن خطاة حقيقيين..... وهكذا يجب أن لا يفتخر الإنسان بطهارته لكن بالأحرى بنعمة الله وعطيته، بأن له إلهاً كريماً لا يحسب هذه الخطايا، وبالإضافة

(1) Ibid, P. 82.

قدم عطيته حتى بواسطتها يمكن غفران الخطايا. ^(١)

لوثر يحتج على الذخائر وبيع صكوك الغفران

أيضاً كتب لوثر احتجاجاً قوياً إلى الكاردينال «البرخت» مطران «مانز» لأنه كان يقوم بعرض الذخائر (مثل أشياء زعموا أنها من البرية وأحجار قالوا إنها من أجران قانا الجليل). ويشجع الناس على شراء صكوك الغفران. لهذه الدرجة كانت قوة سمعة لوثر حتى أن الكاردينال كتب له اعتذاراً متواضعاً!

اضطراب من المتطرفين فى ويتنبرج

أحد المشروعات العديدة التى كانت لدى لوثر لإصلاح الكنيسة هى إعادة تنظيم خدمة القديس. على أى حال، كان أتباعه فى ويتنبرج يسكون بزمام الأمور، فألغوا القداسات الخاصة، وأنشأوا قداساً إنجيلياً، حرم السجود للقربان وسمحوا للمشاركين بالتناول من كلا الخبز والخمر فى أيديهم. ^(٢) هذه التغييرات حركت المشاعر فى ويتنبرج. فانزعج الأمير فريدريك وعين لجنة للفحص. دخل لوثر المشادة بالكتابة عن إلغاء «القداس المخصوص» - «اخبرونا يا كهنة البعل، أين هو مكتوب أن القداس ذبيحة، أو أين علم المسيح أنه يجب تقديم الخبز والخمر المكرسين؟ ألا تسمعون؟ المسيح قدم نفسه ذبيحة مرة واحدة، ولا يريد أن يقدم ذبيحة بعد ذلك بواسطة أى شخص آخر. إنه يريد أن نتذكر ذبيحته. لماذا إذن تصل بكم الجرأة حتى تصنعوا ذبيحة من ذكرى؟..... ذبيحتكم تعنى تكراراً فاضحاً للصلب. كل واحد يعرف على أى شئ أسست وبنيت مملكة الكهنة كلها: على الاحتفال بخدمة القديس. بعبارة أخرى على أضخم وثنية فوق الأرض، على

(1) Ibid, P. 82, 83

(٢) كانت الممارسة الكاثوليكية التقليدية أن يقدم للمشاركين الخبز فقط (الخمر يتناوله الكاهن) الخبز يوضع فى الفم بيد الكاهن.

النفاق الفاضح، على انتهاك السر المقدس بطريقة ضالة لا دينية، وعلى عدم الإيمان الذى هو شر من عبدة الأوثان.^(١)

لوثر يترجم العهد الجديد

أعظم إنجاز لإقامة لوثر المؤقتة فى «وارتبورج» وربما فى كل مسيرة حياته كان ترجمة العهد الجديد إلى اللغة الألمانية. فى سنة ١٥٢١ توجه فى زيارة سرية إلى ويتنبرج حيث حثه أصدقاؤه خلال الزيارة أن يأخذ على عاتقه مسئولية هذا المشروع الهام. شرع فى العمل فور عودته وفى أحد عشر إسبوعاً قدم العهد الجديد بأكمله باللغة الألمانية الواضحة القراءة. المصادر الوحيدة لدى لوثر كانت «الفولجاتا اللاتينية» وربما إحدى الترجمات الألمانية (التي كان يوجد منها عدد كبير) وترجمة ايرازموس اليونانية للعهد الجديد.

لغة لوثر

تميزت هذه الترجمة بأن لوثر استخدم صيغة اللغة الألمانية التي استعملت من عهد قريب استعمالاً شاملاً. كما قال هو: «أنا أتكلم لغة اشراف السكسون، التي هي لغة كل أمير وملك فى ألمانيا وكل المدن الحرة فى الإمبراطورية..... ليس لى لغة شخصية خاصة بذاتى..... لا فائدة من مطالبة حروف اللاتينية عن كيفية التحدث بالألمانية، كما يفعل هؤلاء الأغبياء. الأمهات فى بيوتهن لن نسألهن، والأطفال فى الشوارع والرجل العادى فى الأسواق ويجب أن ننظر إليهم فى الأفواه ونرى كيف يتكلمون، ثم نترجم طبقاً لذلك. حينئذ يفهمون ويتحققون أننا نتحدث إليهم بالألمانية.^(٢)

(1) Ibid, PP. 87, 88

(2) Quoted by Friedenthal, Richard, Luther, His Life and Times, PP. 307, 308

الرواج السريع لترجمة لوثر

هذه الترجمة الجديدة نُشرت على الفور ولقيت استحساناً شعبياً سريعاً. كل إنسان أسرع ليشتري نسخة ويقرأها. طبعاً كان هناك عدد من الأخطاء التي أسرع الناقدون في إبرازها. بصفة خاصة ويخوه علي إضافة كلمة «فقط» إلى العبارة في رومية ٣: ٢٨ «الإنسان يتبرر بالإيمان» الترجمة في جملتها تُنظر إليها من كلا الأصدقاء والأعداء كهجوم على روما. والعذر يلتمس أكثر لناقديه لتصرفه إزاء رسالة يعقوب لأنه رآها تتعارض مع تعليم بولس كذلك إصدار أحكام غير ملائمة عن «العبرانيين» و «الرؤيا».. لكن التأثير الغامر كان استنشاق نسيم روح جديد في الأرض وتقديم دفعة قوية لحركة الإصلاح. هكذا كتب «فريدينثال»، «كأنما كانت روحاً جديداً يتدفق إلى الأمام حتى أن الكلمات تعود إلى الحياة وتكتسى بالمادة..... إن ذبوع «كتاب» لوثر المقدس بواسطة فن الطباعة المكتشف حديثاً كان المثل الأول لوسيلة إعلام شامل، الذي تسرب داخل المجتمع العام لذلك الزمان. كل إنسان قرأه أو أصغى إلى شخص آخر يقرؤه، كل إنسان جادل وفسر، وأخذ قواعد سلوكه من الكتاب المقدس.^(١) كل اتجاه في ذلك العصر، بما فيه الذين نعتبرهم رواد الاشتراكية والشيوعية، كان يحدد بواسطة الكتاب المقدس. إن التأثير الثقافي واللغوي لهذه الترجمة على الشعب الألماني، والذي استمروا يشعرون به حتى يومنا هذا. يمكن مقارنته بتأثير ترجمة «الملك جيمس» على اللغة الإنجليزية، وتأثير القرآن على اللغة العربية.

عامّة الشعب يقرأون الترجمة

«كوكليوس Cocklaeus»، ناقد كاثوليكي لكتاب لوثر المقدس أثنى عليه من حيث اشتكى منه: «كتاب العهد الجديد الذي ترجمه لوثر، تضاعفت أعداده

(1) Friedenthal, op. cit. P. 312

وانتشر بواسطة أصحاب المطابع حتى أن الخياط والإسكافي، نعم، حتى النساء والجهلاء الذين قبلوا الإنجيل اللوثرى الجديد، وأمكنهم قراءة الألمانية قليلاً، درسوه بشغف يجلسون عن الوصف كينبوع لكل الحق. بعضهم حفظوه عن ظهر قلب ومضوا به يحملونه داخل صدورهم. في شهور قليلة اعتبر الناس أنفسهم متعلمين إلى الحد الذي لم يكونوا فيه يخجلون من الجدال حول الإيمان والإنجيل ليس فقط مع العلمانيين الكاثوليك لكن حتى مع الكهنة والرهبان ودكاترة اللاهوت.^(١)

صعوبة ترجمة العهد القديم

واصل لوثر عمله في ترجمة العهد القديم بعد عودته إلى ويتنبرج حيث استطاع أن يأخذ بنصيحة دارسين آخرين. أول كتاب مقدس كامل نشر في سنة ١٥٣٤، وترجمة معدلة في سنة ١٥٣٩، وترجمتان أخيرتان في سنة ١٥٤٥ وسنة ١٥٤٧ وهي السنة التالية لوفاته. يسجل التاريخ جهوده المضنية في تقديم ترجمة دقيقة أثناء عمله في وصف هيكل سليمان، كان يزور ورش الحرفيين ليتعلم عن أدواتهم، اقترض مجوهرات من الأمير فريدريك ليأخذ فكرة عن لونها ونوعها، وسأل جزاراً أن يشق له نعجة حتى يتمكن من دراسة أحشائها. في مرة أثناء اجتهداه مع لغة العبرية كتب لصديقه يقول «نحن الآن منهمكون في ترجمة الأنبياء. يا للسماء! ما أضخمها وأشقها من مهمة أن نجعل الكتاب العبريين يتكلمون الألمانية. كيف يحشرون أصابع أقدامهم وكيف يحجمون عن ترك أساليبهم العبرية ويتبعون الطرق الألمانية اللفظة. ما أشبه ذلك بمطالبة العنديل أن يهجر لحنه العذب ويقلد الرقواق.^(٢)

(1) Quoted by Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. V11, P. 350

(2) Friedenthal, op. cit. p. 311

اضطرابات فى ويتنبرج

أثناء بقاءه فى وارتبورج بدأ لوثر يسمع عن تغييرات جذرية فى ويتنبرج. كان هناك عدم استقرار بين الطلبة. كناس هوجمت وأوانى المذبح أزيلت. فى وقت ما عبر لوثر عن سروره بحدوث «الثورة». لكنه بعد ذلك كتب ناصحاً ضد استخدام القوة. «تأملوا نشاطى. ألم ألق أنا ضرراً بالبابا والأساقفة والكهنة والرهبان بلسانى فقط، دون استخدام السيف، أكثر مما فعل كل الأباطرة والملوك السابقين بسلطانهم وجلالهم،^(١) لكن المشاكل استمرت. واستمر تلميذه كارلستاد فى إجراء التغييرات فى القداس ضد أوامر فريدريك. الرهبان الأوغسطينيون كانت لهم حرية ترك الدير. زادت عمليات السلب والنهب وتهشم الصور فى الكنائس. ظهر أيضاً ثلاثة رجال معلنين أنفسهم أنبياء لـ «زويكو Zwickau» وأعلنوا أنفسهم مقودين «بالروح» مثل «المونتانيين Montanists» القدامى. طبقاً لرؤياهم كانت آخرة العالم وشيكة. كارلستاد على نحو ما متأثراً بأنبياء «زويكو» استمر يضغط من أجل تغييرات جذرية. وازداد الأمر لدرجة فقدان السيطرة على الموقف. «ميلانكثون Melancthon» و «سبالاتين» و «فريدريك» وآخرون طلبوا من لوثر كى يعود إلى ويتنبرج.

لوثر يعود إلى ويتنبرج

مع أنه كان حينئذ تحت وطأة الأمر العالى بالحرمان ومعرضاً للقبض عليه، سافر إلى ويتنبرج متنكراً مرة أخرى فى لباس الراهب. ظهر لوثر فى المدينة وشرع فى التعامل مع المتعصبين والمتطرفين. وعظ يومياً من منبر كنيسة الأبروشية، وأتى باللائمة على أولئك الذين صنعوا قانوناً جديداً مستخرجاً من الحرية طبقاً للإنجيل. اعتبر أن أشكال العبادة «ظواهر خارجية» وليست أموراً جوهرية. إذا لم تكن

(1) Iseroh, op. cit., P. 89

الليتورجية اللاتينية معتبرة جوهرية للخلاص، حينئذ ولا الليتورجية الألمانية تعتبر كذلك: «يسرنى أن خدمة القديس يحتفل بها الألمان باللغة الألمانية. لكن أن يرغب كارلستاد في جعلها ضرورة، كأنما كان يجب أن تكون كذلك، فهذا مرة أخرى أكثر من اللازم. لا يمكن «للروح» أن يفعل غير ذلك، لأنه دائماً، دائماً هناك القانون وتعاسة الضمير، وخلق الخطايا.^(١)

لوثر بحكم الموقف في ويتنبرج

مع أن لوثر نفسه كان في صالح العديد من التغييرات وشعر بأنه كان من الصواب أن يجرى قداس ألماني، فقد كان مهتماً بما أسماه «الضمائر الضعيفة»، أولئك الذين يكونون سبب عشرة. وجب أن لا يكون هناك إجبار، لا بدع يمكن أن تؤذى أو تصدم الشعب، لا اندفاع، لا ملل. بسبب طرد كارلستاد عنوة من مركز القيادة، ثار على لوثر وكتب ورقة ضده، لكن كل جهوده باءت بالفشل أمام شخصية لوثر وقوته المقنعة كما قال فريدنتال، «تأثير لوثر المباشر على الشعب لم يكن البتة في قمة عظمتها أكثر مما كان أثناء تلك الأيام القليلة في مدينة ويتنبرج الصغيرة بسكانها البالغ عددهم ثلاثة آلاف.^(٢) كان مسيطراً تماماً، مؤكداً قاعدة الاعتدال. على قدر ما كان يجب أن تسود هذه الروح، كان المستقبل يواجهه وحركة الإصلاح بأعظم التحديات من الداخل ومن الخارج.

(1) Iserloh, op. cit. p. 93

(2) op. cit. p. 325

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland H. **The Reformation of the 16th Century**, PP. 57-64
2. Chadwick, Owen, **The Reformation**, PP. 54-59
3. Friedenthal, Richard **Luther, His Life and Times**, Harcourt, Brace, Jovanovich. Inc. New York
1970, PP. 240-327
4. Grimm, Harold J. **The Reformation Era, 1500-1650**, PP. 112-124
5. Iserloh, Erwin **History of the Church**, Vol. V, PP. 71-97
6. Latourette, K.C. **A History of Christianity**, pp. 716-720
7. Schaff, Philip **History of the Christian Church**, Vol. V11, pp. 287-368
8. Walker, Williston **A History of the Christian Church**, pp. 309-313

رابعاً: نمو الكنيسة اللوثرية -التحديات- الانقسامات

١٥٢٩ - ١٥٢١

(١) انتشار الكنيسة في ألمانيا

النظام يستتب داخل الكنيسة

عودة لوثر إلى ويتنبرج مع قدرته على ردع المتطرفين نتج عنها استقرار للكنيسة في حقبة شديدة الاحتياج إلى هذا الاستقرار. وقد استعاد بحكمته وفصاحته ثقة أتباعه. كما قال أحدهم، «ما أعظم الفرحة التي نشرتها بيننا عودة الدكتور مارتن. أنه لأمر واضح كالشمس أن روح الله حالّ فيه وأنه عاد إلى ويتنبرج بعناية إلهية خاصة.^(١) في غضون ذلك كانت حركة الإصلاح تنتشر من نفسها تقريباً في كل مكان في ألمانيا. فقد تكونت الكنائس الإنجيلية في مدينة بعد مدينة لكن بدون دستور ثابت أو نظام للعبادة.

أشكال جديدة للعبادة

لكي يفي لوثر بحاجات العبادة الإنجيلية الجديدة، أصدر في سنة ١٥٢٣ نظاماً للعبادة وصيغة جديدة لخدمة القديس. واستمرراً في استخدام اللغة اللاتينية استغنى عن المفهوم الطقسي للقديس، وأوصى أن يقدم الخبز والكأس للمشاركين. شجع بقوة استخدام الترانيم الشعبية التي ألف بعضها بنفسه. وكانت أشهر ترنيمة له، «الله لنا ملجأ عوناً في الضيق وجد شديداً» (مز ٤٦). اعتبر لوثر أن أكبر قدر من الحرية يسمح به في تفصيلات العبادة طالما بقيت «كلمة الله» هي المركز. نتيجة لذلك حصل تنوع واختلاف كبير في أشكال العبادة التي طبقتها الطوائف

(1) Schaff, Philip, History of the Christian Church, Vol. V11, p. 390

الجديدة. وازداد الاتجاه إلى استخدام اللغة الألمانية ازدياداً كبيراً. لوثر نفسه نشر القداس باللغة الألمانية سنة ١٥٢٦. اعتقد أنه كان من المهم أن يحتفظ بقدر الإمكان بالاستعمال الكاثوليكي الشائع. وكان مبدؤه ما لا يتعارض مع كلمة الله فهو لمصلحة كلمة الله.

محاولة البابا «هادريان» لإخماد الحركة اللوثرية

فيما يتعلق بالبابا، لم يكن لوثر والكنيسة الإنجيلية الآخذة في الانتشار، أمراً منسياً. لكنه على كل حال وجد من المستحيل أن يتعامل مع ذلك الوضع بسبب حربه مع فرنسا بشأن الحكم على إيطاليا. في أثناء ذلك خلف هادريان السادس سلفه «ليو» العاشر. أرسل هادريان كلمة إلى مجلس النواب الألماني (الريختاج) طالباً أن يوضع «مرسوم ورمز» موضع التنفيذ. أجاب الريختاج معلناً استحالة فرض المرسوم وطلب عقد مجمع لإصلاح الكنيسة. مات البابا هادريان بعد عشرين شهراً فقط من اعتلائه كرسي البابوية. وربما لو أنه عاش مدة أطول، لحصلت حركة الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية على نجاح أعظم. فلقد كان على وعى تام بالحاجة إلى إصلاح أخلاقي وإداري، لكنه كان قلقاً جداً من التهديد الموجه إلى الكنيسة والإمبراطورية بسبب جيوش الأتراك الزاحفة داخل شبه جزيرة البلقان. تولاه الارتباك من حقيقة أنه لم يستطع أن يجد دعماً من أمراء ألمانيا بسبب تكريسهم وتفرغهم للقضية اللوثرية. بدا للبابا أمراً لا يصدق أن أمة محافظة على الدين بهذا المقدار تترك نفسها مسوقة لراهب كاثوليكي تافه، ارتد عن الإيمان الكاثوليكي. «لكنه كان صريحاً بدرجة عجيبة في الاعتراف بذنب الإدارة البابوية والكنسية لوضعها الذي يرثى له،

حيث قال: " بصراحة نعترف أن الله سمح لهذا القصاص أن يباغت الكنيسة،

" بسبب خطايا البشر، خصوصاً ذنوب الكهنة والأساقفة..."

" نحن نعرف تماماً، حتى فى هذه السدة الرسولية المقدسة، يوجد

" الكثير مما هو بغيض وكريه الذى ظهر لبضع سنوات. من ثم

" لا غرابة أن المرض قد انتقل من الرأس إلى الأعضاء...

" كلنا أساقفة وإكليروس حدنا عن طريق البر ولمدة طويلة الآن

" لم يوجد حتى شخص واحد عمل صلاحاً... لذلك يجب أن تعدوا

" باسمنا أننا فى حاجة إلى بذل أنفسنا حتى يمكن، قبل كل شىء

" إدخال التحسينات على البلاط الرومانى، الذى ربما بدأت منه

" كل هذه الشرور.... نحن نعتبر أنفسنا ككل، الأكثر التزاماً

" لتنفيذ هذا الجهد لأن العالم بأسره يتطلب مثل هذا الإصلاح.

" ... فالمرض فحص بجذور عميقة وبأشكال عديدة... أولاً،

" أهم الشرور وأخطرها يجب معاملتها بالأدوية الناجعة خشية

" أن يصبح كل شىء مشوشاً تسوده الفوضى بسبب إصلاح سابق

" لأوانه». (١)

مجمع سباير فى سنة ٥٢٤ «Speyer»

بحلول سنة ١٥٢٤ أصبحت الدعوة للإصلاح ضرورة ملحة لدرجة أن مجمعاً
دُعِيَ للانعقاد فى مدينة «سباير» بألمانيا، لكن لما أثار مندوبو البابا موضوع تنفيذ
«مرسوم ورمز» أخبروه أن مثل هذه الخطوة تؤدى إلى الثورة، والتمرد، والموت،
وسفك الدماء، والخراب والدمار فى كل مكان. «كحل وسط اتفق الأمراء أن تنفذ

(1) Quoted by Iserloh, Erwin, History of the Church, Vol. V, P. 109

كل دولة المرسوم «على قدر الإمكان». عملياً كانت الإمبراطورية تعاني من معضلة خطيرة. فالإمبراطور نفسه لم يحضر، وكيفما كان السبب، فإنه أمر بحل المجمع. تحدث مندوبه عن الشعور العام بالإحباط. «كل واحد يريد تعديل شئون الإمبراطورية على مزاجه، الجميع يطلبون حكومة وعدالة، لكن ولا واحد مستعد أن يخضع بيته وإقليمه لأى منهما.. الكل يريد أن يكون سيداً».^(١)

(ب) ظهور معارضة خارجية وانشقاقات داخل الحركة

الملك هنرى الثامن يهاجم لوثر

بالرغم من القوة المتزايدة للكنيسة اللوثرية. أو ربما بسببها، بدأ آخرون بجانب روما، يهاجمون الحركة والمصلح بصفة خاصة. لما قرأ هنرى الثامن «السبى البابلى» كتب إجابته الشخصية بعنوان «الدفاع عن الأسرار السبعة» ضد لوثر. وخصصها للبابا «ليو» العاشر الذى عرفاناً بالجميل، أضاف على الملك لقب «حامى الإيمان». لم يكن لدى هنرى حجج جديدة يقدمها، لكنه فقط كرر الاتهامات العادية مستخدماً لغة غير مهذبة. قال عن لوثر إنه «أسوأ ذئب جهنمى، يتجشأ كلمات بذيئة، شريرة ضد البابا. فى سنة ١٥٢٢ كتب لوثر رده بالألمانية إلى الملك هنرى مستخدماً، بالمثل لغة جافة نابية. ويعتقد أن هذه الإجابة العنيفة من لوثر كلفته شعبيته فى انجلترا وسط الذين كان يمكن أن ينجذبوا لحركة الإصلاح.

ايرازموس وآخرون من مذهب «النزعة الإنسانية» ينقلبون على لوثر

أحد الفرقاء الذين قاموا بأقصى الجهد فى تمهيد الطريق للإصلاح كان فريق

(1) Quoted by Friedenthal, Richard, Luther, the Life and Times, p. 386

مذهب «النزعة الإنسانية The Humanists»، لكن لما ظهر لهم أن الحركة اتخذت اتجاهًا عنيفاً بدأوا في التراجع. في أول الأمر رحبوا بوقفه لوثر الجريئة ضد الإدارة البابوية وانتهاكات الكنائس. لكنهم بعد ذلك أخذوا يشككون في منهجه المتصلب وروحه القتالية. مع أنه سبق أن قيل عن ايرازموس إنه وازع البيضة التي فقسها لوثر، فإن هذا الذي اعتبر أشهر فلاسفة «النزعة الإنسانية». صدمه موقف لوثر المتطرف ضد البابوية. هكذا كتب لأحد أصدقائه: «بمراة اللوثرين وجهالة بعض الذين يظهرون الحماس أكثر من الحكمة في مساعيهم لداواة الفوضى الحاضرة وصلت الأمور إلى موقف لا أستطيع معه أن أرى مخرجاً إلا في انقلاب العالم كله رأساً على عقب. أي روح شرير أمكنه أن يزرع هذه البذرة السامة في الشئون الإنسانية؟ لما كنت في «كولون» بذلت كل الجهد كي يكون للوثر جلال الطاعة وللبابا مجد الرأفة. لكن انظروا ياللعجب! نار المراسيم البابوية و «السبي البابلي» وتلك القضايا التي طرحها لوثر بطريقة أعنف مما تدعو الحاجة، جعلت الشر فيما يبدو مستعصى الشفاء.^(١)

ايرازموس ينشق على لوثر

فون هوتين Von Hutten أحد الفلاسفة الإنسانيين، المساند للوثر كتب إلى ايرازموس يستحثه بشدة كي يقف بجانب لوثر، لكن أناساً آخرين كثيرين كانوا يشجعونه على أن يمضي مضاداً للوثر. ايرازموس أجاب كالاتي: «أنا باق على الحياد. لست طرفاً لأي جانب. بالانحياز إلى الجانب أعنى الالتصاق التام بكل ما كتبه لوثر. لكنني أحب الحرية الكاملة فلا أخدم ولا أستطيع أن أخدم جانباً واحداً.^(٢) في سنة ١٥٢٤ كان قد كتب مؤلفه «Diatribes on Free Will» (مقارنة

(1) Quoted by Schaff, Philip, op. cit. Vol. V11, p. 426

(2) Quoted by Iserloh, op. cit., p. 145

عن حرية الإرادة) الذى كان هجوماً مباشراً على عقيدة لوثر فى «التعيين السابق» (مذهب الجبرية): «أنه بدون انفصال، يربط سبق العلم الإلهى وسبق التعيين الإلهى ويستخلص من قوة الله العلى العظيم أن كل الأشياء تحدث بالضرورة، ولا يمكن أن تكون حرية فى الإنسان المخلوق. إنه يمثل الإرادة الإنسانية بحصان أو حمار يسير كما يوجهه الراكب، وأن الراكب هو الشيطان فى حالة الطبيعة الساقطة، وهو الله فى حالة النعمة. الإرادة ليس لها اختيار السيد، إنه الله والشيطان اللذان يتقابلان على حيازتها.^(١) إجابة لوثر على ذلك كانت رسالة عنوانها «عبودية الحرية» انتقد فيها ايرازموس لمذهبه الارتياحى وكرر بيان الموقف اللاهوتى بأن الإنسان خلص بالإيمان وحده فقط بصرف النظر عن الاستحقاق. المسألة عنده كانت «اخضاعاً لتشامخنا والاعتراف بنعمة الله».... «لكن ليس فى مقدور الإنسان أن يخضع نفسه بالتام حتى يعرف أن خلاصه بالكامل فوق إرادته وأعماله، ويعتمد بجملة على حكم شخص آخر وتفسيره وإرادته وأعماله.. هذا الآخر هو الله. لكن الشخص الذى لا يرتاب فى أن كل شيء يعتمد على إرادة الله يتخلى عن كل رجاء فى نفسه ولا يصنع الاختيار لكى ينتظر عمل الله. إنه الأقرب إلى نعمة كونه مخلص.^(٢) لم يجد ايرازموس وسيلة للتوفيق بين موقفيهما المضادين. أخيراً كتب إلى لوثر بطريقة أقرب إلى الأسف يقول: لقد كرهت دائماً التحزب «حتى الآن حاولت أن أبقى على حدة، كنت رافضاً أن أفصل نفسى عن الكنيسة الكاثوليكية. إنى لم أتركها قط... وأبدأ لم أدع كنيسة كنيسة. أعرف أن فى الكنيسة التى تسميها «بابوية» أشياء كثيرة تسبب لى العثرات. لكنى أراها فى كنيسة كنيسة أيضاً إلا أن الشرور التى يعتاد عليها الإنسان يتحملها بأكثر سهولة. ولذلك سأحتمل وأصبر على هذه الكنيسة حتى أكتشف كنيسة أفضل وهى

(1) Quoted by Schaff, op, cit. p. 430

(2) Quoted by Iserloh, op cit. p. 150

بالمثل ملزمة أن تحتملنى حتى أصير أفضل. إنها ليست سياسة رديئة الاحتفاظ بمسلك وسط بين شرين.^(١)

كارلستاد الراديكالى Karlstadt

فى أثناء هذه المدة، ظهرت حركة من داخل الكنيسة هى حركة كارلستاد الزعيم الذى طرده لوثر بعد عودته إلى وتنبرج. لم يغفر كارلستاد أبداً للوثر هذه الفعلة، وكان باستمرار يبت آراءه المتطرفة على الكنيسة. هاجم عماد الأطفال. وحث على الكهنوت للعلمانيين، وبشر بنوع من الصوفية يستطيع بها المؤمن أن «يتحد مع الإرادة الإلهية»....» بالطبع كان من المستحيل تماماً أن يصبح الإنسان صديقاً أو ابناً لله بدون رؤيا الله الداخلية والسرية. «رفض العودة إلى وتنبرج وإتمام واجباته الجامعة. أخيراً استقال من وظيفته الكهنوتية ورفض الاشتراك فى خدمة القداس. ولما استمر يعزل نفسه أكثر، طُرد أخيراً من سكسونيا. كارلستاد لم ينجح قط فى جمع أتباع له مع أن آراءه عن الأفخارستيا كانت مشابهة لآراء المصلحين السويسريين. فى سنة ١٥٢٥ سمح له لوثر بالعودة إلى وتنبرج بشرط أن لا يكون له نشاط سياسى.

توماس موننتزير الراديكالى Thomas Muntzer

راديكالى آخر تمسك بآراء مشابهة لكارلستاد هو توماس موننتزير. فى بادىء الأمر كان متأثراً به لكنه بعد ذلك انقلب عليه، مهاجماً الكاثوليك ولوثر على السواء. لم يكتف بمعارضة عماد الأطفال بل بشر بأن كل مؤمن يمكن أن يتلقى فوراً ومباشرة حياة من الله. «إن قلوب الناس صفحات أو لفائف من الرق ينقش عليها الله، بأصبعه لا بالحبر، إرادته غير المتغيرة وحكمته الأبدية. أى إنسان

(1) Ibid p. 152

يمكنه أن يقرأ هذه الكتابة، إذا كان لديه فكر متطور بأى طريقة.^(١) اعتقد مونتزير بأن الإصلاح يجب أن يؤدي إلى تثبيت كنيسة المختارين التى تمهد السبيل إلى نظام اجتماعي جديد للعدل والمحبة. دافع، إذا دعت الضرورة، عن ثورة دموية لكى تكبح الظلم الكهنوتى، حاول إقناع الأمراء أن يجردوا السيوف ضد البابوية. ولما لم يستجيبوا قال، «إذا رفض الأمراء استخدام سلاحهم نيابة عن الأتقياء المختارين ضد الشر، حينئذ يؤخذ منهم السلاح ويُعطى للشعب المتوقد لإهلاك الكفار.»^(٢) أكثر فأكثر بدأت مواعظ مونتزير تأخذ نغمة سياسية. فى مدينة «مولهاوزن Muhl hausen» حاول أن يؤسس نظاماً جديداً لانضباط المدينة بما يتفق مع «كلمة الله». طردوه لكنه عاد فيما بعد، وبدأ يحث على الثورة بنشاط لكى يؤسس حكومة مسيحية جديدة. لا غرابة إذن، فى أنه اتخذ مركز القيادة فى ثورة الفلاحين التى انتشرت وقتئذ فى كل ألمانيا. لوثر عارض بشدة مونتزير وكارلستاد ووصفهما بالتعصب. لكن يجب أن نلاحظ أن جانباً من آرائهم «الراديكالية» ظهر مرة أخرى فى مسيرة الإصلاح.

ثورة الفلاحين

ثورة الفلاحين المشار إليها آنفاً كانت حركة سياسية بدأت فى سنة ١٥٢٤ نتيجة للظلم المتزايد الواقع من الأمراء على عمال الزراعة. عملياً كان هناك تبرم شديد فى كل طبقات عوام الشعب الذين استغلهم الأمراء وأصحاب الأرض المرفهين. دور المصلحين فى هذه الثورة كان بطريقة غير مباشرة لكنه كان مؤثراً. لوثر شكك فى السلطة الروحية وحث الرجل العادى أن ينتقد ويعبر عن رأيه. «لما بشر لوثر بعقيدته الدينية فى التبرير بالإيمان فقط، الأمر الذى قلل من دور

(1) Quoted by Iserloh, op. cit. p. 129

(2) Ibid, p. 132

الكنيسة كمنظمة عالية التطور، ولما نادى بالكهنوت الجامع لكل المؤمنين المتساوين قدام الله وغير المحتاجين إلى وساطة الكهنة والقديسين، لما تحدث عن حرية المسيحيين التي ينالها المؤمنون بالإنجيل، ترجم المظلومون هذه المبادئ إلى مصطلحات سياسية واقتصادية واجتماعية وتطلعوا إليه كزعيم لهم»^(١). حذر لوثر نفسه اللوردات أصحاب السلطان بنفس اللهجة التي حذر بها البابوية: «الشعب لا يريد، ولا يقدر، ولا يزمع أن يحتمل طغيانكم والتجريد من المبادئ. أعزائي الأمراء واللوردات تعلموا أن تنتقدوا أنفسكم وتحاسبوها على هذا الأساس. الله لا يصبر أكثر من ذلك.... الآن الشعب.... يبحث ويفتش ويلاحقكم لذلك توقفوا عن جرائمكم وعنفكم»^(٢).

دور لوثر في الثورة

لم تنظم الثورة بطريقة موحدة. فقد ثارت فرق متعددة في أمكنة مختلفة في البلاد. لكن في سنة ١٥٢٥ أمكنهم الاتفاق على اثني عشر مطلباً. هذه القائمة اشتملت على أشياء مثل حق انتخاب رعاتهم وأن يعفوا من بعض الضرائب، إلغاء عبودية الفلاحين للأرض، وحق صيد السمك والحيوانات في الممتلكات العامة الخ. هذه المطالب التي كانت من قبل مبنية على القانون الألماني القديم تقدموا بها على أساس الإنجيل وتطلع القادة إلى لوثر طالبين منه المساعدة. حاول أولاً أن يتوسط ونصح الفلاحين أن يتحاشوا التطرف: «... لا تحشروا الاسم المسيحي، أقول لكم، لا تجعلوه وسيلة لإخفاء مشروعاتكم المتلففة، المشاغبة، غير المسيحية. حض أيضاً اللوردات على الامتناع عن إساءة استخدام سلطتهم المدنية والتوقف عن ظلم الناس وفرض الضرائب. لكنه لما رأى القتال يزداد وأصبحت المعارك أشد عنفاً وشراسة

(1) Grimm, Harold J., The Reformation Era, 1500-1650, p. 139

(2) Iserloh, op. cit. p. 139

غير موقفه وساند النبلاء.

لوثر يتحول ضد الفلاحين

اعتقد لوثر أن الراديكالية، في ارتباطها بالتطرف السياسى، مصيرها المؤكد هو الخسران مثلما كان مصيرها فى إنجلترا. إن اتجاه المتوحشين - الألفيين (المعتقدين فى العصر الألفى) إلى الاستيلاء على السلطة هادمين بذلك أى حركة إصلاحية، كان أحد الأسباب التى من أجلها ظلت الكنيسة بدون إصلاح زماناً هذا مقداره. رأى أنه يستطيع إنقاذ حركة إصلاحه فقط فى أن يضحى بالفلاحين. فى مذكرته بعنوان «ضد قبائل الفلاحين الميالين للقتل والسلب والنهب أعلن اشتراكه التام فى رأى مع النظام المحافظ الراسخ ومع الثورة المضادة. طالب الأمراء أن يلوحوا بسيوفهم ليحرروا، وينقذوا، ويعاونوا، ويشفقوا على أولئك الذين أرغموا على الانضمام مع الفلاحين....» «لكن الأشرار اضربوهم واطعنوهم واذبحوا جميع من تصل أيديكم إليهم. هذه أوقات استثنائية جداً لدرجة يكون أسهل على الأمير أن يريح السماء بسفك الدم من أن يقيم الصلاة. لا أريد أن أناضل من أجل الإنجيل بالعنف والقتل. لكنك لا تستطيع أن تقابل الشائر بالحجة والعقل، أفضل إجابة أن تضربه بقبضة يدك فى وجهه حتى يسيل الدم من أنفه.^(١)

الفلاحون ينهزمون،

لوثر يُلام

كانت حرباً غير متكافئة إلى أبعد حد. ففى معركة بعد معركة استطاع النبلاء والأمراء بسلاحهم المتفوق وقوة إطلاق النار، أن يحصدوا الفلاحين بالألوف. ويقدر عدد القتلى فى هذه المذابح بمائة ألف قتيل قبل أن يتوقف القتال. الأكثر من ذلك،

(1) Johnson, Paul, A History of Christianity, p. 283

أن عامة الشعب أخضعوا لجبروت الأمراء. وقد رأى أن لوثر ملوم بطرق عديدة وفقد الكثير من دعمه الشعبي. فى الواقع قيل إن هذه كانت آخرة الإصلاح فى ألمانيا كحركة شعبية. هو نفسه تحمل المسئولية على نحو ما، عندما قال فى وقت لاحق: «أعظم السفاحين هم المبشرون لأنهم حضوا الحكام أن ينفذوا واجبهم بصرامة ويعاقبوا الأشرار. فى الثورة أنا ذبحت كل الفلاحين، دمهم جميعاً على رأسى لكننى أحول الأمر إلى الله ربنا الذى أمرنى أن أتفوه بذلك»^(١)

الحروب الأوروبية تحمى الإصلاح

اقتناعاً من لوثر وقتئذ بأن الإصلاح ينبغى أن يكون من عمل الأمراء المدنيين، واجهه تحدياً إضافياً من البابوية. فقد أرسل البابا الجديد «اكليمندس السابع Clement VII» مندوباً للإبقاء على أكبر قدر من ألمانيا للكنيسة الكاثوليكية، فى «ريجنسبرج» أقنع المندوب عدداً من الأمراء والنبلاء المتعاطفين أن يكونوا رابطة لدعم القضية الرومانية بالأكثر فى الجزء الجنوبى من البلاد، وكان هذا بداية انقسام دينى وسياسى موجود حتى يومنا هذا. لوثر تلقى مساندة كبرى من ناخب سكسونيا وفيليب الهسى Philip of Hesse. لكن كان يمكن أيضاً أن يُقهر من القوات الكاثوليكية، مرة أخرى نجا الإصلاح لأن البابا اكليمندس والإمبراطور شارل كانا مشغولين بصراعهما على السيادة عن الانتباه للمشكلة الألمانية. فى الواقع كان شارل محتاجاً أيضاً إلى جيوشه لمحاربة الغزو التركى لهنگاريا (المجر) وكان مسروراً أن يترك الألمان لأنفسهم. أحد الكتاب ذهب إلى أبعد من ذلك بالقول: «البروتستانتية تغزو استمرارها فى البقاء إلى الأتراك. آل «هابسبورج» (بلاط الإمبراطور) فضلوا الدفاع عن هنگاريا (المجر) على إخماد البروتستانتية. وكانت البروتستانتية تعرف هذا فاستغلت العدوان العثمانى لكسب تنازلات. إن

(1) Iserloh, op. cit. p. 143

تماسك وتوسع وتشريع البروتستانتية فى ألمانيا سنة ١٥٥٥ يجب أن ينسب للإمبريالية العثمانية أكثر من أى عامل آخر.^(١)

مجمع سباير Speyer اللوثريون يحتجون

فى سنة ١٥٢٩ كان الإمبراطور شارل قد كسب معركته ضد البابا وحليفه الفرنسى، فأمكنه حينئذ تحويل التفاته إلى ألمانيا. ولما اجتمع الريبستاج (البرلمان) مرة أخرى فى مدينة «سباير»، كان الكاثوليك أغلبية. تحت ضغط من الإمبراطور حكم البرلمان بأنه لا يجب إجراء تغييرات كنسية جديدة، وأن يسمح بإقامة العبادة الكاثوليكية فى المناطق اللوثرية، وأن كل المسئولين الرومان يجب أن تعاد إليهم حقوقهم وأموالهم ودخولهم. لكن المندوبين اللوثرين أدخلوا احتجاجاً على هذا الإجراء، وهكذا اكتسبوا اللقب الشائع «بروتستانت» أى المحتجون. «ستة أمراء وأربع عشرة مدينة أصروا على عدم الارتباط بقرار أغلبية المجمع لأنه فى الأمور التى تختص بمجد الله والخلاص والحياة الأبدية لأرواحنا، يجب على كل إنسان أن يقف ويعطى حساباً عن نفسه قدام الله.

لاهوت الكنيسة طبقاً للوثر

خلال هذه السنوات العشر كان بنىان الكنيسة الجديدة يتنامى. فقد رأى لوثر أن الكنيسة كصورة مثالية هى أمة المؤمنين، مجتمع القديسين المدعوين من الروح القدس! «الإنجيل مذاعاً بالكلمة والسر المقدس، يبنى الكنيسة حيثما يعلن الإنجيل طبقاً للسفر المقدس، تعيش الكنيسة الحقيقية فى الكنيسة الخارجية كما الروح فى الجسد». «لقد طور تفكيره فى تناقض مباشر لفكر الكنيسة الكاثوليكية. مثلاً، تفسيره لمتى ١٦: ١٨، «هذا الوعد لا يشير إلى أشخاص لكن فقط إلى الكنيسة

(1) Fischer - Galati, Stephen A., Ottoman Imperialism and German Protestantism, 1521-1555 (Harvard, 1959), Quoted by Johnson, op. cit. p. 283

المبنية فى الروح على الصخرة التى هى المسيح، وليس على البابا، وليس على الكنيسة الرومانية. المسيح وحده بالضرورة يجب أن يكون هو الصخرة حيث أنه الوحيد المعصوم من الخطية، وبالتأكيد يبقى ويستمر كذلك، ومعه كنيسته المقدسة فى الروح، وكما أن المسيح الصخرة الآن بدون خطية غير منظور وروحى وملموس فقط بالإيمان هكذا أيضاً بالضرورة تكون الكنيسة بلا خطية، غير منظورة وروحية، وملموسة فقط بالإيمان.^(١)

لوثر يعتزم وضع نظام أقوى للكنيسة

على أى حال كان تفكير لوثر بعد ذلك متأثراً جداً - أولاً بالظروف السياسية المحيطة وثانياً بأنشطة «المتعصبين» مثل «مونتزير». كان قلقاً لئلا يهدموا الكثير الذى له قيمة. لم يكره شيئاً أكثر من أولئك الذين بالقوة ألغوا الحفلات التطوعية والتى لا ضرر منها، واستخرجوا من الحرية ضرورة، هذا التعصب وحرب الفلاحين وأشكال عديدة من الفوضى فى الأخلاق والانضباط أقنعت لوثر بأنه يجب أن يكون هناك نموذج للنظام الكنائسى. لم يستطع لوثر فى الواقع أن يتغاضى عن أمراء الأقاليم الذين اتخذوا حينئذ أدوار البطولة فى الشؤون الدينية. اضطر إلى استخدامهم كالسلطة الوحيدة ذات الصلاحية الكافية لتنفيذ النظام المطلوب. لذلك تحول لوثر إلى «جون» ناخب سكونيا (الذى خلف فريدريك) مطالباً بتكوين لجنة «زيارات تفتيشية (لجنة تقصى الحقائق) كى تذهب من كنيسة إلى كنيسة. ومنحت اللجنة ليس فقط حق فحص الاحتياجات الروحية للشعب لكن ممارسة مهمات مدنية وروحية. هذه اللجنة مع لجان أخرى مشابهة، كان المفروض أنها مؤقتة، لكن الزيارات التفتيشية استمرت مع «الناخب» متخذة لنفسها بازدياد حق الحكم. هذه العملية «المؤقتة» كانت علامة البداية لإشراف الدولة على الكنيسة. أقرب الزملاء

(1) Iserloh, op. cit. p. 216

إلى لوثر، المدعو «ميلانكتون Melancthon» كتب عن كنيسة الأمراء الحكومية يقول «.....» بسلطانهم يلزم أن يساندوا الكنيسة الحقيقية، وبعدها المعلمين المجدفين ويضعوا مبشرين أتقياء..... قبل جميع الناس يجب على أعضاء الكنيسة البارزين من ملوك وأمراء أن يعاونوا ويعتدوا بالكنيسة حتى تنتزع الأخطاء وتهذب الضمائر تهذيباً سليماً.^(١) اللجان المؤقتة انتزع منها اختصاصها أخيراً حيث احتالت وأخذته المجالس التي قامت بوظيفة المطران في الكنيسة الكاثوليكية. في الحقيقة كانت المجالس هيئات لأمراء الأقاليم. استدعواهم ورشحوهم للتعيين وحددوا نظام عملهم، وفي كل الأمور كان لهم القرار الأخير.

تسمية الكنيسة اللوثرية

عند ذلك الوقت بدأ الناس يتكلمون عن الكنيسة «اللوثرية» مع أن لوثر نفسه لم يقترح البتة مثل هذا الأمر. ولما وجهوا التفاتة إليه قال لهم الآتى: أرجوكم، اتركوا اسمى بعيداً ولا تسموا أنفسكم لوثرين، لكن مسيحيين... من هو لوثر؟ مذهبي ليس ملكي. أنا لم أصلب من أجل أى شخص. القديس بولس ما كان ليقبل من أى إنسان أن يسمى الناس أنفسهم أتباع بولس ولا أتباع بطرس لكن أتباع المسيح. كيف إذن يلائمني أنا الحفنة التعيسة من تراب ورماد، أن أعطى اسمى لأبناء المسيح؟^(٢) ونحن نعلم أن احتجاجه لم يؤخذ به وبقي الاسم، ولو أن كلمة «بروتستانت الجديدة» كانت تستخدم للتعبير عن كل مجموعة الكنائس المصلحة.

فيليب ميلانكتون ١٤٩٧-١٥٦٠

سبق أن ذكرنا أصدقاء للوثر، ولما كانت مساحة هذا الكتاب لا تسمح بوصف

(1) Iserloh, op. cit. p. 224

(2) Quoted by Schaff, op. cit. Vol. V11, p. 473

كل المجموعة، فإن شخصاً واحداً يستحق الذكر بصفة خاصة بسبب مساهمته المتميزة في فكر الإصلاح. اسمه فيليب ميلانكتون (١٤٩٧ - ١٥٦٠) كشاب جذبته تعاليم ايرازموس الفلسفية. أيضاً أصبح عالماً موهوباً في اليونانية والعبرية. في خطابه الافتتاحي كأستاذ للغات الكتابية في وتنبرج سنة ١٥١٨ قال: «إذا فهمنا النص (أى النص اليوناني والعبري) سوف ندرك أيضاً معنى الأمور..... وإذا وجهنا العقل إلى المصادر نبدأ في فهم المسيح، وصاياه نور لسبيلنا، وبركة رحيق الحكمة الإلهية تكتنفنا».^(١) ما أكثر ما انجذب لوثر نحو هذا الشاب. وعندما عملاً معاً في الدراسات الكتابية اقتنع ميلانكتون بالحاجة إلى إصلاح الكنيسة، دخل في المساجلات اللاهوتية مع ممثلي الكنيسة الكاثوليكية. عملياً أصبح لاهوتى الإصلاح. رسالته عن لاهوت الرؤيا التي حاول فيها الإلمام بكل الأسفار المقدسة بواسطة الأفكار اللاهوتية الرئيسية، أصبحت وثيقة لاهوتية أساسية لمصلحين آخرين. بقى ميلانكتون على عقيدته «الإنسانية» لكنه لم ينشق على الإصلاح كما فعل ايرازموس وآخرون أتباع مذهب النزعة الإنسانية. فيه نجد القدرة على دمج القيم الأخلاقية «النزعة الإنسانية» مع اللاهوت الأساسى للإصلاح. هكذا قال «ايزرلو»: إليه يُعزى كون الإصلاح ليس ضد ثقافة العصر بل معها، وميلانكتون هو الذى فى المستقبل، كان فى إمكانه، أن يحدد ويطور المذهب اللوثرى وعلم اللاهوت وفن تعليم هذا المذهب»^(٢)

كتاب «تعليم الدين المسيحى المختصر للوثر

لما تمت الكنائس الإنجيلية^(٣) فى ألمانيا، أصبح واضحاً أن هناك احتياجاً إلى

(1) Quoted by Iserloh, op. cit. p 102

(2) Quoted by Iserloh, op. cit. p. 104

(٣) صفة «انجيلى» استخدمت تاريخياً بالنسبة إلى الكنيسة اللوثرية.

نموذج للتعليم المسيحي لأجل الشعب. أول مؤلفات لتعليم الدين المسيحي كتبها بعض أتباع لوثر ومن ضمنهم مالنكتون. وفى سنة ١٥٢٩ وضع لوثر ترجمتين إحداهما مطولة والثانية مختصرة. الترجمة المختصرة مكونة من ثلاث أقسام رئيسية (١) الوصايا العشر (٢) قانون الإيمان (٣) الصلاة الربانية. قدموها وأدخلوها فى المدارس العامة والكنائس والعائلات وأصبحت عملياً صورة من الكتاب المقدس للعلمانى لأجل الشعب الألمانى. كتاب «تعليم الدين المسيحي المختصر» الذى وضعه لوثر يُعتبر أعظم وأنفع ثانى عمل بعد ترجمته الكاملة للكتاب المقدس ويمتدحها «سكاف» بالكلمات التالية: «كتاب صغير عظيم، فيه أفكار بعدد الكلمات، وكل كلمة تلتصق بالقلب وبالمثل فى الذاكرة. إنها غذاء قوى للكبار ولبن للأطفال. إنها تنجذب مباشرة إلى القلب ويمكن تحويلها إلى صلاة». (١)

علاقة الكنيسة والدولة

وجه آخر لتعليم لوثر كان له تأثير عميق على حركات أخرى للإصلاح. كان هذا موقفه بشأن علاقة الكنيسة والدولة، حيث رسم تمييزاً واضحاً وقاطعاً بين القوات الدنيوية والروحية: «الله رسم حكومتين بين أبناء آدم....»

حكم الله تحت المسيح، وحكم العالم تحت الحكام المدنيين، كل بقوانينه وحقوقه. قوانين حكم العالم لا تمتد أبعد من الشؤون الخارجية على الأرض. أما بالنسبة للنفس، فالله لا يسمح لأى فرد أن يحكم إلا هو نفسه فقط. لذلك حيثما تجرؤ

(1) Schaff, op. cit. p. 550

ملاحظة: كتب «تعليم الدين المسيحي» استخدمتها الكنيسة فى وقت مبكر من القرن الثانى كوسيلة توعية للذين يعدون أنفسهم للعضوية. وأصبحت ذات أهمية كبرى أثناء الإصلاح. ليس فقط لتدريب الشباب لكن أيضاً كوسيلة لتحديد مراكز قانون الإيمان.

الحكومة العالمية على إصدار قوانين للروح فإنها تعتدى على حكم الله. هذا سنوضحه جيداً بحيث يمكن لنبلاتنا وأمرائنا وأساقفتنا أن يروا كم هم حمقى إذا ضغطوا على الناس بقوانينهم ووصاياهم كي يؤمنوا بهذا أو ذاك..... فى أمور تختص بخلاص النفس لاشئ يُبشر به ويُقبل إلا كلمة الله..... لا أحد.. يستطيع أن يفتح أو يغلق لأجل أبواب السماء أو الجحيم، ولا يمكنه إرغامى على الإيمان أو عدم الإيمان... فالإيمان شئ تطوعى لا يمكن فرضه بالقوة. ^(١)

زواج لوثر

فى ألمانيا يذكر الناس لوثر بكل الود والحب ليس فقط كمصلح لكن كأب أسرة. أثناء ثورة الفلاحين تزوج من راهبة سابقة اسمها «كاترين فون بورا - Catharine Von Bora» (١٤٩٩ - ١٥٥٢). ^(٢) لقد أثبتت أنها ربة بيت ممتازة وأفضل معين يمكن للمصلح المزدهم بالعمل. فى حين لم تكن متعلمة فقد كانت كاترين على وعى بأحداث الزمان، وكانت مضيعة كريمة لزملء لوثر الذين كثيراً ما حضروا لزيارته. رزق لوثر ستة أبناء ثمرة هذا الزواج. من خطابات لوثر ومسجلات «حديث المائدة اللوثرية» ^(٣) يتضح أن بيت لوثر كان عشاً دافئاً وسعيداً. تكلم لوثر عن كاترين كزوجة تقية وأمينة ومكرسة، رقيقة القلب وحبيرة تعكف على العناية به. قال عنها، «لا يمكن أن أبادل على «كاثى» بفرنسا وفينسيا، لأن الله أعطاها لى، وكثيرات غيرها لهن أخطاء عديدة أردأ - وهى مخلصنة لى وهى الصالحة أم أولادى، ^(٤) وقال أيضاً «لا يوجد اتحاد أحلى من زواج سعيد، ولا انفصال أقسى

(1) Quoted by Schaff, op. cit. p. 543

(٢) لما تحرر من عهد الرهبنة بحكم الحرم الكنسى، كان لدى لوثر الحرية أن يتزوج. أيضاً استهجن، من حيث المبدأ، حياة العزوبية للكهنة.

(٣) من مذكرات حديث الغذاء على مائدة لوثر، الذى سجله أصدقاؤه.

(4) Quoted by Chadwick, Owen, The Reformation, p. 74

من انفصال زواج سعيد. «فى البيئة المحيطة بأسرته المنسجمة نكتشف الجانب
الإنسانى لشخصية لوثر

مؤقتاً يلزمنا التوقف عن الكلام فى قصة الإصلاح فى ألمانيا كى نحول
أنظارنا إلى أحداث فى إقليم سويسرا المتحدث باللغة الألمانية حيث مصلح آخر
عظيم اسمه «اولريخ زوينجلى Ulrich Zwingli» بدأ نشاطه.

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, **The Reformation of the 16th Century**, pp. 66-67
2. Chadwick, Owen, **The Reformation**, pp. 59-75
3. Grimm, Harold J., **The Reformation Era, 1500-1650**, pp. 124-145
4. Iserloh, Erwin, **History of the Church, Vol. V**, pp. 97-104, 116-156
5. Latourette, K.S. **A History of Christianity**, pp. 720-729
6. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550**, pp. 272-289
7. Schaff, philip, **History of the Christian Church, Vol. V11**, pp. 396-399, 422-473, 515-520, 542-555
8. Walker, Williston, **A History of the Christian Church**, pp. 313-320

خامساً: الإصلاح فى سويسرا

«أولريخ زوينجلى ULRICH ZWINGLI»

(١٤٨٤ - ١٥٣١)

(أ) سنواته المبكرة

الوضع فى سويسرا

مع أن سويسرا فى القرن «السادس عشر» كانت شكلياً جزءاً من الإمبراطورية الرومانية المقدسة، إلا أنها كانت تتمتع بقدر كبير من الاستقلال. كانت مكونة من مجموعة ولايات أو محافظات ذات حكم ذاتى، متحدة اتحاداً كونفيدرالياً واهياً. روح «النزعة الإنسانية» تتواجد فى جامعاتها. هذا بالإضافة إلى الحكومات المحلية القوية وكراهة التدخل الكنائسى من روما، جعل سويسرا أرضاً خصيبة لبذرة الإصلاح. فى الواقع كان إدراك الحاجة إلى إصلاح جذرى يدور فى ذهن «أولريخ زوينجلى» فى نفس الوقت تقريباً، الذى انبثقت فيه الفكرة عند لوثر.

تعليم زوينجلى ورسامته

نما زوينجلى فى قرية، لكنه واصل تعليمه فى مدينتى «باسيل برن Berne» ثم دخل جامعة فينا حيث أتم بفلسفة القرون الوسطى. أيضاً تقدم لدراسات «المذهب الإنسانى الجديد». عاد إلى سويسرا حيث حصل على درجة البكالوريوس ودرجة الماجستير من جامعة «باسيل». يُقال إن مجال تعليمه كان متسعاً جداً بحيث امتد من بداية الفلسفة اللاهوتية للعصر الوسيط إلى أحدث فلسفات النزعة الإنسانية. فى سنة ١٥٠٦ رسم زوينجلى وتعين راعياً لأبروشية «جلاروس Glarus» بالإضافة إلى واجباته الرعوية أمكنه أن يتابع دراساته العليا خصوصاً مؤلفات

أوغسطينوس.

تعيينه قسيساً مرافقاً للجيش السويسرى

فى سنة ١٥١٣ تعين قسيساً مجنداً يرافق الجنود المؤجرة من إقليم «جلاروس»، الذين أرسلوا ليحاربوا فى سبيل البابا ضد الجيوش الفرنسية فى إيطاليا. مرة أخرى فى سنة ١٥١٦ شهد مذبحة الجنود السويسريين على أيدي الفرنسيين فى معركة «مارينانو Marignano» هذه الاختبارات أقنعت أنه السويسريين كانت تستغلهم الكنيسة وقوات أوروبا الرئيسية. وكان طول حياته يعارض التجنيد الإلزامى للمرتزقة السويسريين لكى يحاربوا معارك لا تخصهم. ولما أصبح را عياً فى زيورخ أقنع المسئولين أن يوقفوا كل مشاركة فى تجارة الجنود المرتزقة.

زوينجلى فى «اينسيدلن Einsiedeln»

فى سنة ١٥١٦ طلب زوينجلى أن يُنقل إلى أبروشية اينسيدلن وهناك ركز كل جهده فى الدراسات الكتابية. واستكمل إمامه باللغتين اليونانية والعبرية مستمراً فى نفس الوقت على قراءة كتابات أصحاب «المذهب الإنسانى» خصوصاً ايرازموس، وأثناء وجوده فى اينسيدلن جاء أحد الفرنسيين المدعو «سانسون» يبيع صكوك الغفران كما سبق أن جاء «تيتزل» إلى مجدبرج. استنكر زوينجلى هذا العمل، وسانده أسقف كونستانس القريب منه، ليس بسبب المبادئ بل بالأكثر لأنه كره أن يرى المال السويسرى يذهب إلى روما. فى سنة ١٥١٨ أصبح زوينجلى مرشحاً لرعية أبروشية زيورخ. لكنه واجه تحدياً بسبب اتهامه بفساد الأخلاق. إلا أنه استطاع أن يرد كرامته ويبرىء ساحته وانتخب لهذا المنصب الهام وهو فى سن الخامسة والثلاثين.

تجديد زوينجلى

ناقش الدارسون النقطة الحقيقية التى تحول عندها زوينجلى إلى مصلح إنجيلي. هو نفسه أصر على أنه لم يكن متأثراً بلوثر، لكنه سبق أن بشر مباشرة من الإنجيل فى «جلاروس واينسيدلن»، أكثر من ذلك يبدو الآن نتيجة للدراسات الحديثة، أن زوينجلى كان يمارس صراعات روحية مثل التى اجتازها لوثر. فقد واجه نقطة تحول فى حياته بطريقة أقل إثارة للعواطف من قصة لوثر لكن ليست أقل عمقاً. «الشيء الذى اختبره لوثر فى رومية ١: ١٧» تبرهن عند زوينجلى فى متى ٦: ١٢ كلاهما عرف التجربة «المهزومة»، كلاهما عرف معجزة اكتشاف الإنجيل «فى سنة ١٥٢١ كتب إلى لوثر يقول: «بدأت العمل فى الإنجيل منذ خمس سنوات تعلمت قوة الإنجيل ومعناه من قراءة «يوحنا» ومؤلفات «أوغسطينوس»، ومن الدراسة الدقيقة لرسائل بولس فى النص اليونانى الذى نقلته أنا بيدي هذه... كان هذا منذ أحد عشر عاماً، بينما أنت يالوثر وصلت إلى مركز القوى منذ ثمانية أعوام فقط. (١)

(ب) زوينجلى فى زيورخ

كرازة زوينجلى

أبرز شيء فى خدمة زوينجلى، التى بدأها فى سنة ١٥١٩ هو كرازته. كان يركز مباشرة من الإنجيل. أعلن الناس أن مواعظه «من النوع الذى لم يسبق أن سمعوا مثله فى زيورخ». بهذا المقدار كانت قوة اقناع زوينجلى حتى أنه كسب الاحترام الشعبى والرسمى لسلطان الكتاب المقدس. هذا ما أسماه أحد المؤلفين «العامل الأساسى الدينى فى نجاح الإصلاح». (٢)

(1) Quoted by Iserloh, op. cit. p. 159

(2) Ozment, Steven, The Age of Reform, 1250-1550, p. 323

بحلول سنة ١٥٢٠ طلب مجلس مدينة زيورخ من كل الكهنة أن يتبعوا مثاله في الكرازة الكتابية، ويمتنعوا عن «الاختراعات البشرية».

زوينجلي والكتاب المقدس

اختيار الأسفار المقدسة أصبح مبدأ الإصلاح الأساسي عند زوينجلي. «الكتاب المقدس يجب أن يكون القائد والمعلم» في أول بيان له عن الإيمان -The Apologeti- cus الذي كتبه في سنة ١٥٢٢ قال: «أخيراً وصلت إلى حيث لا أثق في أى كلمات بقدر ثقتي في الكلمات التي انبثقت من الكتاب المقدس. وعندما حاول أبناء الموت التعساء أن يدسّوا أعمالهم الخاصة كأنها أعمال الله، تطلعت لأرى ما إذا كانت توجد أى وسيلة يمكن لأى إنسان أن يكتشف بها أيهما كانت أفضل: أعمال الإنسان أو أعمال الله. وفي بحثي عن حجر محك الاختبار، وجدت حجر الصدمة وحجر العثرة يسوع المسيح (١بط ٢: ٧).. بدأت أجرب كل عقيدة بحجر الاختبار. فإذا وجدت أن تعليماً ما يحتمل ويجتاز الامتحان قبلته وإلا رفضته. بدأت اكتشف ما إذا كان قد أضيف أى شيء للعقيدة الحقيقية وحينئذ لم أستطع أن أنساق وراء قوة أو تهديدات للثقة بأشياء بشرية، بنفس الثقة كما في الأمور الإلهية».^(١)

مناقشات زيورخ في سنة ١٥٢٣

كان يبنى حجمه دائماً على الكتاب المقدس، وعلى ذلك بدأ يثير قضايا أخرى. شجع بعض أصدقائه أن يأكلوا اللحم أثناء الصيام الكبير، الأمر الذي كان ممنوعاً في كنيسة العصر الوسيط، جادل ضد عزوبية الكهنوت ولما اعترض عليه أسقف «كونستانس» أصدر زوينجلي قائمة من ٦٧ مادة (تشبه إلى حد ما مواد لوثر الـ

(1) Ibid, p. 324

٩٥) أثار فيها أسئلة عديدة أساسية. وهذه أصبحت جدول أعمال لحوار سنة ١٥٢٣ كسبه زوينجلي بكل سهولة. وتقررت القاعدة بأن كل المناقشات والبراهين يجب أن تؤسس على الكتاب المقدس، فالبابوية، وخدمة القديسين، وشفاعة القديسين، ولوائح الأطعمة، والفصول والأماكن المقدسة، والنظم الرهبانية، والعزوبية، كل هذه من جهة زوينجلي لا أساس لها في الكتاب المقدس ويمكن الاستغناء عنها: «ما الضرر الذي يحدث إذا أزيلت كل هذه الكومة من مزيلة الشعائر والاحتفالات، مادام الله يعلن أن العبادة بهذه الأشياء باطلة».^(١) كان زوينجلي يشدد بصفة خاصة على طبيعة الكنيسة، محتجاً ضد كهنوتية روما العليا. فالكنيسة عنده كانت أى فريق من المسيحيين مجتمعين معاً ويعيشون محلياً جنباً إلى جنب كمجتمع.

نتائج مناقشات زيورخ

نتيجة لحوار يناير صدر الأمر إلى الإكليروس أن يحصروا مواعظهم في الكتاب المقدس. في الواقع أصبحت زيورخ مدينة بروتستانتية. لكن المتطرفين بطريقة ما ضد رغبات زوينجلي، بدأوا يدخلون الكنائس ويحطمون التماثيل. استؤنفت المناقشات في أكتوبر ونتج عنها اتخاذ قرارات بالغاء القديسين وإزالة التماثيل من الكنائس... وفاة القديسين المحليين دفنت والهياكل استبدلت بمناضد (ترابيزات)، وآلات الأرغن فككوها، والأناشيد من فرق الترنيم ألغيت. في سنة أخرى صادرت المدينة أديرة الدومينيكان والأغسطينيين. عزوبية رجال الإكليروس انتهت وبدأ الكهنة يتزوجون مع التغيرات العديدة الجارية، يبدي سكاف ملاحظاته على جو المناقشات «المجادلات تضع علامة تقدم أبعد من النزاعات الأكاديمية العادية في اللغة اللاتينية. جلسات الحوار عُقدت أمام العلمانيين وبالمثل أمام

(1) Ibid, p. 327

الإكليروس، وباللغة الدارجة... تقدموا بالقضايا الدينية إلى محكمة الشعب...
الإصلاح الألماني تقرر بإدارة الأمراء، الإصلاح السويسري تقرر بإرادة الشعب.^(١)

زوينجلي سياسياً:

جدير بالملاحظة أن زوينجلي كان سياسياً أكثر كثيراً من لوثر. مع أنه لم يكن حائزاً على مركز سياسى لكنه عمل فى كل الأوقات مع مجلس مدينة زيورخ. رأى كأحد أهدافه تثبيت نظام مسيحى مثالى للمجتمع. بنى إصلاحه على شعب الكنائس محولاً ذلك إلى دولة مسيحية على نمط أفكاره. تخويله السلطة لم يكن يعنى الإمبراطور لكنه مجلس شعبى مدينة زيورخ. كان هدفه العمل على أن يكسب هذا المجلس إلى جانب الإصلاح، مع كل سكان تلك العاصمة الصغيرة. أخيراً كان عليه أن يشترك بنفسه فى مشروعات من أجل جمهورية سويسرية عظمى تحكمها مبادئ الإصلاح. «السياسيون العظام فى العالم البروتستانتى الذين جاءوا بعد ذلك، بما فيهم الطغاة مثل كرومويل لم يكونوا تلاميذ لوثر بل تلاميذ زوينجلي»^(٢)

عشاء الرب بديلاً عن القداس

تغيرات أخرى كانت قد تمت ببطء مثل إلغاء الحج للأماكن المقدسة، ومواكب الاحتفالات. واختصرت السنة الكنسية إلى أربعة أعياد: عيد الميلاد، الجمعة العظيمة، عيد القيامة، عيد الخمسين. أثناء الأسبوع المقدس أقيمت أول خدمة للعشاء الربانى. اتباعاً لأقرب ما يمكن لمراعاة قواعد الإجراءات فى الكنيسة المسيحية الأولى، جلس زوينجلي على رأس مائدة بسيطة غطيت بمفرش أبيض ووضعت عليها كؤوس وأطباق من خشب. بعد الصلاة وقراءة كلمات (ليس

(1) Schaff, op. cit., Vol. V111, p. 57

(2) Friedenthal, op. cit. p. 498

باللاتينية بل بالألمانية) من ١٦ كو ١١: ٢٥ و ٣٥ شارك زوينجلى فى الخبز والخمر ثم وزع هذه الرموز بين الشعب منتقلاً فى الكنيسة من مقعد إلى مقعد. من أجل ذلك كانت خدمة عشاء الرب فى الكنيسة الزوينجيلية، تقام بعد ذلك أربع مرات فقط فى السنة كما هو متبع حتى الآن فى كثير من الكنائس المصلحة.

زوينجلى والزواج

المحاح زوينجلى على زواج الإكليروس لم يكن مجرد مسألة تحرير الناس من كبت غير طبيعى. كان التحريض على ذلك يهدف إلى الشفاء من شر اجتماعى خطير جداً داخل الكنيسة فقد كان معروفاً جيداً أن معظم الكهنة احتفظوا بمحظيات حملن أطفالاً غير شرعيين بأعداد كبيرة. طبقاً لسجلات كنسية ولد نحو ١٥٠٠ طفل غير شرعى للكهنة كل سنة فى أبروشية كونستانس وحدها. ولأن هذه العلاقات غير شرعية، كان من حق الأسقف أن يفرض الغرامات التى بدورها جلبت له دخلاً يقرب من ٦٠٠٠ فلورين فى السنة. هكذا كانت هذه الصورة الحزينة للسلطة الأسقفية التى تستغل خطايا الإكليروس للربح المالى. ^(١) ويقدر ما كان هنالك من أسباب أخرى، فإنه من أجل ذلك أعلن زوينجلى أنه من الصواب وبحسب الكتاب يتزوج الكهنة. هو نفسه تزوج من أرملة اسمها «أنارينهارت» سرّاً فى سنة ١٥٢٢. وأعلن الزواج فى سنة ١٥٢٤ قبل ولادة طفلها الأول.

(ج) الراديكاليون منكرو عماد الأطفال

The Anabaptists

انقسام فى زيورخ

أثناء برنامج زوينجلى للإصلاحات فى زيورخ، ظهر فريق من أولئك الذين

(1) Iserloh, op. cit., p. 161

بدأوا الدعوة لتطبيق القوانين الجديدة بأكثر صراحة. أصرّوا على برنامج للفحص والمحكمة كي يعزلوا أولئك الذين يتسمون بالفتور والنفاق عن جماعة المؤمنين الصادقين. كانت هذه تفرقة رفض زوينجلي تنفيذها لأنه اعتبر تطبيقها إجراء غير عملي. هذا الفريق تمسك بالتفسير الحرفي، المتزمت جداً للكتاب المقدس، وبعضهم مثل «كارلستاد ومونتريز» الألمانين شددوا على أن الوحي هو الإعلان الشخصي المباشر من الروح القدس. نقطة الخلاف السابقة عندهم كانت حول عماد البالغين. اعتبروا عماد الأطفال عديم الجدوى وبدون أساس كتابي. بدأوا يعيدون تعميد الكبار الذين سبق أن تعمّدوا أطفالاً، وهكذا التصق بهم اسم مذهب «منكري عماد الأطفال»

قادة منكري عماد الأطفال

القادة في الفريق الراديكالي كانوا (١) «كونراد جرابيل Conrad Grebel» (٢) فيليكس مانز Felix Manz» (٣) بلتاصر هابماير Balthasar Hubmaier» وهو الذي تجدد بواسطة قراءته مؤلفات لوثر. ولما صدر الأمر في سنة ١٥٢٥ من الحكام في زيورخ بوجوب التأكد من أن كل الأطفال قد تعمّدوا، اجتمع هؤلاء الثلاثة مع بعض أصدقائهم وشرعوا في تعميد الواحد للآخر. بدأوا أيضاً في تجميع آخرين من الذين اتفقوا معهم، جمعوهم في فرق منفصلة للصلاة. وقاموا بخدمات منفصلة لممارسة عشاء الرب، وبهذه الطريقة كونوا أنفسهم كنيسة منفصلة «أكثر نقاوة».

منكرو عماد الأطفال يضطهدون

بصفة خاصة كان المتمسكون بإعادة العماد سبب ارتباك لزوينجلي لأنهم جادلوا بأنهم وحدهم المتبعون لمبادئه حتى آخر نتائجها الظاهرة. آمنوا مثله بعصمة الكتاب المقدس (Sola Scriptura) لكنهم كانوا أيضاً انقساميين ومعتلين وحدة حركة

الإصلاح فى وقت احتاج كل المصلحين إلى الوقوف صفّاً واحداً أمام الكنيسة الرومانية. أخيراً كانوا مستبوعين سياسياً رافضين قبول الالتزامات الطبيعية للمواطنة ومعتبرين أنفسهم فوق القانون. عندئذ قرر مجلس المدينة وجوب اتخاذ إجراءات مشددة. ففى سنة ١٥٢٥ أصبح تعميد الكبار جريمة عقوبتها الموت. وبناء عليه عاقبوا أربعة أشخاص بالموت غرقاً. «جرايل ومانز قبض عليهما لكنهما هربا من العقوبة مؤقتاً. جرايل مات ميتة طبيعية لكن مانز نفذ فيه حكم الموت غرقاً. سرعان ما بدأت الكنيسة الكاثوليكية أيضاً العمل ضد منكرى عماد الأطفال، الامبراطور شارل الخامس جعل إعادة العماد ذنباً عقوبته الإعدام فى كل الإمبراطورية. يقدر الدارسون أن نحو خمسة آلاف من منكرى عماد الأطفال نفذ فيهم حكم الموت ما بين سنة ١٥٢٥ - ١٦١٨.

نمو كنائس منكرى عماد الأطفال

بالرغم من الاضطهاد المكثف من البروتستانت والكاثوليك، فإن حركة إعادة العماد انتشرت فى كل أوروبا. جماعات منهم بدأت فى ألمانيا والنمسا وشمال إيطاليا وبالمثل فى سويسرا. طائفة قوية منهم تركزت فى استراسبورج بألمانيا «هايمير Hubmaier» أحد أقدر قادتهم أسس كنيسة فى مورافيا. أعدموه حرقاً مربوطاً إلى عمود فى فينا فى سنة ١٥٢٨ وأغرقوا زوجته فى نهر الدانوب. الجماعات المختلفة من أصحاب هذا المذهب كانت على اتصال الواحدة بالأخرى، وفى سنة ١٥٢٧ وضعوا مواداً لمعتقداتهم نصت على أن الكنيسة يجب أن تتألف فقط من جمعيات المؤمنين المعمدين المجددين متحددين كجسد المسيح بممارسة عشاء الرب المشترك. كان هناك رفض تام لما يسمى «العبودية للجسد» التى كانت تعنى عبادة الكنائس الرومانية واللوثرية والزوينجيلية.^(١) الحركة انتشرت بصفة

(١) هنا يمكن أن توجد البذور الأولى لسلطة الكنيسة المحلية التى هى أقصى التطرف من السلطة الكاثوليكية أو الأسقفية.

خاصة بين الفقراء الذين شعروا بأنهم مرفوضون لما انحاز لوثر إلى جانب النبلاء أثناء ثورة الفلاحين. لوثر ومالانكتون، كلاهما عارضا بشدة منكرى عماد الأطفال واعتبراهم ثوريين ومتعصبين. كذلك وجه كالفن حججه ضدهم بنفس القسوة التي واجه بها الكاثوليك. إن ميراث منكرى عماد الطفل محفوظ وباق إلى وقتنا الحاضر في طوائف Mennonit «المينونيين» (اتباع مينو سيمونز) Menno Simons و«الموارفيين» الذين يعتبرون اليوم غير ثوريين وغير متعصبين ويقابلون بالترحيب الحار في المجموعة الكبرى للمجتمع البروتستانتي».

(د) الخلاف الأفخارستي

نقطة تحول الإصلاح

نأتى الآن إلى العلاقة الخاصة والصعبة بين زوينجلي ولوثر، وهى التى أسماها أحد المؤرخين «نقطة التحول العظمى للإصلاح»^(١) ورغم الاتفاق التام تقريباً على كل موضوع آخر لم يستطع هذان الرجلان العظيمان أن يتفقا على معنى «عشاء الرب». من منظور القرن العشرين يصعب تصور سبب خصومتها المريرة ومع ذلك يفسرها «بوتر» فى قوله: «إذ بدا أن الحروب قامت على الصراع حول «الأفخارستيا» فسببها أنها على الأقل ظهرت لهم ذات أهمية تعادل الحرية أو التحرير أو الحكم الذاتى أو الديمقراطية للأجيال القادمة»^(٢).

لوثر والاستحالة دون تغيير فى الجوهر

بينما لم يستطع لوثر قبول «وثنية» خدمة القداس، فإنه بالمثل لم يتنازل عن كلمات المسيح «هذا هو جسدى». أنكر حدوث تغيير مادي فى الخبز والخمر،

(1) Friedenthal, op. cit. p. 495

(2) Potter, G.R., Zwingli, Cambridge Univ. Press, 1976, p. 159

المعروف بالاستحالة الجوهرية. تمسك بأن الجسد والدم كانا موجودين حقيقة مع الخبز والخمر (الاستحالة دون تغيير في العرض) «لماذا لا يكون المسيح قادراً على احتواء جسده داخل مادة الخبز كما في داخل الوقائع؟ النار والحديد. مادتان مختلفتان تمتزجان في الحديد المحمي لدرجة الاحمرار، يكون كل جزء فيها مركباً من النار والحديد فلماذا لا يكون جسد المسيح الطاهر أكثر حضوراً في كل جزء من مادة الخبز؟»^(١)

عقيدة زوينجلى الرمزية

من ناحية أخرى، توصل زوينجلى إلى الرأي الذي ينكر الوجود المادى الفعلى للجسد والدم بأى شكل كان، وإذا كان قد ساند قبل ذلك التفسير الكاثوليكي لكنه فى سنة ١٥٢٤ غير موقفه تماماً. قرر أن كلمة «هو» فى الجملة «هذا هو جسدى» معناها «يدل على» «أو يشير إلى». وقد بنى حجته على الأصحاح السادس من إنجيل يوحنا. «الإيمان هو الطعام الذى يناقشه المسيح بكل شدة فى هذا الأصحاح بأكمله. فإذا كان يقول «فأما الجسد فلا يفيد شيئاً» (يو ٦: ٦٣)، إذن لا يجب أن نتخاصم نحن على أكلة من جسده..... إن جسد يسوع يفيد كثيراً جداً فى كل مكان، نعم، ولكن... كمن مات... لا كمن يؤكل... كونه مات، فهذا ينقذنا من الموت. كونه يؤكل فهذا لا يفيد شيئاً البتة». فى رأى زوينجلى يجب أن تفهم كلمات النص على النحو التالى: «هذا، أى الشىء الذى أقدمه لكم للأكل، هو رمز لجسدى، مقدم لأجلكم، وهذا الذى أعمله الآن، يجب أن تعملوه أنتم مستقبلاً لذكرى»^(٢) مثل عيد الفصح عند اليهود يكون عشاء الرب عيد الذكرى العظيم للفداء.

(1) Schaff, op. cit. Vol. V11, p. 616

(2) Quoted by Iserloh, op. Vol. V, p. 248

المناظرة بين لوثر وزوينجلي

فى سنة ١٥٢٦ كان لوثر وزوينجلي (وآخرون كثيرون) ينشرون حججهم عن الأفخارستيا. وتركز الحوار على إمكان حضور جسد المسيح فى الخبز والخمر، لوثر جادل بأنه حتى مع أن المسيح قد صعد إلى السماء بجسده، فقد كان فى إمكان ذلك الجسد أن يوجد فى كل مكان، وفى أى مكان بطريقة معجزية. واحتج زوينجلي بأن هذه مناقضة منطقية. المسيح فى كل مكان أى نعم، ولكن جسده لا يمكن أن يكون فى كل مكان دون توقف كينونته جسداً. علاوة على ذلك ليس ضرورياً للجسد أن يكون حاضراً مادام المسيح حاضراً حقيقة بالروح أثناء المشاركة فى الأفخارستيا. هذا الحوار استمر يتزايد بروح مريّة خصوصاً من جهة لوثر. كان مريضاً ومكتئباً وهو يرى الشيطان يهاجمه بطرق عديدة: الروح الثورى من الفلاحين - عناد المنادين بإعادة العماد - وتعليم زوينجلي المعاكس عن السر المقدس. لقد اختلف زوينجلي مع لوثر اختلافاً كبيراً، لكنه لم يفشل أبداً فى التحدث عنه باحترام عظيم: «لوثر، فيما اعتقد، من أعظم المؤيدين لله، الذى درس الكتاب المقدس بالتدقيق وذلك بجديّة أدق وأعظم من كل الدراسات التى جرت على هذه الأرض لمدة ألف سنة.^(١)

يمكن أن نأخذ فكرة عن موقف لوثر تجاه زوينجلي فيما يلى: «من ناحيتى أصر بأننى لا أستطيع اعتبار زوينجلي وكل تعليمه مسيحياً على الإطلاق. فهو لا يجيز ولا يعلم أى جزء من الإيمان المسيحى بطريقة صائبة وهو أخطر سبع مرات مما كان وهو كاثوليكى... إنى أصر جهاراً أمام الله وكل العالم أنى لا أرتبط ولن أرتبط بعقيدة زوينجلي.^(٢)

(1) Quoted by Potter, op. cit. p. 111

(2) Ibid, p. 310

(هـ) محاوره ماربورج Marburg

دور فيليب الهسى Hesse

أحضر الجانبان معاً لتسوية مشكلة الأفخارستيا بتأثير ونفوذ الأمير فيليب الهسى (١٥٠٤ - ١٥٦٧). كان الأمير مهتماً اهتماماً بالغاً بالوضع السياسى للمجتمع البروتستانتى، اعتقد بأنه إذا أمكن جمع الألمان والسويسريين ليتفقوا لاهوتياً، فإن ذلك يؤكد سيطرة البروتستانت على كل الأراضى الناطقة بالألمانية. ربما يوماً ما تكون النتيجة أن يصبح الإمبراطور أيضاً بروتستانتياً. لا لوثر ولا زوينجلى أراد حواراً أو توقع أية فائدة تأتى منه. لكن فيليب الهسى أصر ونتيجة ذلك انعقد مؤتمر ماربورج فعلاً - فقد أمده بالمال وأعد مكان الاجتماع الخ وجلس طوال ساعات الحوار الذى دار بلغة فنية غير مألوفة. إنه تقريباً نجح فى تمهيد السبيل إلى الاتفاق.

لوثر وزوينجلى فى ماربورج

افتتحت محاوره ماربورج فى يوم أول أكتوبر سنة ١٥٢٩. لوثر ومالنكتون كلاهما كانا هنا لا مع معاونيهما، فيما يتعلق بالفريق «الإصلاحى»، كان زوينجلى يصطحب بأسقف «باسيل» المدعو أوكولامباديوس Oecolambadius فى سنة ١٤٨٢ - ١٥٣١ وأسقف استراسبورج «بوكر Bucer» فى سنة ١٤٩١ - ١٥٥١ وعلى مدى الأيام الأربعة التالية قدم الجانبان حججهم المألوفة. لكن لم تكن هناك آراء يمكن أن تفتح الطريق إلى التوافق. يُقال إن لوثر أخذ قطعة طباشير وكتب هذه الكلمات على المائدة. «هذا هو جسدى» ثم أضاف: «هذه آيتنا الذهبية، ولم تحولنا أنت عنها ولا يعيننا أى برهان آخر». وعندما كرر زوينجلى أن جسد يسوع فى السماء لا يمكن فى نفس الوقت أن يكون فى مكان آخر، أجاب لوثر،

«أنا أؤمن أن المسيح فى السماء، لكنه جوهر فى السر المقدس أيضاً كما كان فى أحشاء العذراء. لا يهمنى إذا كان هذا ضد الطبيعة أو العقل، بشرط أن لا يكون ضد الإيمان.^(١) وتبادلا كلمات أخرى غاضبة. ولكن بعد ذلك أيقن كلاهما أنهما تماديا فى الحوار أكثر مما يجب واعتذرا. ومع ذلك كان على لوثر أن يقول عند افتراقهما، «إن روحك يخالف روحنا». وقال زوينجلى ولديه الأمل دائماً فى أن هناك طريقة للوصول إلى السلام، «لا يوجد شخص فى العالم أكون أكثر رغبة فى الاتفاق معه أكثر من الأشخاص القادمين من «ويتنبرج Wittenberg»

اتفاقية «ماربورج»

يتفق معظم الدارسين على أن الريح كان أكثر من الخسارة. فقد ناقش الفريقان اختلافاتهما بإخلاص وامتنعا عن اتهام أحدهما الآخر بالهرطقة أو اتباع البابوية. فيليب الهسى أقنعهم أن يكتبوا بياناً نهائياً من أربع عشرة مادة اتفقوا عليها. وهذه اشتملت على بيانات بشأن الثالث - التجسد - القيامة - طبيعتى المسيح، أيضاً الخطية الأصلية - الخلاص - التبرير بالإيمان - عماد الأطفال - الكهنوت لكل المؤمنين وزواج الإكليروس - عن موضوع الأفخارستيا كان الجانبان أنكرا الاستحالة الجوهرية، وسر العشاء كذبيحة فعلية ذات تأثير على الأموات والأحياء، واتفقا على أنهما مختلفان فى الفكر بشأن «الحضور الإلهى» كما يلى: «مع أننا لم نتفق فى هذه اللحظة عما إذا كان جسد المسيح الحقيقى حاضراً بدنياً فى الخبز والخمر، فعلى الرغم من ذلك يجب على كل جانب أن يتصرف مع الجانب الآخر بالمحبة المسيحية بقدر ما يسمح به ضمير كل منهما. وكلاهما يصليان بحرارة إلى الله تعالى، أن يلهمنا الفهم الحقيقى بروحه القدوس.^(٢)

(1) Quoted by Schaff, op. cit., Vol. V11, p. 642

(2) Quoted by Potter, p. 330

فشل المؤتمر أساساً في اتمام غرضه وهو توحيد المجتمع البروتستانتى. وما كان ذلك ممكناً فيما بعد لما طرح زوينجلى «رداءه» على كالفن. يلاحظ أن لوثر وكالفن لم يلتقيا قط وجها لوجه.

(و) في مؤتمرى بادن ورن

الكاثوليك يسيطرون في بادن

في سنة ١٥٢٦ كان فريق زوينجلى قد اكتسب مساندة في كل سويسرا لدرجة تحركت معها الولايات الكاثوليكية لصدّها. طلبوا عقد مؤتمر في بادن في شهر مايو من تلك السنة، الذى كان يسيطر عليه الكاثوليك حتى إن زوينجلى رفض الحضور. الكرازة الإنجيلية ممنوعة وكل اجتماع افتتحه بشعائر القداس.

«اوكلامباديوس أسقف باسيل تحاور مع جون أيك من الكاثوليك بدون نتيجة تذكر. التصويت الأخير كان في صالح التعليم الكاثوليكي بنسبة ساحقة في تلك المدينة.

والبروتستانت يردون في برن

في سنة ١٥٢٨ دعا البروتستانت إلى عقد مؤتمر عام يتعلق بهم في «برن». وكان هناك تمثيل قوى من سويسرا ومن جنوب ألمانيا. كان الكاثوليك مدعوين، لكن لعلمهم أنهم أقلية أرسلوا وفداً ضعيفاً. الواقع أن القرارات التى اتخذت في بادن استبدلت بضدها في برن. كان لنتيجة عقد هذا المؤتمر أهمية حاسمة للبروتستانت لأن «برن» للبروتستانتى تثبت المذهب الزوينجلى شرقاً وغرباً في إطار تحالف سويسرا. كما أفسحت الفرصة للتطور اللاحق لبروتستانتية جنيف. وكما يقول بوتر: «إن برن كاثوليكية، كان يمكن أن تعزل زيورخ. لكن برن الزوينجلية هى التى أنقذت جنيف من السيطرة الكاثوليكية وهكذا جعلت مهمة

كالقن ممكنة. إن مصير البروتستانت الفرنسيين والهولنديين المصلحين والمشيخيين الإسكتلنديين وربما «الكنايس الحرة» في كل أنحاء العالم... مصيرهم جميعاً اعتمد بطريقة ما على نتيجة الحوار الذي جرى في برن سنة ١٥٢٨.^(١)

(ز) جهود زوينجلي ليربح كل سويسرا،

معارك كابل Kappel

تحالفات معارضة

بعد تثبيت الإيمان «الإصلاحى» في زيورخ، شرع زوينجلي في عقد محالفات مع مقاطعات أخرى متعاطفة مع موقفه. ونتيجة لذلك أمكنه الاستحواز على معظم سويسرا الوسطى الشمالية إلى جانبه. المقاطعات الكاثوليكية المجاورة مباشرة لهذه المنطقة، لما أصابها الذعر، كونت محالفتها الخاصة وطالبت بمعونة فرديناند أمير النمسا وهو العدو التقليدى لاتحاد الولايات السويسرية. هذه المحالفة خططت لاعتراض نمو الهرطقة، لكنها أيضاً أعطيت الفرصة لتملك بعض الأراضي من المقاطعات البروتستانتية.

المواجهة في «كابيل»

كلا الجانبين كانا مستعدين للحرب. وسنحت الفرصة في سنة ١٥٢٩ حينما ألقى القبض على كارز إصلاحى في منطقة كاثوليكية حيث أحرقوه حياً. أربعة آلاف جندي من جيوش زيورخ زحفوا إلى «كابيل» على حدود إقليم زيورخ حيث لاقاهم جيش أكبر عدداً من الكاثوليك. كان زوينجلي في مقدمة الجيش (كل الرجال أصحاب الأجسام السليمة في سويسرا حملوا السلاح في تلك الأيام) وكان

(1) Ibid, p. 257

متحمساً للدخول فى معركة. على أى حال فقد وصلت كلمة من «برن» تفيد بأن على الجيوش أن تساند زيورخ فقط إذا هاجم الكاثوليك. ولما أدركوا أن الأمل قليل فى كسب الحرب بقوة أقل عدداً، قبل زوينجلى الاتفاق على الهدنة التى تبعثها معاهدة سلام اتفق فيها الكاثوليك والبروتستانت على أن يحترم كل جانب أقاليم الآخر. أما حلم زوينجلى باتحاد تحالف ولايات بروتستانتى كامل، كان يخبو واعتراه برارة شعور بخيبة الأمل.

المعركة الثانية فى كابيل

هذا الفشل تبعه فشل لاهوتى فى «ماربورج». ومع ذلك أصبح زوينجلى عدوانياً أكثر. فقد بدأ يركز فى مناطق كاثوليكية مخالفاً بذلك معاهدة كابيل. بعض المناطق أرغمت على قبول الإيمان «الإصلاحى». مرة أخرى عبأ الكاثوليك جيوشهم كما استعدت زيورخ للحرب. لكن «برن» للمرة الثانية رفضت دعم زيورخ عسكرياً - وبدلاً من ذلك شدد زوينجلى الحصار ضد الأقاليم الكاثوليكية الأمر الذى حرّمها من القمح والنبيد والملح والصلب والحديد. مجلس مدينة زيورخ عارض هذه الإجراءات، لكنه أرغم على الموافقة لما هدد زوينجلى بالاستقالة. فى هذه الفترة كانت الأقاليم الكاثوليكية يائسة، لذلك، فى أكتوبر سنة ١٥٣١ عبرت الجيوش المكونة من ٨٠٠٠ جندى الحدود عند «كابيل» حيث قابلتهم قوة بروتستانتية أقل كثيراً فى العدد فهزموا البروتستانت بسهولة. وجرح زوينجلى وهو يحارب مع جنوده. وإذ عثر عليه العدو، قتلوه فى ساحة الحرب، وأحرقوا جسده فيما بعد ونشروا رماد جثته فى الهواء. فكلا الجانبين كان راغباً فى التخلّى عن المزيد من العداء، وأن يوقعا على معاهدة كابيل الثانية. مرة أخرى نصت المعاهدة على أن كل إقليم حر فى أن يدبر شئونه الدينية محمياً من التدخل الخارجى. أرغم كل من الكاثوليك والبروتستانت على التخلّى عن أى محالفات

خارجية. بموت زوينجلى وتوقيع معاهدة «كابيل» الثانية للسلام فقدت البروتستانتية السويسرية رغبتها فى الحرب. تحت قيادة «هنريخ بولينجر Heinrich Bullinger» (١٥٠٤ - ١٥٧٥) زوج ابنة زوينجلى وخليفته، ركزت البروتستانتية على عملها الروحى.^(١) ويضيف «إسكاف» ما يلى بايجاز: «معارك عظيمة قليلة كان لها مثل هذا التأثير الكبير الذى كان لهذه المعركة الصغيرة فى كابيل، على مسار التاريخ. فقد حالت إلى الأبد - دون نجاح الإصلاح فى سويسرا الألمانية وساعدت على توقف نجاح البروتستانتية فى ألمانيا. وشجعت رد الفعل الرومانى الذى شرع فيما بعد فى اتخاذ صفة إصلاح مضاد جسيم.^(٢)

(1) Grimm, op. cit., p. 171

(2) Schaff, op. cit., Vol. V111, p. 193

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, **The Reformation of the 16th Century**, PP. 77-109.
2. Chadwick, Owen, **The Reformation**, PP. 76-80, 189-197
3. Friedenthal, Richard, **Luther, His Life and Times**, PP. 494-508
4. Grimm, Harold J., **The Reformation Era, 1500-1650**, PP. 145-161, 168-171, 217-224
5. Iserloh, Erwin, **History of the Church**, Vol. V, PP. 156-177, 245-259
6. Latourette, K.S., **A History of Christianity**, PP. 747-749, 778-786
7. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550**, PP. 318-339
8. Schaff, Philip, **History of the Christian Church**, Vol. V11, PP. 606-611, 620-650, Vol. V111, PP. 21-97, 165-201
9. Walker, Williston, **A History of the Christian Church**, PP. 320-332
10. Potter, G.R., **Zwingli**, Cambridge University Press, 1976 (The entire book is recommended for those who care to learn the detail of Zwingli's contribution to the Reformation.)

سادساً: نمو وانتشار اللوثرية حين سلام «أوجسبرج» فى سنة ١٥٥٥

(١) اقرار أوجسبرج فى سنة ١٥٣٠

الإمبراطور يعقد مجلس أوجسبرج

فى يناير سنة ١٥٣٠ دعا الإمبراطور شارل الخامس الريحستاخ (البرلمان) لعقد جلسة فى مدينة أوجسبرج على أمل حل الخلافات بين البروتستانت والكاثوليك. استعداداً لذلك جهز لوثر وميلانكتون وزملاؤهما قائمة انتقادات للكاثوليك. أيضاً أنجز ميلانكتون إقراراً مستكملاً عن الإيمان اللوثرى مبنياً على مواد «شوباخ Schwabach»، التى أنجزت بعد حوار «ماربورج». هذا الإقرار دعمه ووقع عليه الناخب جون السكسونى والأمير فيليب الهسى وآخرون من أشرف اللوثرين الألمان. فى هذه الأثناء أعد «ايك Eck» «قائمة هرطقات بلغ عددها أكثر من أربعمئة صنعها البروتستانت. وطالب «كامبيجو Campegeo» وهو من الفاتيكان وقد كان حاضراً الجلسة بأن يتوقف التبشير الإنجيلى وأن تنفذ أحكام محكمة «ورمز». معنى هذا أن لوثر الذى كان مازال تحت إدانة حكم «ورمز» لم يستطع حضور الجلسة.

ميلانكتون يحاول تهدئة الكاثوليك

فى إعدادة للإقرار بذل ميلانكتون كل جهد ممكن لجعله مقبولاً لدى الكاثوليك. كان غرضه أن يبين أن اللوثرين لم يفترقوا فى أى نقطة جوهرية عن تعليم الكنيسة الكاثوليكية. إنه بعناية أنكر هرطقات قديمة عديدة، ورفض مواقف الزوينجليين ومنكرى تعميد الأطفال..... ومع ذلك، بدون أن يهاجم علناً مشاكل حرجة مثل سلطة البابوية استطاع ميلانكتون أن يقدم فى الوثيقة نغمة

بروتستانتية خالصة. بعض زملائه انتقدوه من أجل هذا العمل. ولأن لوثر كان على اتصال قريب من بلدة «كوبيرج Coburg»، لم يكن سعيداً باللهجة اللينة الاسترضائية في لغة القرار.

الكاثوليك يفوزون بالأصوات على اللوثرين في أوجسبرج

تحت ضغط من الإمبراطور بدأت الآن فترة تفاوضية عندما راجع كلا الجانبين وثائقيهما في محاولة لإيجاد أرضية مشتركة. كثيرون شعروا بأن ميلانكتون كان ميالاً لتقديم بعض التنازلات التي كان يمكن أن تهدم القضية اللوثرية. انعقدت لجان المؤتمر لكن لأن لوثر كان قريب الاتصال استطاع أن يحبط أى محاولة للتنازل عن نقاط جوهرية. أخيراً أعلنت الأغلبية الكاثوليكية أن اللوثرين خسروا المباراة وأعلن أن الوثيقة اللوثرية مرفوضة ومنحوا شهراً ليمثلوا للموقف الكاثوليكي. لكن اللوثرين احتجوا وحاولوا أن يكون لهم دفاع عن صحة العقيدة بواسطة ميلانكتون، دفاع يعتمد على الوثائق. وثيقة أخرى قدمتها المدن الزوينجيلية مثل مدينتي ستراسبورج وكونستانس تحت عنوان «إقرار المدن الأربع Confessio Tetr Politana»، لكن الكاثوليك رفضوها أيضاً. استطاع البروتستانت دعماً لموقفهم أن يجندوا خمسة أمراء وأربع عشرة مدينة. تركوا أوجسبرج محتجين ولم يتجاسر أحد على ردعهم. إقرار أوجسبرج ودفاع ميلانكتون أصبحا وثائق أساسية للإيمان اللوثرى.

اتحاد Schmaalkaldic

قرر الأمراء البروتستانت نتيجة لاجتماع «أوجسبرج Augsburg» أنه كان يجب أيضاً أن يتألف اتحاد سياسى من الولايات البروتستانتية. لذلك اجتمعوا في شمالكالد بألمانيا في سنة ١٥٣١ لتكوين ما سمي باتحاد شمالكالد. ولما قبلت ستراسبورج إقرار أوجسبرج، اندرجت هي أيضاً في الاتحاد مع مدن المانية جنوبية

أخرى، التى تحولت فى الأصل إلى الزوينجيلية. أسفر الاتحاد بوضوح عن ربح سياسى ودينى. إنه حمى البروتستانت ضد الكاثوليك والأمراء ضد الإمبراطور. فى الواقع كان اتحاد شمالكالد القوة السياسية الوحيدة المتماسكة فى الإمبراطورية فى ذلك الحين.

لوثر وفكره عن القوتين الروحية والعالمية

من المفيد أن نتأمل تفكير لوثر لما أصبحت المجتمعات البروتستانتية من الناحية السياسية أكثر فأكثر نشاطاً. «لوثر لم يقصد البتة من تمييزه اللاهوتى بين المسيحيين والمواطنين الآخرين أن يفرق أو يباعد بين الدين والمجتمع، كأنهما هيتان غريبتان الواحدة عن الأخرى. ولا هو اعتقد قط أن هناك نزاعاً أساسياً بين عمل الكنيسة وعمل الحكام العالميين. كان ينتظر أن تمد القيم الدينية الحياة الدنيوية بالمعلومات. وأن يدافع سيف الحاكم عن الحق الدينى. المنطقتان العالمية والروحية منفصلتان ومختلفتان جوهرياً، ولكنهما أيضاً تعتمدان الواحدة على الأخرى وتحتاجان إلى أقرب درجات التعاون». ^(١) لوثر نفسه قال فى سنة ١٥٣٠ «الله رسم حكومتين، الحكومة الروحية وبواسطتها يأتى الروح القدس بالمسيحيين والقوم الصالحين... والحكومة الدنيوية التى تردع المنحرفين والأشرار. كلاهما يتحتم أن يسمح لهما بالبقاء. إحداهما ثمرها البر والأخرى تسعى فى إتمام السلام الخارجى، ولا غنى للواحدة عن الأخرى فى العالم. كما أنه من عمل ودواعى الفخر للحكومة العالمية أن تصنع أناساً من الوحوش المفترسة، وتنع أناساً أن يصبحوا وحوشاً مفترسة. اللاهوتيون وعلماء الشريعة يجب أن يستمروا وإلا فالكل مصيره الضياع. عندما يختفى اللاهوتيون تختفى كلمة الله. ولا يبقى شىء إلا الكفر، نعم لا شىء سوى الشياطين، إذا اختفى الفقهاء. اختفى القانون ومعه يختفى

(1) Ozment, op. cit. p. 268

السلام ولا يبقى شيء إلا السلب والنهب والقتل والجريمة والعنف، لا شيء سوى الوحوش الضارية. (١)

(ب) الشمولية الدينية في مونستر Munster

في سنة ١٥٣٤ (تجميع السلطات)

ظهور الراديكاليين الدينيين أمثال مونتزير وكارلستاد، سردناه في فصل سابق (انظر صفحة ١٥٠، ١٥١). هذه الظاهرة برزت مرة ثانية في قرية «مونستر» سنة ١٥٣٤. شخص اسمه «هوفمان» أعلن «أورشليم الجديدة» و«عصر الألف سنة» في مدينة «ستراسبورج». اتباعه الهولنديون انتقلوا إلى «مونستر» بمواظمتهم عن الملك الألفى وحولوا السكان إلى جماهير متحمسة. كل واحد عمدوه مرة ثانية، كل الممتلكات جمعت وشاركوا فيها على غرار الكنيسة الأولى. كل الكتب باستثناء الكتاب المقدس أحرقت، ونشروا قائمة طويلة من الجرائم تحتوى على: التجديف، التذمر، الزنى... الخ، كان عقابها الموت. وتكونت لجنة لفحص وتنفيذ الأحكام على الفور. قائدهم «جان بوكلزون Jan Beukelzoon» أعلن نفسه ملكاً وارتدى أرواباً ملكية، وعاش في رونق وبهاء مع زوجاته العشرين. طبقاً لأحد قوانين هذا النظام وجب على كل رجل أن يتخذ لنفسه أكثر من زوجة. النساء اللواتي رفضن الإذعان للأمر نفذ فيهن حكم الإعدام. كل الأشياء اعتبرت ممكنة ومسموحاً بها بينما انتظر المؤمنون نهاية العصر. ربما كانت هناك مبالغة في حكايات هتك الأعراض والأعمال الوحشية، لكن الواقعة تتجه إلى دعم الاتهام بأن «الإصلاح» فتح الباب للتعصب وتكوين الأقسام. أخيراً تمكن الأمراء من استئصال الحركة وإعدام القائد.

(1) Ibid, p. 269

مينوسيمون «Menno Simons»

منكرو تعميد الأطفال

لكن صيت منكري تعميد الأطفال لا يجب تعليقه فقط على أعمال المتطرفين. ففي هولندا حول الراهب الهولندي مينوسيمون، هذه المجتمعات إلى فرق هادئة مسالمة. بعد بضع سنوات اعترف بهم الحكام كطائفة قانونية. مع أنهم استبقوا معهم حياتهم المحافظة رافضين دائماً أى نوع من الخدمة العسكرية، فلقد اكتسبوا قبولاً عالمياً بأنهم شعب يحب السلام ويصنع السلام. روحهم مستمر إلى اليوم فى طائفة أتباع مينو المكونة من ٦٠٠.٠٠٠ عضو يوجد أكثر من نصفهم فى أمريكا الشمالية.

(ج) استمرار مجهودات الأباطرة لتوحيد

البروتستانت والكاثوليك

محاولات لعقد مجمع عام فى «مانتوا Mantua»، سنة ١٥٣٧

لم يتوقف شارل الخامس قط عن العمل والأمل فى مجمع عام يمكن أن يجمع البروتستانت مع الكاثوليك. هذا المجهود عرقله البابا أكليمندس السابع الذى رفض أن يتفضل بالاجتماع مع البروتستانت. فلما خلف بولس الثالث أكليمندس فى سنة ١٥٣٤ انفتح الطريق مرة أخرى إلى مجمع. وتحدد التاريخ فى سنة ١٥٣٧ فى «مانتوا بإيطاليا. لكن الآن جاء دور البروتستانت ليتشددوا. فكثيراً ما تحدثوا عن مجمع عام يمكن أن يحضروه. لكنهم أدركوا حينئذ أنهم فى «مانتوا» تكون أصواتهم أقلية، خصوصاً فى مدينة إيطالية يسيطر عليها البابا، فرفضوا الحضور. فى هذه الأثناء انشغل شارل فى إحدى حروبه مع فرنسا واضطر إلى تأجيل مجهودات المصالحة.

البدء فى مشاورات غير رسمية

علماً منه بأن مجمعاً تكون قراراته ملزمة للطرفين، لم يكن إجراء عملياً فى ذلك الوقت، تحول الإمبراطور مرة أخرى إلى مناقشات غير رسمية لإعادة الإتحاد. الاجتماع الأول عقد فى «هاجينو» لكنه انفض بسبب إعداد غير ملائم. جدير بالملاحظة أن أناساً كثيرين من الجانبين صدموا بالانقسام الذى ظهر وقتئذ وتمنوا مخلصين إتمام المصالحة حتى أن بعض اللوثرين لجأوا إلى إيرازموس قائلين: «نرجو أيها الرجل العظيم أن تكون سليمان المستقبل الذى يجرد حكمه كل جانب من بعض ما يتمسك به، وبذلك يضع نهاية للفرقة والخلاف»^(١).

محاورة ريجنسبرج Regensburg

انعقدت اجتماعات سرية عديدة على مدى السنة التالية إلى أن شعروا أن الوقت سانح لاجتماع ثان مفتوح. هذا الاجتماع دعى للانعقاد فى «ريجنسبرج» بألمانيا سنة ١٥٤١. الحوار افتتحه شارل الخامس بنفسه. «كونتاريني Contarini» المندوب البابوى الذى سبق أن كانت له مشاورات مع «بوكرو وهابيتو» من البروتستانت، كان راغباً جداً فى التفهم. فى وقت سابق سنة ١٥٢٣ أثناء دراسته الشخصية لأوغسطينوس كتب يقول: «لقد توصلت حقاً إلى النتيجة الراسخة بأنه لا أحد يستطيع أن يبرر نفسه بأعماله.. يجب على الإنسان أن يتحول إلى النعمة الإلهية التى يمكن الحصول عليها بالإيمان بيسوع المسيح.... لذلك بما أن أساس الصرح اللوثرى أساس صادق، يجب علينا أن لا نقول شيئاً ضده بل يجب أن نقبله حقاً وكاثوليكياً، إنه فعلاً أساس الديانة المسيحية» (من المفيد أن نلاحظ أن هذه العبارة لكاتبها «كونتاريني» ألغيت فى الطبعة الأولى من مؤلفاته لكنها معترف بها الآن من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية).

(1) Quoted by Johnson, Paul, A History of Christianity, p. 284

مشاورات ريجنسبرج تفشل

قال كونتاريني في اجتماع ريجنسبرج: «كم سيكون عظيماً ثمر الاتحاد وما أعظم إمتنان كل الجنس البشرى». أجاب بوكري: «كلا الجانبين فشلا. بعضنا زاد من تأكيده على نقاط لا أهمية لها، وآخرون لم يصلحوا بطريقة ملائمة انتهاكات واضحة. بمشيئة الله سوف نعثر أخيراً على الحق»^(١) وضعوا معاً حلاً وسطاً هو التبرير المزدوج: أى تبرير محسوب وتبرير فطري، إيمان ومحبة. «الإنسان المسيحي يتبرر بطريقة مزدوجة، بالإيمان والنعمة ويتأدية أعمال المحبة».^(٢) لسوء الحظ عندما انتقلوا إلى موضوع الأفخارستيا وجدوا الاتفاق مستحيلاً. على نحو ما، لأنه افتقد الوضوح في الموقف البروتستانتى. لوثر نفسه مكث بعيداً عن الاجتماع لشعوره بأنه لا طائل تحته. ربما لو كان حاضراً لأمكنه المعاونة فى الوصول إلى اتفاق. على كل حال فإنه قال فى إحدى المناسبات: «إنى أفضل أن أشرب الدم مع البابويين على مجرد الخمر مع الزوينجليين».

(د) أحداث سياسية تؤدي إلى سلام «اوجسبرج» فى

سنة ١٥٥٥

جهود الإمبراطور السياسية

فلما يئس الإمبراطور من توحيد الكنائس، تحول الآن إلى استراتيجية سياسية ليجمع شمل الإمبراطورية (يجب أن نذكر دائماً أن العناصر السياسية فى هذه الحقبة كانت لها نفس أهمية العناصر الدينية، ومن الصعب جداً تمييز الواحدة عن الأخرى). المهمة كانت معقدة جداً من حيث أن شارل كان يحارب فى أكثر من

(1) Ibid, p. 285

(2) Ibid

جبهة: أمراء اتحاد أسكمالكالديك فى ألمانيا، ملك فرنسا القوى، والغزو التركى فى الشرق. بالإضافة إلى أنه كان دائماً مضطراً، لمخاصمة البابا الذى كان له أهدافه الخاصة.

انتصارات شارل الخامس السياسية

كان شارل حسن الحظ لبعض الوقت، فقط استطاع أن يكون رابطة مع إنجلترا ليهزم الفرنسيين. استغل فضيحة شخصية تخص فيليب الهسى ليقسم اتحاد أسكمالكالديك. فلأن فيليب لم يكن سعيداً فى زواجه، دبر زواجاً ثانياً بموافقة زوجته الأولى، ومعاونة لوثر. كان مفروضاً أن تبقى الحادثة سرّاً لكن فيليب سمح بإذاعتها ففقد هيئته السياسية نتيجة لذلك واستطاع شارل أيضاً أن يرتب هدنة حربية مع الأتراك. ثم إنه إتماماً لحلمه أقنع البابا بولس الثالث أن يدعو مجمع «ترنت Trent» العام فى إيطاليا سنة ١٥٤٥. هذا المجمع الذى استمر لمدة ١٨ سنة هو من أخطر الأحداث فى تاريخ الكنيسة وسوف نعالجه بالتفصيل فى القسم الخاص «بالإصلاح المضاد».

الإمبراطور يهزم البروتستانت

تمكن الإمبراطور من تقسيم البروتستانت بإقناع بعض الأمراء أن يعيدوا أقاليمهم إلى الإيمان الكاثوليكى. ولما رأى أن اتحاد أسكمالكالديك قد ضعف، أعلن أن فيليب الهسى وجون السكسونى محرومان من الحقوق المدنية لعدم ولائهما للإمبراطورية عندئذ أنزل حملة عسكرية ضد البروتستانت فى سنة ١٥٤٧. كان استعداد الأمراء فى غاية الضعف وسرعان ما طوقهم الجيش المهاجم. وقُبض على فيليب الهسى وجون السكسونى. كانت هزيمة ساحقة للبروتستانت. الغريب أن شارل لم يستطع بعد ذلك أن يعزز انتصاراته. «الأمر الذى كان يمكن أن يمنع الآن من الشروع فى تثبيت نظام أوروبا الجديد من وجهة

نظره الإمبراطورى الجامع واستعادة وحدة الإيمان، لكن هذا هو ما أنكره عليه الشخص الوحيد الذى كان فى أشد الحاجة إليه وهو البابا... إن الشقاق الذى ظهر الآن بين البابا والإمبراطور كان فيه خلاص البروتستانت الألمان من ضيقتهم الشديدة. (١)

البروتستانت يستعيدون السلطة فى ألمانيا

لأن شارل لم يكن قادراً على انتهاز فرصة انتصاره العسكرى، اجتازت ألمانيا حقبة من الحيرة الشديدة. بذلت محاولات لجعل الألمان يحضرون مجمع «ترنت» ويرضون بالمزيد من المراكز اللاهوتية. من داخل الكنيسة نفسها كان النزاع كثيراً (لوثر كان قد مات سنة ١٥٤٦) عندما استمر الإمبراطور فى الضغط عليهم. أخيراً حدث رد الفعل. الأمراء البروتستانت جندوا قواتهم بمساعدة الفرنسيين واستطاعوا أن يطردها قوات الكاثوليك. هذا الصراع القصير انتهى بسلام «باسو Passau» فى سنة ١٥٥٢.

سلام أوجسبرج

العنصر الدينى الذى لم يكن قد تمت تسويته بعد، تحول إلى اجتماع الريخستاج القادم فى سنة ١٥٥٥ فى أوجسبرج. بدأ البروتستانت بالطلب الملح بأنهم يجب أن يكونوا مقبولين فى المناطق الكاثوليكية، لكن لأن الكاثوليك لا حقوق لهم فى المناطق البروتستانتية. طبعاً هذا الطلب رفض وتوصلوا إلى حل وسط. سلام «أوجسبرج» تم التوقيع عليه يوم ٢٥ سبتمبر سنة ١٥٥٥. حقوق متساوية فى الإمبراطورية شملت كلاً من الكاثوليك والبروتستانت (أى اللوثرين). ولم يعترف بطوائف إنجيلية أخرى. يجب على كل أمير أن يحدد أى العقيدتين يصرح بإعلانها

(1) Iserloh, op. cit. p. 288

فى منطقته، وواحدة فقط من الاثنتين بصرح بها فى كل منطقة. أى منطقة يشرف عليها أمير بروتستانتى تبقى بروتستانتية والعكس بالعكس. إذا تحول بالصدفة أمير كاثولىكى إلى البروتستانتية يخسر إقليمه وممتلكاته بمعنى أن الإقليم يبقى كاثولىكياً، بالنسبة للرجل العادى الذى لا رأى له فى ديانة منطقته منح حق الانتقال إلى منطقة العقيدة التى يفضلها. تطبيق هذا المبدأ «الإقليمى» كثيراً ما سبب الصعوبات. فى لوكارنو. وهى منطقة كاثولىكية فى سويسرا، ترك مجتمع بأكمله من البروتستانت منازلهم وأرزاقهم ليهاجروا إلى زيورخ. بالنسبة لألمانيا، فإن اللوثرية تثبتت قانونياً على حساب أمة منقسمة. هكذا ضاع حلم لوثر لتنقية كل الكنيسة الألمانية. أيضاً المفهوم الكاثولىكى عن بناء العمود الواحد ووحدة لا تنقسم. بعد مرور ٤٠٠ سنة كان على البابا «بيوس» الثانى عشر أن يقول: «إن الصالح العام للإمبراطورية وبالمثل للكنيسة الذى من أجله كانت قضية «نكون أو لا نكون، داخل الحدود الألمانية». يبرر توقيع السلام الدينى (سلام أوجسبرج) بأيدي الأمراء «الكاثوليك».^(١)

(هـ) سنوات لوثر الأخيرة

تدهور صحة لوثر

فى حين من الواضح أن لوثر استمر فى اهتمامه النشط بتنمية الكنيسة، إلا أن سنواته العشر الأخيرة تميزت بانحراف صحته ومزاجه المكتئب. ولما لاحقته الأحداث السياسية أصبح أقل قدرة على المشاركة. كرس نفسه للكتابة وتنمية البرامج الثقافية وعلم الترنيم. المشاجرات بين المصلحين الآخرين أحزنته. كان يحلم بأن الكرازة الطاهرة بالإنجيل تغير من نفسها المجتمع. الواقع أن العمل الذى بدأه فاق كثيراً قوة أى شخص بمفرده مهما أوتى من موهبة القيادة. صحته المتدهورة

(1) Iserloh, op. cit. p. 300

جعلته أكثر انفعالا. بعض كتاباته فى وقت متأخر حماسية هائجة كوخز الإبر بالنسبة لفرق بروتستانتية أخرى، وأيضاً بالنسبة لليهود.

موت لوثر

موت ابنة له عمرها ١٣ سنة أصاب لوثر بالمزيد من الاكتئاب. كما أنه انزعج بسبب عادات شعب «وتنبرج» الدنيوية لدرجة أنه هدد بترك المدينة. بصعوبة أقنعوه أن يمكث. أخيراً رجع إلى حيث وُلد فى بلدة «ايسليبين» فى فبراير سنة ١٥٤٦ حتى لما ازداد جسده ضعفاً استمر يكتب. آخر كلمات كتبها بقلمه كانت «لا أحد يستطيع الإدعاء بأن لديه اختباراً كافياً للأسفار المقدسة ما لم يسيطر على أبروشية بالأنبياء والرسل لمدة مائة سنة. نحن متسولون هذه هى الحقيقة» ولما اضطجع مردداً أنفاسه الأخيرة، سأله صديقه «يونا س Jonas»، «هل تبقى ثابتاً فى المسيح وراسخاً فى المبدأ الذى بُشرت به؟ أجاب لوثر، «نعم». بتلك الكلمة رحل هذا العملاق، عملاق الكنيسة والتاريخ الإنسانى.

تحيةة إلى لوثر

يقول الدارسون إن الكلمات التى كتبت عن لوثر أكثر مما كتب عن أى شخص آخر فى التاريخ باستثناء المسيح نفسه. هنا نسجل فكر عالم كاثوليكي من علماء القرن التاسع عشر الذى كتب نقداً شاملاً عن «الإصلاح»، ومع ذلك قدم تحية إلى لوثر على النحو التالى: حقيقة، إنها عظمة عقلية لوثر القاهرة وتعدد جوانبه العجيبة، هى التى جعلته رجل عصره وشعبه. ولا يوجد قط ألمانى كان لديه مثل هذه المعرفة الوجدانية لأهل وطنه، ومرة أخرى كانت تمتلكه. ولا نقول مقتصه – العاطفة القومية كراهب أوغسطينى من رهبان ويتنبرج. عقل وروح الألمان كانا فى يده مثل قيثارة فى يد عازف ماهر. فقد أعطى قومه أكثر مما قدم أى إنسان فى

الزمن المسيحي لشعبه.... أعطاهم اللغة - الكتاب المقدس - الكنيسة - التسبيح. كل ما استطاع معارضوه أن يقدموا بدلاً منها، وكل الإجابة التي أمكنهم أن يأتوا بها إليه، كانت غثة لا طعم لها ولا لون، وضئيلة بجانب فصاحته الحماسية. إنهم تلعثوا أما هو فتكلم. هو وحده الذي دفع بصمة عقله التي لا تنطمس على اللغة الألمانية والعقل الألماني، حتى أولئك الذين يحسبون في العداوة الدينية زعيم الهراطقة مضلل الشعب، مجبرون رغماً عنهم على التحدث بكلماته والتعبير بأفكاره. ابن الفلاح يجب أن يحسب ضمن العظماء، نعم ضمن أعظم الرجال. هذا أيضاً حق أنه كان صديقاً متعاطفاً، خالياً من الطمع ومحبة المال، ومستعداً لمعاونة الآخرين»^(١).

(و) انتشار الكنيسة اللوثرية في بلاد أوروبية أخرى

في الدانمرك

لسنوات عديدة كان كبار رجال الكنيسة بالدانمرك أبعد من أن يكونوا مقبولين شعبياً. لما سمع الملك كرستيان الثانى عن «الإصلاح» فى ألمانيا دعا مبشراً لوثرياً للحضور. أمكنه إنشاء بعض الإصلاحات. الملك كرستيان الثانى أرغم على التخلي عن العرش، لكن عمه فريدريك الذى خلفه استطاع أيضاً أن يشجع اللوثرية فقد ترجم العهد الجديد إلى اللغة الدانمركية . بعد ذلك مضى وقت تخللته المشاكل بعد موت فريدريك. لكن خليفته الملك كرستيان الثالث طلب المساعدة من «وتنبرج». أحد أصحاب لوثر حضر وعاون فى رسم سبعة أساقفة لوثرين. عندئذ تم الاعتراف بالكنيسة الدانمركية على المنهج اللوثرى تماماً.

(1) J. Dollinger, Lecture on the Reunion of Christendom, 1888, Quoted by Schaff, op. cit. Vol. V11, p. 741,742.

فى النرويج وأيسلندة

عملياً كانت النرويج إقليماً دانمركياً فى تلك الأيام لكن الملك الدانمركى كان قليل الاهتمام بهذا الإقليم. لكن لما أصبحت الدانمرك لثرية فرضت العقيدة الجديدة على النرويج. مع أن اللوثرية من قبل لم تكن مألوفة، أصبحت أخيراً مقبولة كالديانة الرسمية للدولة. أيسلندة أيضاً من ممتلكات الدانمرك أصبحت لثرية بنفس الطريقة.

فى السويد

جاء الإصلاح فى السويد كجزء من صراعهم القومى فى سبيل الاستقلال عن الدانمرك. حاول الملك كرستيان الثانى أن يفرض حكمه على السويد. حدثت ثورة وطرده الدانمركيون. الملك الجديد «جوستاف» (١٥٢٣ - ١٥٦٠) كان يشجع الحركة اللوثرية والمبشرين الإنجيليين الذين تدرّبوا فى وتنبرج. ترجم العهد الجديد. نشر باللغة السويدية فى سنة ١٥٢٦. يقال إن الملك صادر الممتلكات الكاثوليكية لأغراض مالية أكثر منها لأسباب دينية. فى سنة ١٥٣١ تم تعيين مطران فى «أويسالا». لكن الأساقفة المحليين كانوا مسئولين مباشرة أمام الملك واعتبروه الرئيس الفعلى لكنيسة السويد اللوثرية. مضى بعض الوقت قبل أن تكتسب هذه التغييرات الموافقة الشعبية الكاملة. فى الحقيقة أنه كان هناك رد فعل بإيعاز من ابن جوستاف، لكن هذا انتهى فى سنة ١٥٩٣ حين قبل سنودس أويسالا رسمياً إقرار اوجسبرج كدستور الإيمان للسويد. فنلندا Finland كانت وقتئذ من ممتلكات السويد فأصبحت لثرية بنفس الطريقة.

البروتستانتية فى أوروبا الشرقية

فى العديد من البلاد مثل «بروسيا الشرقية. وبولندا، وأستونيا، ولاتفيا،

وليتوانيا كان الاهتمام عظيماً بـ «الإصلاح». بعض الأمراء عند سماعهم عن لوثر، أرسلوا مندوبين إلى وتنبرج محاولين تأسيس كنائس لوثرية. لكن النجاح لم يكن منتظماً. علاوة على ذلك كان ثمة تنافس من «منكرى تعميد الأطفال». والزوينجليين، والكالفنيين. روسيا المجاورة التي كانت أرثوذكسية اتجهت أيضاً إلى مقاومة التغيير إلى البروتستانتية. عدم الاستقرار السياسى لعب دوره. لمثل هذه الأسباب بقيت بولندا أكبر دولة فى أوروبا بعد روسيا. بقيت فى آخر الأمر كاثوليكية. فى بوهيميا حيث طائفة جون هس (انظر صفحة ٥١) منحت الكنيسة المورافية بعد اضطهاد كثير،... منحت أخيراً السماح والتساهل. هنغاريا (المجر) على نحو ما، انقسمت بالتساوى بين اللوثرين والزوينجليين والكاثوليك، نعود الآن إلى سويسرا لإمعان النظر فى التطور التالى للإصلاح مع جون كالفن فى جنيف.

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, **The Reformation of the Sixteenth Century,**
pp. 141-159
2. Friedenthal, Richard, **Luther, His Life and Times,** pp. 520-528
3. Grimm, Harold J., **The Reformation Era, 1500-1650,** pp. 166-168,
173-213
4. Iserloh, Erwin, **History of the Church, Vol. V,** pp. 253-327
5. Latourette, K. S., **A History of Christianity,** pp. 726-742
6. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550,** pp. 245-272
7. Walker, Williston, **A History of the Christian Church,** pp. 332-
345

٣- الإصلاح السويسرى المستمر.....
جنىف..... جون كالفن

نعود الآن إلى التيار الثانى الرئيسى لحركة الإصلاح الذى بدأه زوينجلى فى زيورخ. فشل توحيد هذين التيارين فى «ماربورج» يحدد خطأ فاصلاً فى تاريخ الكنيسة البروتستانتية لأنهما يبقيان منفصلتين حتى فى هذا العصر المسكونى. هذا التيار الثانى المعروف بالتيار «الإصلاحى» تمييزاً له عن «اللوثرى» يتقدم عبر هولندا إلى إنجلترا واسكتلندا وأخيراً إلى أمريكا. أسرة الكنائس المشيخية ترجع أصولها إلى هذه التعاليم «المصلحة» التى هى جزء من حركة الإصلاح ككل. أولريخ زوينجلى كان مؤسسها، لكن الإنسان الذى طور أوسع طاقاتها كان المصلح الفرنسى جون كالفن الذى هرب من فرنسا ليقوم بعمله العظيم فى جنيف بسويسرا.

يلزم أن يكون القارئ على علم بكتابين فى اللغة العربية عن كالفن: الأول «أحاديث مع كالفن» للدكتور لبيب مشرقى. والثانى «مصلح فى المنفى» للدكتور «هارى إيبيرت Harry Eberts». وقد ظهر حديثاً كتاب جديد عن جون كالفن من تأليف الدكتور حنا جرجس الخضرى.

أولاً: حياة كالفن المبكرة وتعليمه قبل جنيف

طفولة كالفن وتعليمه المبكر

ولد جون كالفن فى يوم ١٠ يوليو سنة ١٥٠٩ فى مدينة «نويون Noyon» على بعد حوالى ٩٠ كم شمالى باريس. أبوه «جيرارد Gerard» كان سكرتيراً للأسقف وكان يشغل أيضاً وظائف هامة أخرى فى المدينة. أمه كانت أيضاً من عائلة مرموقة لكنها ماتت لما كان جون طفلاً صغيراً. أسرة كالفن كانت قريبة جداً من أسرة «هانجست Hangest»، التى كان لها تأثيرها فى الكنيسة والمدينة. فى سن مبكرة حصل «جيرارد» لابنه «جون» على وظيفة كنسية أمدته بدخل سنوى. والشخص الذى كان يتلقى دخلاً من الكنيسة ينتظر منه تأدية خدمة للكنيسة، لكن هذا لم يكن يعنى أنه رسم لمنصب إكليريكى. فى وقت لاحق حصل كالفن على

وظيفة كهنوتية ثانية، لكنه تخلى عن هذه وعن الأولى لما انهمك في حركة الإصلاح. الأب أدخل جون وأخويه في مدرسة محترمة في «نويون» بقصد أن يلتحق أبناؤه بسلك الكهنوت. سرعان ما اتضح أن جون كان موهوباً. كتب أحد معاصريه يقول: «لقد تفوق على التلاميذ الآخرين، شكراً لذكائه السريع وذاكرته الممتازة»^(١).

كالفن يدرس في باريس

في سنة ١٥٢١، وعمره ١٢ سنة، أرسل جون إلى الجامعة في باريس ليبدأ مقررأ في الآداب وبعده علم اللاهوت. في الواقع كانت فرصة الدراسة الأولى مخصصة بالكامل للتفوق في اللغة اللاتينية استعداداً للدراسات اللاهوتية. كانت اللاتينية مازالت هي اللغة التي تتم فيها الدراسات العليا. وكان كالفن محظوظاً بأن يجد أحد المدرسين العظام في زمانه «ماثورين كورديير Mathurin Cordier» الذي ألحقه لدراسة هذه اللغة. وهذا قد يوضح سبب أسلوبه المصقول في اللغة اللاتينية. في سنوات لاحقة خصص كالفن كتاباً اعترافاً بجميل أستاذه «كورديير». بعد استكمال مقرر اللاتيني نقل كالفن إلى مدرسة أخرى لقسم الآداب في «مونتاجو Montaigu»، وهي مدرسة شديدة التحفظ تدير على نظام الدير. فالطعام محدود، والعقوبة عن أي خطأ صارمة، والمنتظر أن ينقل الطلبة أخبار بعضهم البعض. من هنا اكتسب كالفن سمعة كونه قاسياً على زملائه. يبدو أنه كان أيضاً قاسياً على نفسه، ينهمك في الدراسة حتى ساعة متأخرة من الليل، ثم يستيقظ في الصباح مراجعاً دروسه. يظن أن مثل هذه الدراسات جلبت عليه ضعف الجسد، الأمر الذي كان له تأثير عليه في سنواته الأخيرة، وربما كان السبب في موته المبكر. كالفن الشاب انتقل بعدئذ إلى دراسات البكالوريوس وأخيراً

(1) Parker, T.H.L., John Calvin, A Biography, Westminster, Phila. 1975, p. 3

الماجستير. منهج الدراسة اشتمل على قراءة العلوم اللاتينية ثم الدخول في حوارات عنيفة مع المدرسين والطلبة، إما تأييداً أو ضد بعض النقاط. دراسات الفلسفة اللاهوتية للقرون الوسطى سيطرت على هذه المقررات مع التعبير المكثف على أرسطوطاليس. من المحتمل أن كالفن تعرض أيضاً لفلسفة «أوكهام».

كالفن يدرس القانون في أورليانز Orleans

بعد أن أكمل كالفن دراسته لدرجة الماجستير رأى أبوه أن القانون أفضل له في مسيرة حياته. وربما لأنه يجلب دخلاً أكثر (اللاهوت والقانون والطب كانت العلوم الثلاثة الرئيسية الجامعية). تحول إلى أورليانز إلى الجنوب من باريس. حقيقة كونه يدرس الآن القانون لا تبعده بالضرورة عن الإكليروس. وأن يرسم المحامى قساً كان أمراً عادياً جداً في تلك الأيام. هذا بالإضافة إلى أن دراسة القانون مرتبطة عن قرب باللاهوت، في الواقع كل العلوم الأكاديمية الأخرى كانت مبنية على علم اللاهوت، «سيد العلوم» مرة أخرى تميز كالفن بتفوقه على غيره. زميله «بيزا Beza» وأول من كتب سيرة حياته قال عنه: «في فترة وجيزة لم يعتبر تلميذاً طالب علم، بل كواحد من الأساتذة. وكان في معظم الأحيان معلماً أكثر منه سامعاً.⁽¹⁾ إنها أيضاً «أورليانز» التي طور فيها صداقاته التي أثرت عليه في توجيه «النزعة الإنسانية للإصلاح»، أحد الأصدقاء ويدعى «أوليفيتان Oliveton»، يُنسب له فضل تجديد كالفن طبقاً لقول بيزا «Beza» لكن هذا غير مؤكد. صديق آخر اسمه ميلكيور وولمان «Melchior Wolman»، والذي كان كالفن معترفاً بفضله على الدوام لأنه علمه اللغة اليونانية. يجب أن نتذكر أن اليونانية في تلك الأيام كانت لغة مشبوهة جداً ومرتبطة عن قرب بالهرطقة. بعد ظهور ترجمة ايرازموس للعهد الجديد باليونانية كتب عالم كاثوليكي: «نحن نجد الآن لغة جديدة اسمها «جريج» أي اليونانية. يجب أن نتحاشاها بأي ثمن لأن هذه اللغة تتولد منها

(1) Op. cit. p. 16

الهرطقات. احترسوا بصفة خاصة من «العهد الجديد باليونانية، إنه كتاب مليء بالأشواك والوخزات». (١)

كالفن يواصل دراساته في «بورجز Bourges»

عندما بلغ كالفن سن العشرين كان قد دخل مرحلة جديدة من نموه العقلي والروحي. فقد افتتحت مدرسة جديدة في «بورجز Bourges» غير بعيدة من أورليانز حيث كان يحاضر عالم إيطالي شهير «الشيأتى Alciate». فذهب كالفن وأصدقائه إلى هناك حيث مكثوا ١٨ شهراً. ليس واضحاً كم تأثر كالفن من «الشيأتى»، لكنه واصل دراسته لليونانية مع «وولر». وألقى محاضرات في البلاغة وبدأ يبشر في بعض الكنائس المحلية، أثناء هذه الفترة كان لوثر وزوينجلى في معمرة النزاع حول الأفخارستيا. جازز جداً أن كالفن أخذ علماً بمحاضرة لوثر عن «السبى البابلى». علاوة على ذلك فإن اهتماماته الزائدة بالنزعة الإنسانية قادتة إلى إصدار كتابه الأول وهو تفسير كتاب لكاتب روماني «سينيكا Seneca» (القرن الأول للسنة الميلادية).

تعليق كالفن على كتابة سينيكا

يلزم أن نقدر أهمية المؤلفين اللاتين لعلماء القرن السادس عشر. فمع أن كتاباً أمثال «فرجيل وهوراسى وسينيكا» لم يكونوا مسيحيين فإنه عن طريقهم درست الفلسفة والبلاغة والمنطق والخلق في عالم الجامعات في زمن كالفن. سبق أن كتب ايرازموس تعليقاً على نفس أعمال سينيكا وتحدى الآخرين أن يفعلوا مثله. كالفن كان يقبل ذلك التحدى. إنه أيضاً لابد رأى الكثير في شخص سينيكا الذى ذكره بأهمية النظام والزهد بالنسبة للحياة المسيحية. كان سينيكا يكتب في عهد

(1) Ibid, p. 21

الإمبراطور الروماني نيرون (القرن الأول المسيحي) ملتماً منه الإحسان والتسامح مع رعاياه. كالفن لم يقبل فقط تعليم سينيكا بل كتب تحليلاً انتقادياً لكل الكتاب. تتميز كتابة كالفن بغزارة العلم ودقة المعرفة وبراعة مشهورة. أشار إلى مراجع عديدة عن مؤلفين كلاسيكيين آخرين وعن القديس أوغسطينوس ومن الكتاب المقدس. إذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن هذا المجهود ضمن له شهرة ممتازة بين علماء النزعة الإنسانية في زمانه.

تدريب كالفن في النزعة الإنسانية

تكشف دراسة طريقة كالفن التفسيرية بالنسبة للأسفار المقدسة كم كان مديناً لهذا التدريب المبكر في النزعة الإنسانية. مع أنه انتقد الفلاسفة الوثنيين في مناسبات عديدة، إلا أننا نلمس كيف أن أساليبهم كانت نافعة له، وأنه كان يحترم مبادئهم. في هذا المجال يتذكر المرء ملاحظة أوريجانوس بأن الفلسفة اليونانية كانت على نحو، المعلم المدرس الذي قاده إلى الحق الأعلى في الكتاب المقدس. هكذا كان الحال مع كالفن والنزعة الإنسانية في عصره. كما قال عنه «سيبرج-See-berg». «ثقافة النزعة الإنسانية لم تكن فقط في عيني كالفن مصباحاً يحمل نور الإنجيل، بل بالرغم من تمسكه الشديد بأقوال الكتاب، كانت عقليته (الإنسانية) على درجة ما متناسقة مع الإنجيل. التكوين العقلي مع الدين. الثقافة مع الفضيلة، كلها سارت معه في اتحاد وارتباط».⁽¹⁾ مع ذلك، على كثرة ما كان كالفن يشير إلى الفلاسفة بل ويستشهد بهم في كتاباته الدينية اللاحقة إلا أنه كان دائماً حريصاً على التمييز بينهم وبين أقوال «الكتاب»: حينما نقرأ ديموستين أو شيشرون أو أفلاطون أو أرسطوطاليس، فإنني حقاً أعترف بأنهم يجذبون القارئ

(1) Quoted by Wendel, Francois, Calvin, (English translation by Phiip Maret, 1963, Collins) p. 33

بشكل عجيب، يبهجوننا ويهزوننا بل يخلبون عقولنا، لكن إذا تحولنا عنهم إلى قراءة الأسفار المقدسة، فإنها، سواء أردنا أو لم نرد، تنفذ فينا حتى القلب وتثبت نفسها في داخلنا لدرجة أن قوة أصحاب البلاغة والفلاسفة - بالمقارنة معها - لا تبدو أكثر من دخان في الهواء «أنظمة الدين المسيحي Institutes: 181»^(١) مؤرخ آخر اسمه «نيورهاس Neurhas» قال: «في أثناء امتصاصه لكل عناصر الثقافة الإنسانية» حاول كالفن استخدامهما في خدمة عقيدته، وتحاشى الأخطار التي قد تنجم عنها. الروح الهيليني (أى الإنسانى) ذبل شيئاً فشيئاً أمام الروح المسيحي، ومع ذلك احتفظ كالفن حتى الآخر بسمعة العالم الممتاز صاحب النزعة الإنسانية.^(٢)

اهتداء كالفن

فى وقت ما بين سنتى ١٥٣١، ١٥٣٤ حصل كالفن على اختبار اهتداء. ولأن كالفن - خلافاً للوثر - كان مقتصداً جداً فى تقديم تفصيلات عن حياته الخاصة صار من المستحيل تحديد وقت ومكان هذا الحدث بالضبط. لكن من الواضح خلال هذه الفترة أن شيئاً ما حدث ليغير المسار الكلى لحياته. إنه يسجل ذلك سنة ١٥٥٧ فى تفسيره لسفر المزامير حيث قال: «كنت بعناد مولعاً بخرافات البابوية... لدرجة لم أستطع معها أن أنتشل نفسى بسهولة من هوة بهذا العمق. عندئذ، فى محاوره مفاجئة معه، غير الله قلبى وشكله فى اتجاه أن أكون أكثر قبولاً ووعياً. وإذ تلقيت شيئاً من مذاق التقوى الحقيقية وإشارتها استنرت لدرجة التحمس لها، ومع أنى لم أضع جانباً كل دراساتى الأخرى على الاستنارة، فإنى تعقبتها بصورة غير منتظمة. لكنى اندهشت أن أكتشف فى مدى سنة، أن كل

(1) Ibid, p. 34

(2) Ibid

الذين من حولى المشتاقين فى قلوبهم قبلى إلى المذهب النقى، أتوا إلى طلباً للمعونة، حتى مع كونى أنا نفسى مهتدياً حديث الخبرة، وبالرغم من رغبتى الدائمة فى حياة العزلة والتقاعد، حركنى الله وحولنى عن طريق جملة اختبارات، ولم يتركنى قط فى سلام فى أى مكان، حتى أحضرنى - بعكس ميولى الطبيعية - فى اتجاه الاستنارة، وهكذا دفعنى إلى التسليم الشامل. ^(١) توجد أقوال مشابهة فى رسالة كالفن إلى «سادوليت Sadolet» فى سنة ١٥٣٩ التى تشير إلى نفس الاختبار.

الفرق بين كالفن ولوثر

لعلنا نلاحظ هنا فرقاً بين اختبار كالفن واختبار لوثر. إن صراع لوثر كان متصلاً بطريقة الخلاص ولهفة الروح للتأكد من التبرير أمام الله. كان كالفن محزوناً مما لمسه من فشل واضح للكنيسة فى زمانه. كان اهتمامه لأجل «ديانة حقيقية» ولم يستطع أن يجدها فى وسط الممارسات الوثنية للكنيسة الرومانية. كما كتب فى مؤلفه: «أنظمة الدين المسيحى Institutes v, OSI, 215» «لأن الشخص يجب أن يكون قاسياً وبلا رافة ليتمكن من رؤية الكنيسة بأعين جافة فى زماننا، لكن أى شخص يستطيع أن يشفيها ويفشل فى ذلك، مثل هذا الشخص يكون تجسيداً لوحشية الإنسان. ^(٢)

خطاب «نيقولاكوب» الهرطوقى

لم يكن الجو فى فرنسا مناهضاً تماماً للإنجيليين. أخت الملك فرنسيس الأول

(1) Quoted by Potter, G.R. and Greengrass, M., John Calvin, in Documents of Modern History, Edward Arnold, London, 1983, p. 11

(2) Quoted by Iserloh, op. cit. Vol. V, p. 365

«مرجريت» أميرة «أنجوليم» وفيما بعد ملكة «نافارى Navarre»، «حماها الملك من الذين نقدوا كتابتها البروتستانتية. Lefevre d'etables»، لافيفر ديتابل وآخرون على شاكلته الذين دافعوا عن الإصلاح المعتدل كانوا يتمتعون بالحظوة الملكية. لكن نيقولاكوب عميد جامعة باريس، وأنجيلي ثابت انتهز فرصة بداية العام الأكاديمي في سنة ١٥٣٣ وألقى عظة عن التطويب، «طوبى للمساكين بالروح». كانت هجوماً مباشراً على فلسفة القرون الوسطى اللاهوتية يومئذ: «إنهم لا يعلمون شيئاً عن الإيمان، لاشيء عن محبة الله، لاشيء عن مغفرة الخطايا، لاشيء عن النعمة، لاشيء عن التبشير، أو إذا فعلوا ذلك حرفوه وخربوه كله بقوانينهم ومغالطاتهم. إنى أرجوكم أيها الحاضرون هنا أن لا تتساهلوا بعد الآن مع هذه الهرطقات والانتهاكات.^(١) الدراسات العليا حالياً لم تعد تؤيد الرأي بأن كالفن كتب هذا الخطاب. في الواقع أجزاء منه تنسب إلى ايرازموس ولوثر. على كل حال، كلمات «كوب» أعلنوها هرطقة، وبالكذد أمكنه الهروب من القبض عليه بالفرار إلى «باسيل». ولأن كالفن متورط بسبب صداقته الوثيقة مع «كوب» هرب هو الآخر. نُهبت غرفته وأوراقه صودرت.

كالفن هارباً

عندئذ بدأت مع كالفن فترة هروب من المسؤولين الذين استعدوا لمحو الهرطقات «اللوثرية». استطاع أن يجد ملجأ في «أنجوليم Angouleme»، بحميه الأصدقاء، وربما الأميرة مارجريت. مع الاقتراب إلى حرية أوسع افترضوا أن هذا هو المكان الذي بدأ يكتب فيه أول نسخة من كتابه العظيم «أنظمة الدين المسيحي»^(٢) ثم ذهب إلى نويون «Noyon» حيث تخلص عن وظيفته الكنسية التي سبق أن رتبها له أبوه (الذي مات سنة ١٥٣١). هذا أزاح عنه صلته الرسمية والتزامه نحو

(1) Quoted by Schaff, op. cit. Vol. V111, p. 318

(٢) مجموعة «أنظمة الدين المسيحي» أعدت لتصبح المرجع الأساسي للإصلاح. كالفن باستمرار كان يراجع هذا العمل ونشر منه على الأقل أربع طبعات.

الكنيسة وحرره لكى يلاحق مسيرة المصلح التى كان قد بدأها من قبل.

مسألة لوحات الإعلانات ونفى كالفن من باريس

حدثت بعد ذلك حكاية لوحات الإعلانات التى علق فيها المتطرفون البروتستانت ملصقات فى بعض المدن الكبرى ومنها باريس. أعلنوا فى الملصقات أن خدمة القديس كانت انتهاكاً مربعاً وغير محتملة وتتعارض مباشرة مع عشاء الرب المقدس. على الفور تصرفت الحكومة. بلغ عدد المقبوض عليهم مائتين والذين أعدموا كهرباطقة عشرين على الأقل. كان أحدهم صديقاً لكالفن اسمه «ايتيين دى لافورج Etienne de la Forge»، وهو تاجر عاش معه فى باريس. صدر مرسوم ملكى ضد اللوثرين. كالفن وأحد أصدقائه هربا فوراً إلى بازل حيث وصلا فى يناير سنة ١٥٣٥. هناك وجد ايرازموس، وبولينجر (خليفة زوينجلي) وفاريل، وكوب وآخرين من قادة الإصلاح. أثناء إقامته فى بازل ساعد صديقه القديم «اوليفيتان» فى الترجمة الفرنسية للكتاب المقدس. إنه بالتأكيد واصل العمل فى كتابه «الأنظمة» الذى نشر فى بازل سنة ١٥٣٦.

كالفن إلى إيطاليا ثم إلى جنيف

عندئذ شد كالفن الرحال إلى إيطاليا حيث قضى بعض الوقت فى بلاط «فيرارا»، سيدة فرنسية كانت متعاطفة مع الإصلاح ورحبت باللاجئين إلى بيتها. لكن مرة أخرى كان الجو هنا معاكساً مما جعل كالفن يغادر المكان. عاد باختصار إلى فرنسا لتسوية أمور عائلية. بعد ذلك عزم على الذهاب إلى استراسبورج. لكن بسبب الحرب بين فرنسيس الأول وشارل الخامس اضطر للسفر عن طريق جنيف. لم يكن فى نية كالفن البقاء فى جنيف لكن «العناية» كانت قد قررت شيئاً آخر. هذه

كانت المدينة التي قام «جيلوم فاريل»^(١) بجهد كبير لتحويلها نحو الإصلاح. ولما سمع فاريل بحضور كالفن إلى هناك، سعى إليه وبذل كل جهد لإقناعه بالبقاء. بل هو هدده بلعنه. ويحكى كالفن عن هذه الحادثة في مقدمته لتفسير المزامير: «لما كان أفضل طريق مباشر إلى ستراسبورج مغلقاً بسبب الحروب، عقدت النية على المرور بسرعة على جنيف دون انتظار أكثر من ليلة واحدة في تلك المدينة... عندئذ اكتشفني شخص وجعلني معروفاً للآخرين (هذا الشخص ارتد الآن ورجع إلى البابويين). لهذا السبب فإن «فاريل» الذي اشتعل بحماس غير عادي ليقدم الإنجيل، بذل كل جهده ليستبقيني. وبعد أن علم أن قلبي كان مصمماً على تكريس نفسي للدراسات الخاصة، التي من أجلها رغبت في أن أحفظ نفسي من الضغوط الأخرى، ولما وجد أنه لم يكسب شيئاً بالتوسلات، شرع في التفوه بالسباب بأن يلعن الله عزلتى ويلعن الاطمئنان في دراساتي التي أنشدها، إذا انسحبت ورفضت المساعدة في وقت الضرورة الملحة. بهذا الدعاء على الشر انخلعت رعباً لدرجة أنى تخلّيت عن الرحلة التي التزمت بها، لكن لإحساسي بخجلي الطبيعي وتهيبى لم أشاء أن أربط نفسي بوظيفة معينة.^(٢)

(١) كان فاريل مصلحاً من فرنسا، تأثر أولاً بـ «دى تابل»: طُرد من فرنسا وبدأ التبشير في سويسرا. «فاريل» كان له تأثير في قبول جنيف الإصلاح في سنة ١٥٣٥

(2) Quoted by Parker, op.cit. p. 53

Recommended English Readings

1. Grimm, Harold J **The Reformation Era, 1500-1650, pp. 255-261**
2. Harkness, Georgia, **John Calvin, the Man and His Ethics, Henry Holt and Co. New York, 1931, pp. 3-8**
3. Iserloh, Erwin, **History of the Church, Vol V, pp. 255-261**
4. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550, pp. 352-358**
5. Parker, T.H.L., **John Calvin: A Biography, Westminster Press, Philadelphia, 1975, pp. 1-33**
6. Potter, G.R. & **John Calvin, Edward Arnold, London, 1983, pp. 1-12**
Greengrass, M.,
7. Schaff, Philip, **History of the Christian Church, Vol. V111, pp. 296-346**
8. Walker, Williston, **A History of the Christian Church, pp. 348-350**
9. Wendel, Francois, **Calvin, (translated by Philip Mairet), Collins, London, 1963, pp. 15-45**

ثانياً: فترة جنيف الأولى والنفي في استراسبورج

سنة ١٥٣٦ - ١٥٤١

(أ) جنيف أمام كالفن

الكاثوليك يطردون من جنيف

من الضروري أن نوضح جانباً من تاريخ جنيف السابق على وصول كالفن. كانت المدينة القابعة في قلب الركن الجنوبي الغربي لسويسرا وقريبة جداً من فرنسا، غير مستقرة سياسياً. في سنة ١٥٣٠ كان يحكم جنيف دوق سافوى الكاثوليكي لكن كثيرين من المواطنين كانوا بروتستانت. مدينة «بيرن» البروتستانتية في الشمال كانت مهتمة بجلب الإصلاح إلى جنيف وطرد الكاثوليك. كنتيجة لعوامل سياسية أخرى أرغم دوق سافوى على التخلي عن أطماعه السياسية نحو جنيف. «جيلوم فاريل Guillaume Farel، المصلح الفرنسي الذي بذل الكثير لكي يريح «بيرن» للإصلاح، وصل إلى جنيف في سنة ١٥٣٢. بدأ يبشر وفعل الكثير لإثارة الشعب ضد الإكليروس الرومان. وفي سنة ١٥٣٣ أقيمت أول خدمة للعشاء الرباني حسب النظام البروتستانتى. وفي سنة ١٥٣٤ أرغم الأسقف الكاثوليكي على المغادرة. الراهبات والرهبان بدأوا الارتحال وصودرت الأديرة، وتحول دير للراهبات إلى مستشفى.

التركيب السياسى فى جنيف

جنيف كمدينة مستقلة (فى ذلك الوقت لم تكن فى سويسرا حكومة مركزية) كانت تحكمها فرق عديدة وعلى رأسها فرقة من أربعة إداريين كبار من الذين كانوا أيضاً أعضاء فى مجلس صغير مكون من ٢٥ عضواً. ثم كان هناك مجلس من ٦٠ عضواً يعينهم المجلس الصغير. ومجلس المائتين كان يتم تعيينه أيضاً

بواسطة المجلس الصغير، لكن المائتين كان لهم حق ترشيح أعضاء للمجلس الصغير. أيضاً كان هناك محفل عام من كل المواطنين لكن نادراً ما كان يؤخذ برأيه. المجلس الصغير بالإداريين الأربعة كان الفريق الأقوى وعموماً باشر قيادة الحياة السياسية لجنيف، هذه كانت البيئة التي نشأ منها الإصلاح في جنيف. بدون الدعم العلني من المجالس لم يكن في استطاعة فاريل وأصدقائه أن ينجحوا مطلقاً. هذا يذكرنا مرة أخرى كم كانت العلاقة متبادلة عن قرب بين السياسة والدين أثناء الإصلاح. إن القيادة السياسية والدينية في جنيف عملت جنباً إلى جنب لتريح الحريتين الدينية والسياسية معاً، كانت هذه هي الفرصة التي قبلت فيها المدينة شعارها «Post Tenbras Lux». «بعد الظلام النور».

جنيف تصبح بروتستانتية

بحلول أغسطس سنة ١٥٣٥ ألغيت خدمة القديس في المدينة. في ٢١ مايو سنة ١٥٣٦ دُعي المحفل العام (حوالي ألف شخص لهم حق الاقتراع) للاجتماع ووافقوا بالإجماع على الآتي: «أن يعيشوا كما يحق للإنجيل وكلمة الله... وأن يتخلوا عن كل خدمات القديس والشعائر البابوية والانتهاكات الأخرى مثل الصور والتماثيل وكل ما ينطوي عليه هذا العمل لكي يعيشوا في اتحاد وطاعة العدل»^(١).

نظام فاريل

جيلوم فاريل، الذي كان وقتئذ المسئول الرئيسي، حث المجلس الصغير أن يفرض نظاماً صارماً على كل المدينة. فاللعب والرقص والأغاني العالمية كانت محظورة. ويعاقب الناس على لعب القمار والتجديف. بيع الخمر كان منضبطاً.

(1) Quoted by W. Fred Graham, *The Constructive Revolutionary*, John Calvin, John Knox, Richmond, Virginia, 1971, p. 35

كل المواطنين كانوا ملزمين أن يحضروا الخدمات الوعظية. ثم يأتى هذا المثال للنظام الإصلاحى. «أحد المواطنين الذى كان عضواً فى المجلس الصغير قبل أن تصبح جنيف بروتستانتية رفض أن يحضر خدمة الوعظ حسب الأوامر. ولما سئل عن السبب قال، إنه كان مستعداً أن يسمع كلمة الله لكن ليس من هؤلاء الوعاظ. فلما هددوه بالطرد من المدينة رضح للأمر. وفى وقت لاحق أمره أن يقول إن خدمة القداس شىء ردىء. فأجاب أنا غير قادر على التمييز لكن بما أن المجلس الصغير والمجلس العظيم (٢٠٠) يقولون إن خدمة القداس شىء سىء أقول إنها شىء سىء. وأنا أسوأ من يحكم بجسارة عما أجهله وأصرخ إلى الله أن يرحمنى وأنبذ الشيطان وكل أعماله، أخيراً سُمح للرجل أن يمكث فى جنيف فقط بشرط أن يقر بوضوح وجهاً أن خدمة القداس سيئة. (١)

كالفن فى جنيف

كانت هناك أوجه عديدة إيجابية لحركة إصلاح فاريل، خصوصاً تأسيس التعليم الإيجابى المجانى، لكنه لم يكن رجل التنظيم. كان مبشراً مهاجماً لا يخشى شيئاً لكنه غالباً لا يتروى فى هجماته. أدرك أنه لم يكن على مستوى المهمة الباقية لدعم المكاسب التى توصل إليها وتوحيد المدينة تحت علم الإصلاح. وعند هذه النقطة ظهر كالفن فى سنة ١٥٣٦. يجب أن نسجل فضل فاريل لتسليمه بأن كالفن كان الرجل المناسب للزمان والمكان، وأيضاً لاستعداده أن يسلم الرجل الأصغر منه سناً قيادة حركة الإصلاح فى جنيف.

(1) Harkness, Georgia, John Calvin, The Man and His Ethics, Henry Holt and Co., New York, 1931, p. 18

(ب) كالفن فى جنيف ١٥٣٦ - ١٥٣٨

كالفن راعياً

الواجبات الأولى لكالفن فى جنيف كانت فى أغلبها رعوية. دعى «قارئاً للكتب المقدسة» وأيضاً واعظاً. بالإضافة إلى تأديته خدمات العبادة المنتظمة، فى كاتدرائية القديس بطرس قام بالمراسم الدينية فى الزيجات والجنائزات، عمّد الأطفال وأخذ على عاتقه كل التزامات الراعى العادية. ولما التجأ فاريل إلى المجلس الصغير طالباً تقرير مرتب لكالفن، ظهر أنه بالكّد كان معروفاً فى المدينة. إنه مسجل فى وقائع جلسات المجلس، ليس بالاسم، بل «ذلك الفرنسى».

كالفن يوسع النظام فى جنيف

على أى حال، كان كالفن منشغلاً بالمهمة التى لم يتم إنجازها لتنظيم المدينة. إنه مع فاريل قدم مذكرة إلى المجلس بقصد التوسع فى اللوائح السابق العمل بها. هذه المذكرة أكدت على الحضور شهرياً فى خدمة العشاء الربانى، وتأسيس جهاز للتفتيش على مراقبة السلوك، والتمسك بقانون الإيمان المصلح وتعليم الشباب بطريقة السؤال والجواب.

كالفن يفضل خدمة العشاء أسبوعياً

جدير بالملاحظة هنا، كم كان مهماً عند كالفن أن يحافظ على خدمة عشاء الرب. قال، «من المؤكد أن شعب أى كنيسة لا يمكن اعتباره جيد التنظيم والقيادة إذا لم يحتفل بعشاء الرب المقدس مراراً عديدة ويتم تناوله فيها». ^(١) وفى مناسبة أخرى قال: بسبب المكاسب التى تعود على المؤمنين الذين بذلك يشاركون حقاً فى جسد المسيح ودمه، فى موته وحياته، وروحه وكل عطاياه، يجب أن يقدم العشاء

(1) Quoted by Iserloh, p. 366

كل يوم أحد كإظهار استحقاق الحمد والشكر لعجائب وعطايا النعمة الإلهية، وتشجيعاً لحياة مسيحية فى سلام وفى اتحاد جسد المسيح. لأن يسوع لم يسن هذه الفريضة المقدسة لكى نقيمها مرتين أو ثلاث مرات فى السنة كوجبة للذكرى بل لكى نقوى ونغرس إيماننا ومحبتنا عن طريق تقديمها مراراً عديدة. (١)

العشاء أربع مرات سنوياً

لم يرد مجلس جنيف الصغير بالموافقة على هذه الفكرة لذلك اتفق كالفن على وجوب تقديم العشاء مرة كل شهر، لكن قرار المجلس أخيراً هو أن تقدم مائدة العشاء أربع مرات سنوياً. وأصبحت الممارسة بهذه الطريقة بعد ذلك لكنائس مصلحة عديدة.

الاهتمام بحياة الشعب الروحية

تأكيد كالفن على النظام فى الكنيسة نشأ من اهتمامه بحياة وأرواح الشعب. قال: «نحن بالتأكيد لا نعتبر وظيفتنا مقيدة فى حدود ضيقة حتى اننا نشعر بالراحة حين ننتهى من اللقاء الموعظة وكأن واجبنا قد انتهى. إن أولئك الذين دمهم مطلوب منا، إذا ضلوا بسبب تكاسلنا، ينبغى العناية بهم عن قرب أكثر وحذر شديد. (٢)

البروتستانت فقط مسموح لهم بالبقاء فى جنيف

فضلاً عن ذلك، كان يجاهد ليجعل تمييزاً واضحاً بين البروتستانتى والكاثوليكى: «كل السكان كان يجب غريبتهم باختبار إقرار الإيمان. تقريباً كان من المستحيل أن يعدل الشخص بين البروتستانتية والكاثوليكية وعزم كالفن على

(1) Ibid, p. 367

(2) Williston Walker, John Calvin, Schocken Books, New York, 1969, p. 191

وجوب أن يكون الحياد مستحيلاً تماماً. كل السكان الذين قبلوا الجانب الإنجيلي، كان يحق قبولهم أعضاء في كنيسة جنيف. ^(١) كل الآخرين وجب طردهم من المدينة (عملياً سبقت سلطات جنيف واتخذت هذا الموقف).

استقلال الكنيسة عن الحكومة

الصعوبات الأكثر خطورة أمام كالفن ظهرت في محاولته إنجاز الهدف الأكبر لنظام كنسى مستقل. اعتقد أن كنائس أخرى مصلحة كانت معتمدة أكثر من اللازم على السلطات المدنية. في رأيه أن حرية وكرامة الكنيسة تعتمد على انفصال واضح بين السلطات العالمية والسلطات المقدسة. إنها الكنيسة التي يجب أن تحكم على أخلاق أعضائها وتصدر القانون بالعقوبات المناسبة. الجناح المدني يمكن أن يتعاون بل حتى ينفذ الأحكام لكن فقط بأمر الكنيسة. لقد تخيل ولو بصورة غامضة التأسيس النهائي للمجتمع المسيحي ذي الضمير الحى - مثال الدولة «البيوريتانية Puritan State» هنا تكمن شدة الصراع الذى كان على كالفن أن يغامر به طول حياته.

بيير كارولى Pierre Caroli يهاجم كالفن

فى وسط هذه الجهود أصبح كالفن وفاريل متورطين فى مشكلة تتعلق بلوزان المجاورة. كان شخص يدعى بيير كارولى متذبذباً بين الكاثوليكية والبروتستانتية لكنه وقتئذ كان بروتستانتيًا. هذا الشخص تعين راعياً لكنيسة لوزان. واحتج كالفن وفاريل لأنهما كانا يفضلان شخصاً آخر. وعلم أن كارولى كان مدافعاً عن الصلاة لأجل الموتى. وفيما كان كالفن يستمع فى لوزان اتهم كارولى بالأريوسية، وطلب بعد ذلك أن يُوقع كالفن على أقدم قوانين الإيمان، قانون الإيمان الرسولى،

(1) Ibid, p. 189

والنيقوى والأثناسيوسى. رفض كالفن قائلاً إنه يعتقد أن القانون الأثناسيوسى يحتوى على تقليد أكثر من الكتب المقدسة. فى نهاية المناقشات نال كالفن وفاريل التأييد، وعزل كارولى من منصبه وحرموه من ممارسة الوعظ. ومع أن كالفن مر بأمان من هذه الأزمة، إلا أنها كانت تعطيلًا خطيراً لمساعدته فى جنيف.

مشكلة كالفن فى تنفيذ النظام

أثناء ذلك كانت تزداد المعارضة لكالفن وفاريل فى جنيف. جانباً من هذه المعارضة ربما لكونهما فرنسيين أجنبيين. وبعضها يتعلق بالفرق بينهما وبين البروتستانت فى «بيرن». القادة فى بيرن الذين أرادوا توحيد الممارسة الدينية فى ذلك الجزء من سويسرا، اقترحوا استخدام «حوض المعمودية»، والخبز الخالى من الخميرة فى «العشاء الربانى». والاحتفال ببعض الأعياد مثل الميلاد والقيامة. هذه كانت أشياء ثانوية فى حد ذاتها، لكن لما اقترح مجلس المائتين فى جنيف لصالح تطبيق ممارسات كنيسة بيرن وقف كالفن وفاريل ضدها. علاوة على ذلك واجه المصلحان صعوبة متزايدة فى اقناع المجالس بأن يوقع جميع المواطنين على قانون الإيمان. أفراد الشعب أمروا أن يجتمعوا فى كنيسة القديس بطرس ويوقعوا، لكن الكثيرين رفضوا. كانت المجالس متفقة فى المبدأ مع كالفن وفاريل، لكنها أيضاً أمرت بعدم رفض أى إنسان من المشاركة فى تناول عشاء الرب. هذه كانت وسيلة التنفيذ للتوقيع على القانون.

كالفن وفاريل يطردان من جنيف

بحلول سنة ١٥٣٨ حدثت تغييرات سياسية فى المجالس جاءت بأناس فى مركز قوة، ومعارضين للمصلحين. بموجب أمر من مجلس المائتين صار محظوراً على كالفن وفاريل «أن يشاركا فى السياسة، لكن فقط يكرزان بالإنجيل كما أمر الله». علاوة على ذلك اقترح المجلس «على الخضوع لكلمة الله بحسب اللوائح

التي وضعها سادة بيرن». هذه كانت ضربة مباشرة لطموح كالفن في الحصول على الاستقلال لجنيف. تحت ضغط متزايد من بيرن ومجالس جنيف ظلا في مكانهما. أمرا بأن يراعى تطبيق احتفالات وأعياد بيرن، ورفضاً. عندئذ منعوهما من ممارسة التبشير وقابلا ذلك بالتحدي. كلا الرجلين وعظا في يوم أحد القيامة، لكنهما لم يقدموا خدمة «العشاء» لأن هذا العمل في جو الشغب والتوتر «يدنس السر المقدس». فاجتمعت المجالس فوراً. وبأغلبية أصوات المحفل العام صدر الأمر إلى كالفن وفاريل أن يغادرا جنيف في ظرف ثلاثة أيام. وكان رد الفعل من كالفن قوله، حسناً، حقاً، لو كنا خدمنا البشر لكانت مجازاتنا سيئة لكننا نخدم سيدياً عظيماً سوف يكافئنا ^(١) كان ذلك في يوم ٢٣ إبريل سنة ١٥٣٨.

شعب جنيف ينقلب ضد كالفن وفاريل

التجأ المصلحان إلى بيرن وزبورخ حيث كان السنودس مجتمعاً ووجدوا تعاطفاً ودعماً من كلتا الجهتين لكن مجالس جنيف رفضت الاستماع إلى أي وساطة. في الواقع كان الجو في جنيف من نحوهما لا يُطاق. كان الناس يرددون أغاني ساخرة ويطلقون النار أمام بيتهما. بل هددوا بالقائهما في نهر الرون. قال كالفن فيما بعد لأصدقائه: يمكن أن تتخيلوا كيف أدهشتني هذه الأشياء كطالب علم مسكين خجول مثلي. ^(٢)

كالفن يسلم بأخطائه

يمكن القول بأن كالفن ما كان ليفشل في جنيف، لو أنه لم يكن هكذا مندفعاً وطموحاً - وكثير التشدد عندما يعارضونه. عند مغادرته جنيف واعتقاده بأنه لن

(1) From the Minutes of the Council, Quoted by Walker, op. cit. p. 213

(2) James Mackinnon, Calvin and the Reformatio, Russel and Russel, New York, 1962, p. 66

يرأها مرة أخرى، كتب كالفن: «مع أننا ننوى الاعتراف أمام الله وشعبه أننا بسبب عدم خبرتنا وتهاوننا وإهمالنا وأخطائنا، حدث على الأقل جزئياً أن الكنيسة التي عهد بها إلينا، إنهارت بكل تعاسة. ومع ذلك من واجبنا أن نؤكد طهارتنا وبراءتنا ضد أولئك الذين بخداعهم وخيانتهم ووقاحتهم حدث هذا التدهور.»^(١)

(ج) كالفن فى المنفى

كالفن يتأثر من بوكر «Bucer»

اتخذ كالفن وفاريل مأوى لهما أولاً فى باسيل. من هناك ذهب فاريل إلى أبروشية فى «نيوشاتيل Neuchatel» بسويسرا، حيث كان سيمكث باقى أيام حياته. بدأ كالفن يستمع إلى أصدقائه الذين يستعجلونه ليأتى إلى استراسبورج بألمانيا (استراسبورج الآن فى فرنسا). بين هؤلاء كان مارتن بوكر. كان بوكر راهباً دومينكانياً متأثراً كثيراً بمارتن لوثر، ترك الرهبنة فى سنة ١٥٢١. وفى سنة ١٥٢٣ استقر فى استراسبورج وانضم إلى نشاط حزب الإصلاح البروتستانتى. بوكر أصبح ذا تأثير كبير فى تطور كالفن حتى أن أحد المؤرخين أعلن: «نموذج الكنيسة التى نسميها الكلفينية أو المصلحة كان فى الحقيقة هدية مارتن بوكر إلى العالم بمساعدة المنفذ القوى المتألق جون كالفن.»^(٢)

كالفن يهتم بشعب الكنيسة الفرنسى فى استراسبورج

فى استراسبورج تمتع كالفن بدون شك بأسعد فترة فى خدمته. فقد عهد إليه الإشراف على شعب كنيسة من اللاجئيين عددهم بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ عضو. نظمهم فى جماعة متماسكة. قام بخدمة الوعظ أربع مرات أسبوعياً، وقدم العشاء

(1) Wilhelm Pauck, The Heritage of Reformation, Glencoe 1961, p. 91
Quoted by Ozment, op. cit. p. 363

(2) Quoted by Iserloh, op. cit. p. 369

الربانى مرة شهرياً. أسس نظاماً كنسياً يتمشى مع النموذج الذى رسمه فى جنيف. أصر على فحص أعضاء أبروشيته قبل تناول «العشاء ليحكم على استحقاقهم. ولما اعترض بعضهم بأنه بذلك يستعيد إدخال الاعتراف الكاثوليكي، دافع كالفن عن ذلك بأنه إعداد ضرورى للعشاء الربانى.

كالفن يطور العبادة (الليتورجيا) للكنائس المصلحة

كثيراً ما يفوتنا أن كالفن كان شديد الاهتمام بأساليب العبادة فى الكنائس المصلحة. مع فرض حظر خدمة القداى وأوجه للعبادة الكاثوليكية، كان يلزم الكنائس المصلحة حينئذ ليتورجيا مناسبة تأخذ مكانها فعكف كالفن بمعاونة بوكى على العمل فى هذه المشكلة أثناء وجودها فى استراسبورج ووضعاً صيغة للعبادة التى يمكن أن تكون نموذجاً ليتورجياً للكنائس المصلحة فى إنجلترا وإسكوتلاندا وأمريكا.

نظام كالفن للعبادة

كان ترتيب كالفن للعبادة يتكون من: الابتهاال، الاعتراف، الوعد بالمغفرة، إنشاد الوصايا الأربع الأولى، الصلاة، إنشاد الوصايا الست الأخيرة، صلاة الاستنارة، قراءة كتابية، العظة، ترنيمة صلاة الابتهاال تنتهى بالصلاة الربانية، تلاوة قانون الإيمان أو مزمور بالفرنسية، وتختتم الخدمة ببركة هارون (عد ٦: ٢٤-٢٦). (١)

فى وقت لاحق فى جنيف أجرى تعديلاً فى هذا الترتيب بحذف وعد المغفرة وإبدال ترنيم المزامير بالوصايا وقانون الإيمان. أدخل الصلاة الارتجالية لكنه لم يفضلها على ليتورجيا معينة.

(1) Walker, op. cit. pp. 221-226

فيما يلي نظام خدمة العبادة في الكنيسة البروتستانتية طبقاً لجون كالفن،
جنيف سنة ١٥٤٣ - سنة ١٥٤٥ (باللغة الفرنسية):

(١) ليتورجيا الكلمة	(٣) عند عدم التناول في أيام
آية كتابية - مزمور ١٢٤ - ٨	الأحد يكون ترتيب العبادة
الاعتراف بالخطايا	كالآتي:
صلاة طلبية الغفران	(أ) ليتورجيا الكلمة بالكامل،
ترنيمة مزمور - منظومة شعرية	(ب) من ليتورجيا العشاء الرباني،
صلاة الاستنارة	صلاة عامة
قراءة كتابية	صلاة الشكر
الموعظة	طلبية مبنية على العظة
(٢) ليتورجيا العشاء الرباني	الطلبات
جمع العطاء	الصلاة الربانية
صلوات الطلبة	قانون الإيمان
الصلاة الربانية على سبيل التوضيح	ترنيمة مزمور على وزن الشعر
إعداد الخبز والكأس	بركة هارون
أثناء قراءة قانون الإيمان بالترتيل	
دعوة ونصيحة	
صلاة التكريس	
كسر الخبز	
التوزيع	
التناول (مع ترنيمة أو قراءة كتابية)	
صلاة بعد التناول	
بركة هارون	

ملحوظة:

نظام الخدمة المذكور أعلاه منقول من
كتاب الدكتور مارثا روي «تاريخ
العبادة The History of Worship» وفيه
يمكن أيضاً إيجاد تفاصيل أكثر عن
مساهمة كالفن في العبادة الشعبية.

الترنيم الشعبى فى كنيسة كالفن

من أثنى الابتكارات التى أدخلها كالفن كانت التسبيح الشعبى. بينما فى العبادة الكاثوليكية لم يكن فى استطاعة الشعب إلا الإصغاء إلى إنشاد الكهنة وأولاد فريق الترنيم، أمكنهم حينئذ أن يرفعوا أصواتهم بأنفسهم فى تسابيح الحمد والشكر. كتب أحد الأفراد فى أبروشية كالفن يقول: «كل شخص يرزم. إنه لمنظر بديع أن كل واحد لديه كتاب موسيقى فى يده..... فى البداية لما تطلعت إلى هذه الجماعة الصغيرة من اللاجئيين، بكيت من الفرح عن استماعى لهم جميعاً وهم يرفنون من أعماق القلب، وعندما يسبحون شاكرين الله الذى اقتادهم إلى حيث يتمجد اسمه. لا أحد يستطيع أن يتصور مقدار الفرح الملازم للتسبيحات بحمد الرب وعجائبه فى لغة الشعب الأصلية كما ينشدونها هنا.^(١)

حتى كالفن نفسه اقتبس من إفلاطون ما ذكره عن قدرة قوة الموسيقى لتحريك القلب الإنسانى. «بين أشياء أخرى التى تنعش الإنسان وتجلب له السرور هى الموسيقى التى إما أنها الأولى أو على الأقل إحدى الأشياء الرئيسية. ويجب أن نعتبرها عطية الله، القصد منها هذا الاستخدام.^(٢)

التسبيح الشعبى موضع اهتمام الكنيسة المصلحة

جيد أن يذكر كل البروتستانت أن الترنيم الشعبى هو أحد أعظم المساهمات لعبادة الكنيسة. ليس فقط كالفن لكن لوثر (الذى ألف عدداً من الترانيم المشهورة) ونوكس وكل المصلحين العظام اعترفوا بأن الموسيقى فرصة فريدة لأفراد الشعب كى يشاركوا فى العبادة. سوف نقرأ فيما بعد، عن المعاونة الموسيقية من وسلى وأتباعه وآخرين فى أيام اليقظة العظمى فى القرن الثامن عشر.

(1) Parker, op. cit. p. 69

(2) Ibid, p. 87

التوسع فى كتاب «الأنظمة» The Institutes

فترة الإقامة المؤقتة فى استراسبورج أتاحت لكالفن أيضاً الفرصة كى يمضى فى تطوير أعظم مؤلفاته، «الأنظمة The Institutes». نقحه ووسع حجمه أكثر جداً مما كان فى نسخته الأصلية. هذا الكتاب كان معترفاً به كأحد الوثائق الأساسية للإصلاح. لم يكن كتاب آخر مقروءاً أكثر منه على هذا المستوى العريض فى القرن السادس عشر. بدأ مجلس إدارة جامعة باريس (كاثوليكية) يصدر ضده نشرات هجومية. إنه حتى فى هذه المرحلة الزمنية المتوسطة تُرجم إلى اللغات الألمانية والإنجليزية والإيطالية والأسبانية واليونانية. قال عنه كاتب كاثوليكي، «كتاب الأنظمة» قدم العنصر الجوهري الذى طال انتظاره والذى بدونه لم يكن فى استطاعة البروتستانتية أن تتوقع تأسيس نفسها كمنافس مؤثر للكنيسة الكاثوليكية، وأيضاً لأنه كان من تأليف كاتب عظيم^(١) «ت. ه. باركر Parker» قال أيضاً عن «الأنظمة»: «لقد أنجز كالفن عملاً، من الواضح الآن إنه ليس لاهوتى آخر (ولا حتى ميلانكتون Melancthon)، كان قادراً على انجازه فى حينه. إنه لم يقدم فقط صيغة نقية جازمة لمبادئ الإصلاح الرئيسية، بل أيضاً صب هذه المبادئ فى قالب من تقديم الإيمان المسيحى الكلاسيكى.^(٢)

خطاب الكاردينال «سادوليت Sadolet»

فى مارس سنة ١٥٣٩ سُنحت فرصة فريدة لكالفن كى يكتب دفاعاً عن الإيمان الإصلاحى لأن أسقف «كارينتراس Carpentras» فى فرنسا بالقرب من جنيف «الكاردينال سادوليت» كتب خطاباً لشعب جنيف يحثهم على التخلي عن الإصلاح والعودة إلى الكنيسة الكاثوليكية. ومع أن قادة كنيسة جنيف رفضوا خطاب

(1) H. Daniel - Rops, The Protestant Reformation, (Translated by Audrey Butler), E. D. Dutton, New York, 1961, p. 400

(2) Parker, op. cit. p. 50

سادوليت لكنهم احتاروا كيف يردون عليه لذلك كتبوا إلى كالفن طالبين منه الإجابة نيابة عنهم. وهذا ما فعله. برده العظيم فى قوة بلاغته. إن خطابه إلى سادوليت لم يمهّد الطريق فحسب لعودته فى وقت لاحق إلى جنيف، لكنه أيضاً أصبح وثيقة هامة للإصلاح تأتى وحدها بعد كتابه «الأنظمة».

رد كالفن على سادوليت

كان خطاب سادوليت يحتوى على نقد شديد للبروتستانت لانفصالهم عن الكنيسة. أكد رد كالفن على أن المصلحين تركوا الكنيسة فقط لأن الكنيسة تركت «الكلمة الله». إنهم فقط استعادوا الصيغة الأصلية للكنيسة الأولى، كنيسة الرسل.. يوحنا فم الذهب، باسيليوس، كبريانوس، امبروزيوس، وأغسطينوس. ثم دافع كالفن عن عقيدة التبرير بالإيمان وحده وشجب الزيادات غير الكتابية مثل الاستحالة الجوهرية، الاعتراف السرى، شفاعة القديسين، الصلاة لأجل الموتى، المطهر الخ. إنه أيضاً انتقد سلطة الكهنوت البابوى لأن قوتها كانت مبنية على سلطة خارجية بينما حصلت الكنيسة المصلحة على سلطانها فقط من كلمة الله دون سواها. هذه الإجابة المتفوقة فى مبنائها ومعناها التى انتشرت فى كل الكنيسة ثبتت كالفن متحدثاً باسم الإصلاح.

كالفن يتزوج

حدث هام آخر لكالفن جرى فى أغسطس سنة ١٥٤٠، حين تزوج من «اديليت دى بيور Idelette de Bure» أرملة أحد المهتدين من الكنيسة الـ Anabaptists (منكرو عماد الأطفال) وهى عضو فى كنيسته. عبر كالفن عن رغبته فى الزواج قبل ذلك بسنة فى خطاب إلى فاريل قال فيه: «أنا لست من طبقة مجانين الحب الذين، إذا أسرهم الجمال، يقبلون حتى أخطاءه. الحسن الذى يجذبنى هو هذا: أن تكون

متحشمة، لطيفة، غير مفاخرة، مدبرة، صبورة، ويمكنها العناية بصحتي.^(١) سبق لأصدقاء كالفن أن اقترحوا عليه فتيات أخريات كثيرات، لكن لسبب أو لآخر لم يتم الاتفاق. يبدو أن كالفن باحتمال مساعدة من بوكر اكتشف لنفسه اديليت دى بيور. قليل جداً ما نعرفه عن حياته الزوجية. ولد ابناً واحداً فى سنة ١٥٤٢ ومات فى سن الطفولة. وعندما ماتت اديليت نفسها فى سنة ١٥٤٩ كتب كالفن: «لقد فقدت أعز رفيق لحياتي».

كالفن يتقابل مع اللوثريين

بينما كان كالفن فى استراسبورج عقد اللوثريون والكاثوليك اجتماعين للحوار. أحدهما فى «ورمز Worms» فى سنة ١٥٤٠ (انظر صفحتى ١٣٢، ١٣٣) والثانية فى «ريجنسبرج Regensburg» فى سنة ١٥٤١. كالفن حضر هذه الاجتماعات بحثاً عن مساعدة لأجل مواطنيه الفرنسيين المضطهدين وأيضاً لكى يقابل «ميلانكتون» ومن لقائه به نشأت صداقة عمر ومراسلات فى مناسبات تبين عظيم الود والاحترام خاصة من جهة كالفن. لكن كالفن اختلف مع ميلانكتون على نقط كثيرة. محاورات ورمز وريجنسبرج فشلت فى آخر الأمر. لكن كالفن كان مازال مكتئباً بسبب الأسلوب الذى تصرف به اللوثريون. شعر أنهم فى تلهفهم على الوصول إلى اتفاق قدموا تنازلات عديدة للكاثوليك. ومع أن كالفن امتدح كثيرين من قادة الإصلاح الألمانى، إلا أنه لم يوافق على احتياجه إلى النظام الكنائسى مثل التقدير الوضع الذى انحصرت فيه وظيفة الخادم والمدى الذى ذهبت إليه الكنائس فى الاعتماد على السلطة المدنية.^(٢)

(1) Walker, op. cit. p. 234

(2) Walker, op. cit. p. 244

رأى كالفن فى لوثر

كالفن لم يقابل لوثر قط. لكن من الواضح أنه كان يكنّ له عظيم الاحترام. هنا مقتطفات من خطاب كالفن إلى «هنريخ بولنجر Heinrich Bullinger» مصلح مدينة زيورخ (انظر صفحة ١٦٣) «ترامى إلى سمعى أن لوثر قام مؤخراً بهجوم شفوى ليس فقط عليك (يا بولنجر) بل علينا كلنا. حتى إذا كان فى مثل طبعه السريع الانفعال بل الحقود. يندفع متهيجاً من أجل سبب زهيد، فإنه بالتأكيد ليس لديه أساس لمثل هذه الضجة.... لكن هذه هى رغبتى، أن تذكر دائماً كم كان لوثر إنساناً عظيماً، وكم من وزنات استثنائية وهبت له، وكم كان شجاعاً لا يهتز، وكيف كان ماهراً، وكيف أنه بعلمه الغزير وتأثيره جاهد لهدم سلطة عدو المسيح، ولأجل انتشار عقيدة الخلاص. كثيراً ما قلت: لو أنه دعانى الشيطان لاستمررت أعطيه كرامة باعتباره واحداً من أبرز خدام الله، الذى -وهذه حقيقة- يعانى من عيوب عديدة، كما أنه غنى فى الفضائل العظيمة، ليت فقط بذل نفسه فى كبح طبيعته المتهورة التى تنفجر فى كل مكان. ليت حول باستمرار انفعاله الكامن ضد أعداء الحق بدلاً من ترك عاطفته تستشيط غضباً ضد خدام الرب.^(١)

قلق كالفن من أجل جنيف

منذ مغادرة كالفن وفاريل ازدادت الفوضى السياسية فى جنيف. كانت القيادة الجديدة ضعيفة وأثار اتباع كالفن هناك الشغب فى الكنيسة والمدينة. وفى قلقه على سلام جنيف، كتب كالفن لشعبه ناصحاً بضبط النفس والطاعة للسلطات قائلاً: «يجب على المسيحيين أن يبغضوا الشقاق ويبذلوا كل الجهد لاجتنابه. فعندما يرون أن كلمة الله يُنادى بها والأسرار المقدسة تُقدم، عليهم أن يعترفوا بوجود

(1) Iserloh, op. cit. p. 371

الكنيسة هناك مهما كان وضع خدام الكلمة، حتى إذا لم تكن العقيدة التي ينادون بها نقية كما يجب. فإن الأمر الذي له الأهمية الأولى هو وجوب تثبيت الوحدة والحفاظ عليها. لست أستطيع أن أسمع - بدون رعب عظيم وكثيف - أن أى شقاق يمكن أن يستمر فى الكنيسة.^(١)

كالفن يُدعى للعودة إلى جنيف

بسرعة أبدت العصبية المناهضة لكالفن تنازلات خطيرة «لمصلحي بيرن» الذين كانوا يحاولون التأثير على جنيف. مال الميزان السياسى فى المجالس لصالح كالفن. القادة المعارضون أبعادوا فى أكتوبر سنة ١٥٤٠. كلا المجلسين والمحفل العام اقترحوا على دعوة كالفن للعودة إلى جنيف. لقد أفزعته فكرة تعريض نفسه مرة أخرى للإهانات والشتائم والمخاطر التى سبق أن عاناها من قبل فى جنيف:

«أفضل الإذعان للموت مائة مرة على ذلك الصليب الذى كنت مضطراً أن أموت عليه ألف مرة.^(٢) ومع ذلك حتى قبل هذا كتب يقول، «مع أنى فى الوقت الحاضر معفى من مسئولية الإشراف على كنيسة جنيف، فإن الأحداث الجارية يجب أن لا تمنعنى من احتضانها بالود الأبوى. لأن الله حين حملنى مسئوليتها، ألزمنى أن أكون أميناً لها إلى الأبد.^(٣)»

كالفن يعود إلى جنيف

إمكانية عودة كالفن إلى جنيف أثارت هياجاً عظيماً فى سويسرا وألمانيا، «كان الشعور العام أن مصير جنيف اعتمد على كالفن. وأن مصير الديانة الإنجيلية فى فرنسا وإيطاليا اعتمد على جنيف. لما تباطأ كالفن كتب إليه فاريل:

(1) Quoted by Parker, op. cit. p. 78

(2) Ibid, p. 79

(3) Ibid, p. 79

أستنتظر حتي تناديك الحجارة!»^(١) بحلول صيف سنة ١٥٤١ كانت الاستغاثات ملحة لدرجة لم يستطع معها المقاومة. فكتب إلى فاريل^(٢) حينما أذكر أنى فى هذا الأمر لست سيد نفسى، أقدم قلبى ذبيحة وأرفعها إلى الرب.^(٣) خاتم كالفن يحمل هذا الشعار مرسوماً عليه يد تقدم قلباً إلى الله. عاد كالفن إلى جنيف فى يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١.

(1) Schaff, op. cit, V11, p. 433

(٢) فاريل لم يتسلم دعوة للعودة إلى جنيف وتقبل بلطف قرا المدينة بأنه لا حاجة إليه هناك.

(3) Ibid, p. 429

Recommended English Readings

1. Grimm, Harold J. - **The Reformation Era, 1500-1650**, pp. 324-333
2. Harkness, Georgia - **John Calvin, the Man and His Ethics**, pp. 8-20
3. Iserloh, Erwin - **History of the Church**, Vol. V, pp. 365-373
4. Ozment, Steven - **The Age of Reform, 1250-1550** pp. 358-365
5. Parker, T.H.L. **John Calvin: A Biography**, pp. 51-81
6. Potter, G. R. and Greenglass, M. **John Calvin**, pp. 43-56
7. Walker, Williston **John Calvin (The Organizer of Reformed Protestantism) 1509 - 1564** Schocken Books - NY, 1969, pp. 159-244
8. Walker, Williston - **History of the Christian Church**, pp. 352, 353
9. Wendel, Francois **Calvin** pp. 46-68

ثالثاً: عودة كالفن إلى جنيف واستمرار الصراع سنة

١٥٤١ - ١٥٦٤

كالفن يصل إلى جنيف

(أ) وصول كالفن إلى جنيف

يسجل «بيزا Beza» أول مؤرخ لسيرة حياة كالفن، أنه كان هناك احتفال شعبي عظيم عند دخول كالفن للمرة الثانية إلى جنيف. لكن لا يوجد سند تاريخي لهذه المعلومة. ولا شك أنه قول بالترحيب لأنهم قدموا له الدعوة، بل ألحوا عليه في العودة. وبصفة خاصة في يوم وصوله ظهر أمام المجلس الصغير وشرح سبب تأخير الطويل وطلب أن يعين المجلس لجنة للمعاونة في إعداد دستور كنيسة جنيف. في أول أحد بعد وصوله دخل إلى منبر كنيسة القديس بطرس واستأنف تفسير الكتاب المقدس من نفس الوضع حيث كان قد أرغم على تركه قبل أربع سنوات.

الترحيب بكالفن في جنيف

كدليل على الاستقبال الحار لكالفن في جنيف قدمت له المدينة بيتاً جميلاً وحديقة. وانتقلت زوجته وأمتعة بيته من استراسبورج على حساب المدينة. مُنح مرتباً سخياً بلغ ضعف مرتب أي راع آخر. أعطوه أيضاً بدلات عن الدقيق والنبيد والملابس. هذه المصروفات كلها دفعتها خزينة المدينة.

تحدث كالفن لجنيف

كان في جعبة كالفن بعض الآراء المحددة عن جنيف. فعند عودته كتب خطاباً إلى المجالس قال فيه: إذا رغبتُم أن تتخذوني راعياً لكم، صححوا فوضى حياتكم. إذا كنتم بنية صافية استدعيتُموني من المنفى، انفضوا عنكم جرائم

الفجور التى تسود بينكم. أنا لا أستطيع النظر - بدون أشد استياء وألم - إلى النظام مدوساً تحت الأقدام، وإلى الجرائم تُرتكب دون أن تنال العقاب. إنى لا أستطيع العيش فى مكان ملوث بكل هذا الفساد. إنى أعتبر أن أعداء الإنجيل الرئيسيين. ليسوا باباوات روما، ولا الهرطقة، ولا الزناة، ولا الطفلة لكنهم أريداء المسيحيين. أن أخشى ما أخشاه تلك الأطماع الشهوانية ومفاسد الخمارات وبيوت الدعارة وألعاب القمار.

أى منفعة لإيمان ميت بدون أعمال؟ أى أهمية للحق حيث تكذبه حياة فاسدة وأعمال تجعل النطق بها أمراً مخجلاً؟ فيما أن تأمرنى مرة ثانية أن أهجر مدينتكم وتتركونى أذهب وأخفف مرارة أحزاني فى منفى جديد وإما أن تجعلوا صرامة القانون تحكم فى الكنيسة. هناك أعيدوا تأسيس نظام طاهر. ^(١)

(ب) القواعد، نظام كالفن فى جنيف

القواعد

اشترك كالفن فى العمل مع اللجنة المعينة من المجلس، أسفرت عن قائمة من «القواعد» التى وافق عليها المحفل العام بعد وصول كالفن بشهرين.

كان لتلك القوانين غرضان أساسيان: (١) أن تقدم حلاً لحكم ذاتى للكنيسة مع الاحتفاظ بالتعاون مع المجالس. (٢) أن تعمل على تحريك نظام فعال يمكن للكنيسة بواسطته أن تتأكد من العقيدة السليمة، والحياة السوية بين أعضائها.

الوظائف الرئيسية

لكى يتم إنجاز القوانين كان يلزم أن تتكون أربعة وظائف:

(1) Beza, Life of Calvin, N. L., pp. 25-26, Quoted by Ozment, Op. cit. p. 366

(١) وظيفة الرعاة، المعروفين بجماعة المحترمين، ليكونوا مسئولين عن الكرازة العادية والأعمال الرعوية وكذلك عن فحص المرشحين للرسامة. وكان عليهم أن يجتمعوا أسبوعياً لدرس الكتاب والنقد الذاتى.

(٢) وظيفة المعلمين: المسئولين عن تعليم الشباب على طريقة مدرسة جنيف، وسوف نوضح تطورها فى فصل لاحق.

(٣) وظيفة الشمامسة: المسئولين عن الاهتمام بالفقراء والمرضى.

(٤) مكتب الشيوخ (المعروف بالمجلس الكنسى): كان هذا أهم مكتب، لأنهم كما وصفتهم الفرائض «عليهم أن يسهروا على حياة كل فرد، أن يحذروا بلطف أولئك الذين يشاهدونهم يرتكبون أخطاء، ويعيشون حياة مشوشة، وحيثما دعت الحاجة عليهم إعداد تقرير للهيئة التى ستعين لإجراء الإصلاحات الودية.

مجلس الكنيسة

يجب أن يُقال المزيد عن مجلس الكنيسة (الشيوخ) لأنه هذا هو الفريق الذى ثار حوله الجدل فى السنوات اللاحقة. كل الشيوخ الإثنى عشر كانوا علمانيين، اختارهم المجلس الصغير (سبق أن رغب كالفن أن يكون اختيارهم بواسطة الكنيسة). اختير اثنان من المجلس الصغير، وأربعة من مجلس الستين، وستة من مجلس المائتين. مركز الرئاسة يجب أن يكون من كبار الإداريين. ^(١) القوة التنفيذية لمجلس الكنيسة كانت تختص بالحرمان الكنسى، أى الحرمان من «عشاء الرب». هذه القوة مُنحت لمجلس الكنيسة فى سنة ١٥٤١. لكن سحبت منه فى سنة ١٥٤٣. استمرت فى كونها بؤرة الصراع بين كالفن ومجالس الكنائس سنة ١٥٥٥.

(١) جدير بالملاحظة أن القاضى أو الإدارى حين يعمل رئيساً لمجلس الكنيسة، كان عليه أن يستغنى عن صولجان وظيفته لكى يتضح التمييز بين السلطة العالمية والقيادة الروحية.

الحكومة الإلهية طبقاً لكالفن

لقد قيل الكثير عن لائحة كالفن «للحكومة الإلهية» فى جنيف، أو كما أسماها البعض «الحكومة الكتابية». وكما كتب «شوينزى Choisy»، «الحكومة الإلهية الكالفينية ثبتت حكم الكتاب المقدس، كتاب دستور القانون الإلهى. هكذا تدرك الديانة كنائسياً، ليس كمبدأ للحياة بل كحكومة، ويصبح الإنسان رعية حاكم مطلق تعبر الفرائض عن إرادته.^(١) تضمن أسلوب كالفن أنه توجد قاعدة واضحة محددة للإيمان والممارسة يجب إيجادها فى الكتاب المقدس.

حكم الكتاب المقدس

فى الواقع كان كالفن مجرد ناقل إلى الكنيسة البروتستانتية حكم «مذهب السلطة» المسيطر فى الكنيسة الكاثوليكية باستثناء أن أساس ذلك النظام وقاعدة تطبيقه عند كالفن لم يلزم أن يكونا من حكمة الكنيسة بل من «كلمة الله». لقد أعلن الله الأوامر الصائبة لكل حياة الإنسان المستقيمة. إنه من واجب الكنيسة والدولة على السواء كل فى مجالها الخاص بها الذى هو مجال تبادل المنفعة، أن تجعل الناس يمثلون لهذا القانون. إن انتهاك جزء واحد من ذلك القانون الإلهى فى غلطة واحدة ليس أقل ولا أكثر فظاعة من كسر جزء آخر بالخطية فى السلوك. كل منهما واجب التصحيح إن أمكن بواسطة الكنيسة. وإذا بذلت الكنيسة أقصى جهدها بدون فائدة، ينبغى علاجها وعقابها (الغلطة أو الخطية) بواسطة الدولة.^(٢)

(1) Eugene Choisy, La Theocratie A Geneve au temps de Calvin, Geneva, 1897, p. 55, Quoted by Williston Walker, John Calvin, p. 279

(2) From the Ordinances, Quoted by Williston Walker, op. cit. p. 274

علاقة مجلس الكنيسة والمجالس الأخرى

العلاقة المضبوطة لمجلس الكنيسة مع المجالس الأخرى كانت مسألة جدال مرير فى وقت صياغة الفرائض وانتهت بما يعتبره المؤرخون تقريراً نهائياً للطقس الإصلاحى «عن علاقة الكنيسة بالدولة.....» بأن هذا كله (أى النظام) يتم على نط لا تكون فيه لخدام الكلمة (الرعاة) سلطة شرعية مدنية ولا يستخدمون أى سلطان إلا السيف الروحى لكلمة الله...، وأن سلطان الحكومة وسلطة القضاء العادى لا ينتقص منها مجلس الكنيسة أى شىء على الإطلاق، بل أن تبقى السلطة المدنية غير معطلة. وبصفة خاصة، حيثما تدعو الضرورة إلى توقيع إحدى العقوبات أو للضغط على الأطراف، فإن الرعاة مع مجلس الكنيسة بعد الانتهاء من سماع الأطراف وتقديم الاعتراضات والتحذيرات حسب الأحوال، يقدمون تقريراً وافياً إلى المجلس الذى يدرس تقريرهم ويصدر الحكم حسب استحقاقات القضية. (١)

برهان المسيحى

فى داخل المجتمع الإنجيلى وضع كالفن ثلاثة معايير بسيطة للمسيحى:

(١) أن يعترف جهاراً بإيمانه.

(٢) أن يحيا حياة مستقيمة سالكاً فى طرق الله.

(٣) أن يشارك فى الأسرار المقدسة كواسطة الشركة روحياً مع الله.

على أن المعيار الثانى (أى الحياة المستقيمة) اتخذ أهمية قاطعة فى جنيف الكالفينية. كان المنظم والقاضى لهذه الحياة المستقيمة هو الكتاب المقدس: «القانون يبين لنا الهدف الذى من أجله يجب أن نكافح، حتى أن كل إنسان بنسبة

(1) Ibid, p. 273

النعمة المعطاة له من الله، يبذل نفسه بدون انقطاع ليصل إليه ويتقدم للأمام يوماً
بـيوم». (١)

أهمية الكرازة

النقطة المحورية لهذا النظام كانت فى قراءة وبيان حقيقة الكتاب المقدس. أهم أحداث الأسبوع كانت خدمة الكرازة. فى يوم الأحد كانت تقام خدمة أولى فى مطلع النهار وأخرى فى الساعة التاسعة. فى الظهر كانت التوجيهات فى درس الدين بالسؤال والجواب، ثم خدمة وعظية الساعة ٣ بعد الظهر. أيضاً كانت هناك خدمات كرازية فى أيام الإثنين والأربعاء والجمعة. بعد ذلك زادت هذه الخدمات إلى اجتماع يومى. شعب جنيف كان ينتظر منهم المواظبة على هذه الخدمات والتغيب عنها يمكن أن يصبح عرضة للتأديب. وكان على الحوانيت والفنادق أن تغلق أبوابها أثناء العبادة، والأطفال محظور عليهم اللعب فى الشوارع.

النظام فى الحياة اليومية

علاوة على ذلك، روقبت الحياة اليومية بشدة على مدى الخطوط التى سبق وضعها أثناء التزام كالفن بالمسئولية. العقوبات جرى تحديدها عن المخالفات التى نعتبرها غريبة:

(١) امرأة ركعت بجانب قبر زوجها وقالت «Requiescat in Pace» تعبير

كاثوليكي بمعنى «ارقد فى سلام»

(٢) صائغ صنع كأساً من ذهب لأجل القديس الكاثوليكي.

(٣) امرأة حاولت أن تشفى زوجها بتمرير ثمرة جوز بداخلها عنكبوت حول

رقبته.

(1) From the Geneva Catechism of 1542, Quoted by Iserloh, Op. cit. p. 375

(٤) عجوز عمرها ٦٢ سنة تزوجت من شاب عمره ٢٥ سنة.

(٥) حلاق قام بقص شعر كاهن (نصف حلاقة).

(٦) رجل انتقد اللاجئين الفرنسيين الذين أتوا إلى جنيف.

(٧) شخص انتقد حكام المدينة لمعاقبتهم الناس من أجل إعرابهم عن آراء دينية مختلفة.

كان محظور أن يُسمى الأطفال بأسماء قديسين كاثوليك. بدلاً من ذلك أعد كالفن قائمة بأسماء معتمدة لأبطال بروتستانت. أما بالنسبة للمخالفات الخطيرة فقد فرضت عقوبات حتمية قاسية. كثيراً ما استخدمت وسائل التعذيب لاستخلاص الاعترافات، بين سنة ١٥٤٢، سنة ١٥٤٦ حكم بالموت على ٨٥ شخصاً وبالنفى على ٧٦ من أجل جرائم مختلفة وسوء السير والسلوك.

قضية سيباستيان كاستيليو Sebastian Castellio

النموذج المشهور لنوع النزاع الذي ثار وقتئذ كان قضية شخص يُدعى سيباستيان كاستيليو. سبق أن تعرّف على كالفن في استراسبورج وتعين مديراً لمدرسة جينييفية. قدم طلباً لتعيينه راعياً في جنيف. وصادق عليه من المجلس الصغير. لكن كالفن عارض في التعيين لأن كاستيليو ارتاب في وحي سفر نشيد الأنشاد وشك في فقرة في قانون الإيمان الرسولي. وفي أثناء دفاع كاستيليو عن نفسه أدلى بملاحظات فاضحة عن رعاية جنيف مما اضطر المجلس أخيراً أن يقصيه عن وظيفته ويطرده من المدينة. هذا مثل واحد يوضح تأثير ذكاء كالفن وشخصيته على الحياة في جنيف.

(ج) معارضة سياسة كالفن

المعارضة السياسية

إذن لا يدهشنا أن المعارضة بدأت تنمو ضد سيطرة كالفن. الجماعة التي عارضته سميت «The Libertines المعتقين» لكن يوجد شك في أنهم أسسوا حزباً بالفعل. كانوا مجرد أناس كثيرين ذوى مراكز وثروة، غير مستعدين أن يخضعوا أنفسهم لمثل هذا النظام الصارم. أيضاً كان الشعور ضد العدد المتزايد للاجئين الفرنسيين الذين جذبهم كالفن إلى المدينة. كانوا أجانِب منافسين على الوظائف والإسكان.

قضية «بيير أميو Pierre Ameiaux»

بحلول سنة ١٥٤٦ خففت القوانين الجديدة للمدينة حظر ممارسة لعب القمار تخفيضاً كبيراً. أحد الأشخاص المدعو «بيير أميو» الذي كان عمله تصنيع ورق اللعب (الكوتشينه) عانى خسائر مادية. في حفل لتعاطى الخمر هاجم في إحدى الليالى كالفن شخصياً ووصفه بأنه يبشر بعقيدة زائفة وأنه رجل شرير. أبلغوا عنه وأرغم علي المشول أمام «المجلس». استمرت المحاكمة بعض الوقت وانتهت إلى القرار بأنه يجب على «أميو» أن يقدم اعتذاراً إلى كالفن. من جهة كالفن لم يكن هذا كافياً. وفي إعلانه أن اسم الله يجب أن يزكى. طالب بعقوبة أشد. أخيراً رضى كالفن لما أمر المجلس «أميو» أن يطوف حول المدينة حافى القدمين، عارى الرأس، مرتدياً قميصاً فقط وحاملاً مشعلاً، لينتهى به المطاف راكعاً على ركبتيه ملتمساً الرحمة من الله والحكومة. ولما انتقد أحد الرعاة العقوبة بأنها قاسية جداً، سجنه المجلس من أجل تلك الملاحظات وأقصاه عن أبروشيته.

عائلات بيرين وفافر Perrin & Favre

حادثة أخرى فى نفس الوقت تقريباً شملت عائلات «بيرين وفافر الشربة». جىء بأعضاء الأسرة للمحاكمة من أجل ارتدائهم الملابس الفاخرة للتباهى، والرقص فى حفلة زواج ولإدلاء بتصريحات ضد كالفن. عضو آخر عوقب من أجل لعب الكرة أثناء خدمة يوم الأحد. إن الذى أغضب هؤلاء الناس أكثر من عقابهم بواسطة المجلس كان مطالبتهم بأن يمثلوا أيضاً أمام مجلس الشيوخ لتلقى النصيحة والتحذير بـ ١٠ المدة المحكوم بها عليهم. وقد نوقش الموضوع بعد ذلك فى المجلس الذى قرر أن الثائرين والمعاندين يجب أن يمثلوا أمام مجلس الكنيسة. أما التائبون فيمكن الصفح عنهم بعد تلقى عقوبتهم.

محاكمة وإعدام جاك جروت Jacques Gruet

فى حادثة لها علاقة بما سبق، اتهم «جاك جروت»، وهو صديق لأسرة بيرين وفافر، بأنه ألصق إعلاناً على منبر كنيسة القديس بطرس جاء فيه: «عندما تزيد من إثارتك لنا نحن ننفجر، وعندما تحملنا أكثر مما نطيق نلجأ للانتقام. نحن لا نريد بعد ذلك أن يكون لنا مثل هذا العدد الكبير من السادة. ^(١) فتشوا منزل «جروت» ووجدوا الدليل بأنه يهاجم الكتاب المقدس ومؤلفات كالفن حيث كتب فى إحدى الصفحات، «كل القوانين إلهية وإنسانية صنعها الناس بمزاجهم». وعلى هامش أحد مؤلفات كالفن كتب، «كله تخريف». كانت التهمة ضد جروت هى التجديف. إن الهجوم على الكتاب المقدس أو المبادئ المستمدة منه كان هجوماً على جلال الله نفسه. عندئذ عذب جروت ووجد مذنباً بجريمة الخيانة العظمى وقُطعت رأسه.

(1) Quoted by Georgia Harkness, John Calvin, The Man and His Ethics, p. 36

قوة شخصية كالفن

«آمي Ami، عميد أسرة بيرين، الذي كان في السابق مسانداً لكالفن، انقلب الآن ضده تماماً. لما اكتشف أمره في مؤامرة للإتيان بفرق من الجيش إلى جنيف لتقوية مركزه. جىء به للمحاكمة أمام مجلس المائتين. لكن أتباع بيرين اختلقوا شوشرة حتى أن كالفن نفسه ذهب إلى قاعة الاجتماع. عند دخوله من الباب هددته أتباع بيرين بالموت. لكن لما حلق صوب الجماعة، انسحبوا. مشى إلى وسط الغرفة وعرى صدره وقال، «إذا أردتم الدم فاضربوا هنا». لم يتحرك منهم أحد. تقدم كالفن نحو المنصة حيث جلس أعضاء المجلس، تأبط ذراع أحد الأعضاء ونزل إلى وسط الصلاة وبدأ يتكلم. تكلم بقوة انفعال حتى سالت الدموع على خديه. حالاً استعيد النظام وغادر الناس الصلاة في هدوء.

أما عن المحاكمة نفسها فقد أطلق سراح بيرين. وبالرغم من شجاعة كالفن العظمى والمقدرة الواضحة التي أظهرها للسيطرة على الجمهور، فإن الصراع على السيطرة على جنيف لم يتوقف. فخلال السنتين أو الثلاث التالية تعرض كالفن لمضايقات كثيرة. أطلق عليه الناس اسم قايين بدلاً من كالفن. وأطلقوا اسمه على الكلاب. رعاة الكنائس، أغروهم أن ينتقدوه وأن يضعوا أناشيد سفيهة استهزاء به.

كالفن يشجع اللاجئين الفرنسيين

علاوة على ذلك، جعل كالفن موقفه أسوأ باستمراره في حث اللاجئين البروتستانت، خصوصاً الفرنسيين على المجيء إلى جنيف. حسب تأكيده لأولى الأمر في جنيف، «حتى تكون مدينتكم مقدساً للرب وسط هذه الاضطرابات المريعة، وملجأ لأعضاء المسيح».^(١)

(1) Quoted by Walker, John Calvin, p. 313

بسبب الاضطهاد المرير فى فرنسا سنة ١٥٤٩ زاد عدد اللاجئين فى نسبة السكان. وفى السنوات العشر التالية أكثر من ٥٠٠٠ لاجئ وفدوا، الأهم من ذلك، أنهم ابتدأوا فى أن يكون لهم تأثير سياسى. فى سنة ١٥٤٩ اعترفت اسلطات باثنين وسبعين شخصاً كمواطنين لهم حق الاقتراع وأمكن انتخابهم أعضاء فى المجالس. بحلول سنة ١٥٥٤ بلغ عدد اللاجئين السابقين الذين مُنحوا هذا الحق ١٣٧٦ شخصاً. طبيعى جداً أن المواطنين الأصليين فى جنيف رأوا فى الوافدين الجدد تهديداً سياسياً واقتصادياً. وكرهوا كالفن من أجل ذلك. فى الواقع استغل كالفن مجتمع اللاجئين ليقوى قاعدته السياسية.

قضية جيروم بولزيك Jerome Bolsec

من التهكم أن يكون أحد الفرنسيين اللاجئين هو المتسبب فى مشكلة كبرى لكالفن. ففى سنة ١٥٥١ وصل إلى جنيف طبيب وراهب سابق يدعى «جيروم هرمرز بولزيك». كان شديد الاهتمام بالكنيسة وبصفة عامة مستجيباً لتعاليم كالفن. لكنه اختلف بشدة مع عقيدة «التعيين السابق Predestination»، اعتقد أن هذا يجعل الله طاغية. وبدأ يهاجم كالفن شخصياً فى هذا الموضوع مدعياً أن كالفن لم يكن له الحق فى أن يفسر الكتاب المقدس. ورأى كالفن فى هذا تهديداً لمركزه فى الكنيسة والمدينة، ولذلك قدم بولزيك للمحاكمة أمام المجلس بعد محاكمة طويلة استشيرت أثناءها الكنائس فى باسيل وفرن وزيورخ وطرد بولزيك فى آخر الأمر بسبب «آراء كاذبة مخالفة للكتب المقدسة والديانة الإنجيلية النقية». ولأن بولزيك كان لاجئاً لم يحظ بأى تعاطف شعبى. وبقي ذلك انتصاراً سياسياً ولاهوتياً لكالفن وعلاوة على ذلك ثبت إشرافه على المدينة. أخيراً عاد بولزيك إلى فرنسا حيث طرد من المجتمع البروتستانتي فرجع إلى الكنيسة الكاثوليكية وكتب سيرة حياة كالفن بأسلوب افترائى تضمن الكثير من الأكاذيب.

(د) محاكمة وإعدام ميشيل سيرفيتوس Michael Servetus

نصل الآن إلى الحادثة التي سببت مشادات في عصر كالفن ويستمر الحوار حولها بين المؤرخين. إنها قضية ميشيل سيرفيتوس، التي وإن أفضت إلى كسب سياسى لكالفن، فإنها إلى حد ما أنقصت من شهرة هذا المصلح.

حياة سيرفيتوس المبكرة

كان سيرفيتوس أسبانياً في سن كالفن تقريباً. درس في فرنسا وسويسرا حيث تأثر بالأفلاطونية. اتخذ موقفاً عن علاقة يسوع المسيح الابن، بالله الآب، شبيهاً بـ «الموناركيانية المودالية Modalistic Monarchiaism» أى التوحيد المختص بالقول إن الله أقنوم واحد في أطوار ثلاثة، (انظر المجلد الثانى) ألف أيضاً كتاباً منتقداً عقيدة الثالوث، مدعياً أنه لم يوجد ما يؤيد هذا التعليم في الكتاب المقدس. هذا الكتاب سبب عاصفة في كلا المجتمعين الكاثوليكى والبروتستانتى لدرجة أن سيرفيتوس اختبأ وانتحل اسماً آخر. صار طالب طب في باريس حيث توصل إلى اكتشاف هام عن دورة الدم الرئوية.

كتاب سيرفيتوس بعنوان «إصلاح المسيحية»

أو إعادة المسيحية إلى أصولها «Restitution of Christianity»

في حوالى سنة ١٥٥٥ قام سيرفيتوس، مع استمراره في مهنته كطبيب تحت اسم مستعار،... بكتابة كتاب عنوانه «إصلاح المسيحية». مرة أخرى هاجم فيه العقائد المسيحية الأساسية مثل الثالوث وألوهية المسيح، عملياً كان تعليمه من نوع مذهب «وحدة الوجود Pantheism»، إنه في خلال هذه المدة باشر سيرفيتوس مراسلاته مع كالفن. أرسل له كالفن نسخة من كتابه «الأنظمة» الذى أعاده سيرفيتوس بملاحظات مهيئة مكتوبة على الهوامش. عندئذ أرسل سيرفيتوس إلى

كالفن نسخة من كتابه «إصلاح المسيحية». بعد أن قرأه كالفن، قال لأحد أصدقائه، «هذا الرجل بالتأكيد ابن الشيطان». استمرت بينهما المراسلات بعض الوقت لكن المواقف كانت متباعدة جداً لدرجة أن كالفن قطع علاقته معه، كاتباً إلى فاريل هذه الكلمات، «إنه (أى سيرفيتوس) يؤكد أنه سيأتى إلى هنا إذا رغبت أنا. لكنى لا أنوى أن أعطيه كلمتى، لأنه إذا أتى، وفى يدى السلطة السائدة، فلن أسمح له بالعودة إلى بيته حياً.»^(١)

الكاثوليك يحاكمون سيرفيتوس

فى نفس الوقت تقريباً كشف صديق لكالفن أثناء كتابته لابن عمه الكاثوليكى فى فرنسا، أن سيرفيتوس موجود هناك، بل أرسل بعض صفحات من كتاب سيرفيتوس ورغم استمرار سيرفيتوس فى إنكار هويته الحقيقية، قبضت عليه السلطات الكاثوليكية وقدمته للمحاكمة مذبناً بجرمة الهرطقة.^(٢) بطريقة ما هرب سيرفيتوس قبل التمكن من إعدامه. لكنهم أحرقوا دميته وأحرقوا نسخاً من كتابه أيضاً.

سيرفيتوس يُقبض عليه فى جنيف

تجول سيرفيتوس داخل فرنسا بعض الوقت وبعدها اتجه نحو إيطاليا. وفى طريقه توقف فى جنيف (لم يكتشف المؤرخون قط سبباً لاتخاذ هذه المغامرة) وصلى فى كنيسة القديس بطرس مع كالفن فى المنبر. اكتشفوه وقبضوا عليه وقدموه للمحاكمة. ٣٨ تهمة أقيمت ضده أهمها الهرطقة.

(1) quoted by H. Daniel-Rops, The Protestant Reformation, p. 421

(٢) يبدو من الإنصاف التأكيد بأن كالفن أمد صديقه بالدليل المثبت للتهمة لنقلها إلى السلطات الكاثوليكية

انظر Daniel-Rops, op. cit. p. 422

كالفن يواجه سيرفيتوس

تطورت هذه المحاكمة إلى مناقشة لاهوتية بين كالفن وسيرفيتوس. اتهم كالفن سيرفيتوس باعتناقه مذهب «وحدة الوجود» وأرغمه على التسليم بأن بلاط ومقاعد قاعة المحكمة هي في الحقيقة «مادة الله». عندئذ قال كالفن، «إذن الشيطان هو الله في المادة»، فكانت إجابة سيرفيتوس، «وهل تشك في ذلك؟». اتهم سيرفيتوس أيضاً بالتجديف في اقتراحه بأن موسى كان مخطئاً في تسمية فلسطين أرضاً «تفيض لبنا وعسلا». كان واضحاً أن سيرفيتوس لم يتوقع تعاطفاً من المجلس إزاء هذه الآراء. علاوة على ذلك، طلب المجلس المشورة من برن وباسيل وزيورخ وكانت إجابة الكل إدانة سيرفيتوس.

أعداء كالفن يدافعون عن سيرفيتوس

لو أن المناقشة اللاهوتية كانت الموضوع الوحيد في قضية سيرفيتوس. فلربما انتهت عند هذه النقطة. لكن هناك أيضاً الوضع السياسي لكالفن. ذلك أن أعداءه كانوا يأملون أن يكون في إمكانهم استخدام المحاكمة لاختيار القوة المتعلقة بالأحزاب المنافسة في جنيف وثبات قوة كالفن في الهيمنة على المدينة. قائد حزب المعارضة، شخص يدعى فيلي برت برثلييه Philibert Berthelier، حاول الدفاع عن المتهم - ليس من منطلق التعاطف مع سيرفيتوس. لكن فقط كوسيلة لانتزاع الثقة من كالفن. هذا بالطبع أضاف بعداً جديداً للمحاكمة. أصبح من المحتتم على كالفن أن يكسب لكي يضمن مركزه السياسي. أحد قساوسة جنيف علق في وقت لاحق بالآتي: «لو برئت ساحة سيرفيتوس، لأدين كالفن نفسه، ودُمرت أعماله. من هنا يتضح أنه كان صراعاً لا رحمة فيه.^(١)

(1) Quoted by H. Daniel-Rops, op. cit. p. 423

كالفن يرفض تقديم العشاء إلى برثلييه

من حسن حظ كالفن أن حياة برثلييه الشخصية لم تكن فى فترة ما فوق مستوى الشبهات، كان محظوراً عليه تناول «العشاء الربانى» بقرار من مجلس الكنيسة بسبب مفااسده العديدة. فى وسط قضية سيرفيتوس، قرر برثلييه أن يتحدى سلطة مجلس الكنيسة، فالتجأ إلى المجلس الصغير، حيث كان لحزبه أغلبية لكى ينقض قرار مجلس الكنيسة ويسمح له بالتناول. قاوم كالفن هذا القرار بكل شدة لدرجة تصريحه بأنه يفضل الموت على تقديم السر المقدس إلى برثلييه، لكن قرار المجلس كان لصالح برثلييه. وفى يوم أحد عندما وقف كالفن فوق منبر كنيسة القديس بطرس ألقى عظة اعتقد أنها عظة الوداع. وأعلن بوضوح أن أى إنسان تحت حرم مجلس الكنيسة لا يسمح له بالمشاركة فى مائدة عشاء الرب. مرت الأزمة لأن برثلييه لم يحضر ولأن المجلس، فيما يبدو، لخوفه من الضجة التى تسببها استقالة كالفن، أنذر برثلييه أن يظل بعيداً. هذا الحادث مضافاً إليه النتيجة الحتمية لمحاكمة سيرفيتوس كان ذات أهمية تاريخية عظمى لخطة عمل كالفن فى جنيف.

سيرفيتوس يُدان ويُعدم

عند وصول إجابات الإدانة بإجماع الآراء من المدن الأخرى، تحركت جنيف بسرعة لإصدار الحكم على سيرفيتوس. وفى ٢٦ أكتوبر سنة ١٥٥٣ أمروا بإعدامه حرقاً. سبق لكالفن أن طلب موتاً أقل تعذيباً مثل الإعدام بقطع الرأس، لكن المجلس أهمل هذا الطلب. وعندما اقتيد إلى القائمة الخشبية التى يُحرق عليها، توسل إليه فاريل أن ينكر ويتخلى عن هرطقته. لكن الأسبانى كان شجاعاً لآخر لحظة. وكانت كلماته الأخيرة من وسط اللهب المتصاعد، «يا يسوع أنت ابن الله الأزلى، إرحمنى».

انتقاد كالفن من أجل موت سيرفيتوس

بدون شك كانت مقاضاة كالفن الخالية من الرحمة السبب فى إدانة سيرفيتوس. الأجيال المتعاقبة فى الكنيسة المصلحة تأسفت لهذا العمل وتمنت لو أن كالفن كان أقل قسوة. لما سمع سيبياستيان كاستيلليو عن إعدام سيرفيتوس كتب هذه الكلمات، «أيها المسيح، هل تأمر وتوافق أنت على هذه الأعمال؟..... هل أنت موجود فى هذه المذبحة، وهل تأكل اللحم البشرى؟..... إذا كنت أنت أيها المسيح تفعل هذه الأشياء فماذا تركنا للشيطان؟^(١) فى سنة ١٩٠٣ عندما انزعج ضمير مواطنى جنيف لهذه النقطة السوداء فى تاريخهم، علقوا أثراً تذكاريّاً لسيرفيتوس و «استنكروا هذه الغلطة التى كانت غلطة عصره (عصر كالفن)».

كالفن يدافع عن نفسه وآخرون يساندونه

لو أن هناك تعصباً فى تصرف كالفن فذلك بالتأكيد مبعثه حوافز أوسع نطاقاً من إدانة أحد الهراطقة. اعتقد أنه ينقد الدين والمدينة، والإيمان والحق، والكنيسة نفسها. وبعد سنة من إعدام سيرفيتوس كان كالفن مازال فى موقف التحدى، «كثيرون اتهمونى بمثل هذه القساوة الوحشية حتى أنهم يدعون إنى أرغب فى أن أقتل هذا الرجل مرة ثانية. لست فقط غير مبال بتعليقاتهم، بل إنى أبتهج بحقيقة أن يبصقوا فى وجهى»^(٢) وثمة جهات عديدة كانت تساند كالفن بإخلاص. فقد كتب إليه «ميلانكتون». «لقد قرأت مقالك الذى فنّدت فيه التجديفات المربعة لسيرفيتوس، وأشكر ابن الله الذى كان القاضى فى صراعك. الكنيسة الآن وفى المستقبل مدينة لك. إنى متفق تماماً وفى نفس الوقت أعترف بأنك بسلطتك تصرفت بالصواب فى إدانة المجدف بالموت، بعد محاكمة قانونية»^(٣).

(1) Harkness, op. cit. p. 32

(2) H. Daniel-Rops, op. cit., p. 425

(3) Quoted by Iserloh, op. cit., Vol. V, p. 382

كالفن يثبت السيطرة على جنيف

مع أن حزب «بيرين وبيريثيليه» استمر فى تحدى سلطة كالفن، فليس ثمة شك فى أن الميزان السياسى مال حينئذ لصالحه. وبحلول سنة ١٥٥٥ ضغط كالفن على المجالس الثلاثة، كى ينحصر حق الحرم الكنسى على مجلس الكنيسة فقط.

قبول اللاجئين الفرنسيين

استمر الوجود المتزايد للاجئين الفرنسيين المتميزين مصدراً للهيّاج. فى إحدى النقاط كاد الحزب المعارض يتسبب فى الإخلال بالأمن، لكنهم فقدوا التأييد الشعبى. كثيرون من اللاجئين كانوا مثقفين وأغنياء فأضافوا مكانة رهيبة إلى جنيف. وجىء بمثيرى الشغب للمحاكمة. فطرد بعضهم وأعدم آخرون. وبحلول سنة ١٥٥٩ أقصيت كل المعارضات السياسية الخطيرة. واستمر ازدياد عدد الذين منحوا حق المواطنة من طائفة اللاجئين. كما زادت المفاعد التى أعطيت لهم فى المجلس. كما أنهم عززوا قاعدة كالفن السياسية. من ذلك الحين وإلى آخر أيام حياته حكم جنيف دون نزاع له أهمية.

جنيف مدينة مثالية

كما قال «ووكر»، لم تصبح جنيف مدينة لمثالية كالفن - فلم يكن مثالياً - لكنها صارت مدينة بيوريتانية، متدينة، ذات ضمير حى، شديدة الإخلاص، مقتدرة فى الأحكام الكنائسية. وقد تم، وإلى حد كبير، إنجاز العمل الذى خطط له عند عودته فى عام ١٥٤١. ^(١) وجدير بالذكر هنا أن كالفن نفسه مُنح أخيراً حق المواطنة فى سنة ١٥٥٩. أما طوال السنين السابقة فكان مجرد «خادم» للمدينة التى كان له

(1) Williston Walker, John Calvin, p. 356

عليها كل هذا التأثير.

(هـ) انجاز كالفن الأخير فى جنيف - الأكاديمية

التحسينات فى المدنية

أما وقد استراح كالفن من القلق السياسى، فقد تمكن من أن يحول انتباهه الكامل إلى تحسين المدينة. بدأوا نظام تنظيف الشوارع، وأحكموا الإشراف على الأسواق الشعبية، وأغلقوا العديد من الحانات والمواخير، ومنعوا التسول. وعلى جانب آخر أسسوا المستشفيات ودور الضيافة للعناية بالمرضى والفقراء. حاولوا إيجاد وظائف نافعة لكل القادرين على العمل. والواقع أنه بمساعدة اللاجئين الفرنسيين استجدت أعمال تجارية خاصة فى مجال الصرافة والغزل والنسيج. وهذا المزج بين النظام والنجاح كان خليقاً أن يهدى جون نوكس إلى القول، «إن جنيف هى أكمل مدرسة للمسيح وجدت على الأرض منذ أيام الرسل».

تأسيس الأكاديمية

كان أعظم طموح لكالفن هو إيجاد نظام فعال للتعليم. كان التدريس متضمناً فى لائحة الفرائض الأصلية سنة ١٥٤١. لكن المعهد الذى أقيم فى وقتها كان عقيماً حتى أن الآباء القادرين أرسلوا أبناءهم إلى مدن أخرى وفى سنة ١٥٥٨ تقرّر بناء العمارة القائمة حتى اليوم.

لاقت حملة جمع الأموال اللازمة استجابة سريعة من مواطنى جنيف، وكذلك من مدن أخرى عديدة. ونجحوا لحسن حظهم فى إقناع كفاءات من هيئة التدريس المدرسين جيداً بترك المدرسة فى لوزان. كان من بينهم «تيودور بيزا Theodore

Beza^(١) الذى أصبح عميداً للأكاديمية، وأخيراً خلف كالفن فى قيادة كنيسة جنيف. ومع أن المدرسة كانت مسئولة أمام مجلس الكنيسة، فإن تعيين المدرسين كان يتم بموافقة المجلس الصغير. ولقد إفتُتحت المدرسة رسمياً فى كاتدرائية القديس بطرس فى يوم ٥ يونية سنة ١٥٥٩.

منهاج الدراسة

فى المدرسة الخاصة والمدرسة العامة

انقسمت الأكاديمية إلى مستويين، أحدهما ابتدائى أو «المدرسة الخاصة» والآخر ثانوى أو «المدرسة العامة». كان منهاج المدرسة الخاصة يحتوى على دراسة اللاتينية واليونانية والمنطق. أما المنهاج الخاص بالمدرسة العامة فقد تضمن العبرية واليونانية والفلسفة والآداب وشيئاً من علم اللاهوت. ولم تكن تمنح للطالب أية درجات بل يُعطى عند التخرج شهادة المواظبة على الحضور والأخلاق. ولقد اكتسبت المدرسة شهرة كبيرة فى سنوات قليلة مما جعل شهادتها البسيطة تعادل نفس مرتبة أى درجة عليا من جامعة كبرى.

الأكاديمية تعلم الطلبة من بلاد عديدة

كان لدى كالفن غرض مزدوج من تأسيس أكاديمية جنيف. فقد اهتم بتعليم أبناء المدينة وقصد أيضاً أن يتيح تدريباً لاهوتياً لطلبة الكنائس المصلحة من كل بلد. وفى أقل من خمس سنوات بعد بدء افتتاحها كان فى المدرسة الخاصة ١٢٠٠

(١) خطة العمل فى حياة بيزا كانت مشابهة تماماً لخطة كالفن. إنه فرنسى سبق أن تعرف على كالفن فى أيام الدراسة فى «أورليانز». ثابر على دراسة القانون والآداب قبل تجديده فى سنة ١٥٤٨. مع أنه استقر فى لوزان كمدرس، كثيراً ما كان يزور كالفن فى جنيف. أصبح تلميذه وفيما بعد رفيقه لا يختلف عن ميلانكتون ولوتر.

طالب، وفي المدرسة العامة ٣٠٠. وكانت الأغلبية العظمى في المدرسة العامة من أجانب أكثرهم من الفرنسيين، لكن عدداً مناسباً كان من هولاندا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا واسكتلندا. ما كانت هناك قوة أخرى لها كل هذه الفاعلية في تخليد ونشر آراء كالفن، ولا وجدت مدرسة في كل البروتستانتية أعلى مرتبة من هذه الأكاديمية من حيث الشهرة الشعبية لقرن من الزمان بعد موته. وبسبب الأكاديمية اكتسب شهرة «المصلح الدولي».

(و) سنوات كالفن الأخيرة (١٥٥٩ - ١٥٦٤)

وفرة الإنتاج الأدبي العظيم لكالفن

كان خلال هذه السنوات الأخيرة مهتماً بسبب ضعف صحته وانشغاله بشئون المدرسة، أنتج الطبعة الأخيرة من كتابه «الأنظمة» الذي نقحه تنقيحاً كاملاً عن طبعة ١٥٣٩. استمر يكتب التفاسير للكتب المقدسة وداوم على مراسلات لا حصر لها. ووصل إنتاجه الأدبي إلى تسعة وخمسين مجلداً في حجم «الكوارتو» وما جملته أربعين ألف صفحة. استمر يعظ مرتين يوم الأحد وثلاث مرات أثناء الأسبوع وبمعدل ٢٨٦ مرة خلال السنة، وكان يعظ مباشرة من النصوص العبرية واليونانية ويدون مذكرات.

الطلبة ينسخون محاضرات كالفن

لما زاد التقدير لقيمة علمه الغزير، تم تعيين ناسخ متخصص لكي يدون كل كلمة. وعدد الكلمات في عظة مدتها ساعة كان نحو ٦٠٠٠ كلمة ولدينا سجل عن الطريقة التي تعاون بها عديد من الطلبة للاحتفاظ بكل كلمة من محاضرات الحصة «كل طالب لديه أوراقه جاهزة. وكان كل طالب يكتب بمفرده بأقصى سرعة. وإذا فاتت أحدهم كلمة التقطها آخر... بعد انتهاء المحاضرة يجمع المعيد (مساعد

الأستاذ) أوراق الطلبة بسرعة ويضعها أمامه، فيراجع مذكراته ويقارنها كلها. ثم يُملئ على طالب آخر لينقل ما كتبوه. أخيراً كان المعيد يقرأها كلها حتى يتمكن من قراءتها مرة أخرى على مسامع كالفن في البيت في اليوم التالي. وإذا نقصت أى كلمة أضافوها، وإذا تبين أى شيء يعوزه الإيضاح، جرى توضيحه بسهولة.^(١)

موت كالفن

عندما انحرفت صحته، أصبح كالفن أقل نشاطاً. استمر يعظ رغم أن الأمر كان يتطلب حمله إلى المنبر. حاول المجلس أن يقدم له مبلغاً إضافياً لسد نفقات علاجه، لكنه كان دائماً يرفض قائلاً إنه لم يكن حتى يستحق مرتبه من حيث أنه لم يعمل كل الوقت. في يوم ٢ فبراير سنة ١٥٦٤ ألقى آخر محاضرة في الأكاديمية. وبعد ذلك بأربعة أيام ألقى آخر عظة. وفي يوم ٢ أبريل شارك في عشاء الرب لآخر مرة. يوم ٢٧ أبريل استقبل أعضاء المجلس الصغير لسمع كلمات التقدير. وكتب في يوم ٢ مايو ١٥٦٤ آخر خطاباتاته إلى صديقه القديم «فاريل» وانتقل بسلام في يوم ٢٧ مايو سنة ١٥٦٤. ودُفن في اليوم التالي داخل تابوت خشبي بسيط في مقبرة غير معينة بعلامة.^(٢)

(1) Quoted by Parker, op. cit. p. 129

(٢) في المدافن يمكن أن يشاهد الزائرون حجراً صغيراً منقوشاً عليه الفرمان J.C. اختصاراً لكلمتى جون كالفن لكن ليس مؤكداً أن هذا هو مكان الدفن الصحيح.

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, **The Reformation of the 16th Century**, pp. 110-122
2. Chadwick, Owen, **The Reformation** pp. 83-96
3. Daniel-Rops, H. **The Protestant Reformation** J.M. Dent, London, 1961, pp. 413-355
4. Grimm, Harold J. **The Reformation Era, 1500-1650** pp. 335-355
5. Harkness, Georgia, **John Calvin, The Man and His Ethics**, pp. 21-60
6. Iserloh, Erwin, **History of the Church, Vol. V**, pp. 373-376, 381-383
7. Latourette, K.S., **A History of Christianity**, pp. 357-360
8. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550**, pp. 365-372
9. Parker, T.H.L., **John Calvin, A Biography**, pp. 82-132.
10. Potter, G. R. and Greenglass, M. **John Calvin** pp. 57-109
11. Schaff, philip, **History of the Christian Church Vol. V11**, pp. 433-515
12. Walker, Williston, **Church History**, pp. 353-357
13. Walker, Williston, **John Calvin**, pp. 262-375
14. Wendel, Francois, **Calvin**, pp. 69-107

رابعاً: تعليم كالفن

كالفن لاهوتى الإصلاح

وليس المجال هنا أن نشرح وبتوسع علم اللاهوت فى مفهوم كالفن. فمثل هذا الموضوع سبق أن استوفاه الدكتور حنا الخضرى فى كتاباته. ويكفى القول بأن كالفن، بأسلوبه المنطقى القوى، جمع ونسق الفكر الإصلاحى بطريقة تقدم الإيضاح والتوجيه لكل الحركة البروتستانتية. عبر أحد الكتاب عنها بقوله: «لقد أنجز كالفن الآن الشئ الواضح الذى لم يكن عالم لاهوتى (ولا حتى ميلانكتون) بقادر على إنجازه فى حينه. فلم يقدم صيغة أصلية جازمة لمبادئ الإصلاح الرئيسية فحسب، بل إنه مزج هذه المبادئ وشكلها عجينة واحدة لإبراز الإيمان المسيحى بطريقة علمية.^(١)

معرفة الله ومعرفة أنفسنا

سوف نشير وبإيجاز إلى العديد من تعاليم كالفن الأساسية، قبل كل شئ يجب ملاحظة أن كالفن يؤسس علم لاهوته على فرضين بسيطين. كما قال هو. «غالباً كل العقيدة المقدسة تتألف من هذين الجزئين، معرفة الله، ومعرفة أنفسنا. «يقول باركر» فى تعليقه على كتاب «الأنظمة»، «هذا التفهم العميق جداً للعلاقة بين الله والناس وبالتالى للاهوت، لا يستنفذ مع الفصل الأول. إنه يرافقنا على مدى كتاب الأنظمة كفرض مسبق لأى عقيدة تحت الحوار.^(٢) والموضوعات التى كانت بصفة عامة تحظى بأعظم اهتمام، وفى بعض الأحيان تكون موضوع لأعنف المشادات، هى كتابات كالفن عن: (١) الكتب المقدسة (٢) التعيين السابق (٣) سر الأفخارستيا ووحدة الكنيسة.

(1) Parker, op. cit., p. 50

(2) Ibid, p. 131

(أ) كالفن: عن الكتاب المقدس

المعرفة الحقيقية فى الكتاب المقدس

لا ننسى أن لوثر كان له شعاره «Sola Scriptura»، «أى الكتاب المقدس وحده»، (انظر صفحة ١٢٢). كان من رأيه أن البابوية باحترامها للتقاليد فوّضت أساس الإيمان المسيحى بشكل خطير. كان كالفن متفقاً كل الاتفاق مع لوثر على هذه النقطة. لكنه بعد ذلك تقدم ليمضى بعقيدة «الكتاب المقدس وحده» إلى أقصى تضميناتها. والسبيل الوحيد الممكن لإيجاد الإجابة على موضوعيه الرئيسيين: معرفة الله ومعرفة أنفسنا هو عن طريق الكتاب المقدس. صحيح أننا عن طريق المعرفة العامة والمشاركة قد ندرك بشكل عام أن الله موجود وله غرض فى خليقته. لكن مثل هذه المعرفة لا تكفى إلا لإقناعنا بأننا خطاة. لا توجد معرفة حقيقية وملائمة عن الله وعن أغراضه للناس إلا فى الكتاب المقدس.

الكتاب المقدس وحده يكفى

هكذا فإن الكتاب المقدس أصبح حجر الزاوية للفكر اللاهوتى لكالفن. كما قال هو: «إن الذى استطاع اللاهوتى أن يقوله بنفسه عن الله كان عبثاً باطلاً. عليه أن يترك نفسه لإرشاد الله نفسه فى الكتاب المقدس. لا أحد يحصل على أقل درجات الفهم للعقيدة الصحيحة المؤدية للخلاص ما لم يصبح أولاً تلميذاً للكتاب المقدس. الكتاب المقدس - هانه داخل نفسه. بفضل تنوير الروح القدس نعرفه «ككلمة الله». وإذا اتخذنا الكتاب المقدس وحده تكون رسالته الأساسية واضحة لا غموض فيها».^(١)

(1) Quoted by Iserloh, op. cit. Vol. V, p. 377

كالفن مفسراً للكتاب المقدس

كان مقدراً لقضايا الاختلاف على النصوص والنقد على المستوى الأعلى أن تظهر في عصر كالفن. ومع ذلك فالذين نهجوا أسلوبه التفسيري، استقر رأيهم على أنه عالج كلمة الله بالبحث العميق والالتزام بالمسئولية ساعياً دائماً وراء وضوح المعنى. لقد اتهم بأنه دفع بمنطق فكره اللاهوتي بعيداً عن البرهان الكتابي، خصوصاً في عقيدة التعيين السابق. ومع ذلك فإنه بحساب المستويات الدراسية العليا في عصره يأتي ترتيبه بين أقدر وأثبت مفسري الكتاب المقدس. البحث في أعماق ومرتفعات الكتاب المقدس كان بالتأكيد المبدأ المرشد لكل دراساته وكتابات. هكذا كتب للملك إدوارد السادس في خطاب الإهداء للرسائل الكاثوليكية سنة ١٥٥١: «إنه من واجب اللاهوتيين الإنجيليين كذلك أن يشرحوا الكتاب المقدس حتى يظهر معناه الحقيقي. لقد كرست باقى حياتي لهذه المهمة».^(١)

(ب) عقيدة التعيين السابق Predestination

العقيدة الرهيبة

نأتى الآن إلى ذكر تلك العقيدة التي اشتهر بها كالفن أعظم شهرة، والتي تسببت في أعنف المجادلات والمشادات وهي عقيدة: «التعيين السابق». هذه العقيدة لم تبدأ مع كالفن إذ يمكن أن نجدها في كتابات أوغسطينوس وتوما الأكويني ومارتين لوتر وآخرين. لكن كالفن بنوع خاص هو الذى فسر أبعاد مضمونها. في إعلانه بأن الله اختار (انتخب) من الأزل أولئك الذين سيخلصون وأولئك الذين تحل عليهم اللعنة، ذهب كالفن بالعقيدة إلى أقصى نتيجتها المرعبة. كالفن نفسه أسماها «عقيدة رهيبة».

(1) Quoted by Parker, op. cit. p. 75

الله يختار الإنسان إما للخلاص أو للهلاك

كان هذا المبدأ مخيفاً وعسير الفهم لكالفن نفسه، ذلك هو المبدأ القائل بأن الله يختار الإنسان إما للخلاص أو للهلاك طبقاً لمبدأ «SOLI DEO GLORIA» (المجد لله وحده) كان هذا مبدأ كالفن السائد. كان تحدياً منه للمبدأ «البيلاجيوسى» الذى ساد فى الفكر اللاهوتى الكاثوليكي.^(١) ومن رأيه أن كل البيانات اللاهوتية يجب اختبارها مقابل هذا المبدأ. ولا يمكن القول بشيء مختلف فى الزمن أو الأزل سوى أنه يعطى مجداً لله. لم يتعب كالفن قط من شرح تضمينات التعيين السابق، قال: «إن إبليس والشياطين يتصرفون بأمر من الله. لا يمكنهم إدراك أى شر، وحين يدركونه لا يجدون الوسيلة لفعله، وبعد أن يجدوا الوسيلة لا يستطيعون أن يحركوا أصبعاً واحداً صغيراً لتنفيذه إلا من حيث يأمرهم الله. بإرادة الله تسبق كل الأحداث مهما صغر حجمها وتسبق الأعمال من كل الأبدية، خيراً كانت أم شراً حسب قصده، بعضهم يدبر الله أمر خلاصهم بالنعمة (لأن جميع الناس خطاة ويستحقون الهلاك)، والبعض يقصد إدانتهم. إذا سألنا لماذا يرحم الله البعض ولماذا يتخلى عن آخرين. فلا توجد إجابة أخرى سوى أنه يرضيه أن يفعل ذلك. زد على هذا أن هلاكهم الأبدى ينبثق من سبق تعيين الله بطريقة تجعل السبب وشأنه يوجدان فى أنفسهم. الإنسان يتعثر ويسقط، ثم، وحتى حسب تعيين الله يجب أن يسقط، لكنه يسقط بسبب فجوره»^(٢)

وسلى يفند «التعيين السابق»

كثيرون صدموا بعقيدة «التعيين السابق» لكن أبلغهم وأفصحهم كان جون

(١) لعلنا نذكر أن بيلاجيوس PALAGIUS هو الذى اختلف مع أغسطينوس على موضوع...

التعيين السابق وحرية الإرادة (انظر مجلد ٣)

(2) Quoted by Paul Johnson, A History of Christianity, Atheneum New York, 1977, p. 287 .

وسلى بعد كالفن بمائتى سنة. قال: «إن هذه العقيدة (التعيين السابق) تجعل كل الكرازة عبثاً وتجنح إلى هدم القداسة والاطمئنان فى الدين والغيرة للعمل الصالح، نعم وتهدم كل الإعلان المسيحى بتورطها فى متناقضات مهلكة. إنها عقيدة ملأى بالتجديف لأنها تظهر ربنا المبارك منافقاً ومخادعاً للناس، كشخص يخلو من الإخلاص العام حيث يهزأ بمخلوقاته التى لا حول لها بتقديم ما لا ينوى قط تقديمه، فيقول شيئاً ويعنى شيئاً آخر. إنها تهدم كل صفات الله، عدله ورحمته وحقه، نعم، إنها تجعل الله كلى القداسة كأنه أردأ من الشيطان، وكأنه أكثر تلفيقاً وأكثر قسوة وأكثر ظلماً. (١)

حرية الإرادة

كاتب آخر «دوم بوليت Dom Poulet، يوضح التناقض الواضح بطريقة ألطف، حيث قال. «علاوة على ذلك، من لا يستطيع أن يرى المجد الإلهى الذى ابتغى كالفن أن يضحى بكل شىء فى سبيله..... إنه لن يكون أكثر إشراقاً إلا فى الإنسان الحر، حر فى أن يرفض، لكن أيضاً حر فى أن يسلم نفسه. (٢)

التعيين السابق يحفز على الحياة المستقيمة

ومع ذلك فإن كالفن ومجموعة من رفاق آخرين لهم معتقدات متشابهة. رأوا فى عقيدة التعيين السابق حافزاً قوياً على الحياة باستقامة واطمئنان. التناقضات لا تهم. القوة كلها فى يد الله. المختارون يستمرون فى حالة آمنة لا تقوى على هدمها قوة بشرية. كما قال كالفن، «لا يمكن أن نخدم الله بدون ذهن مطمئن، لأن الذين يعملون فى بلبلة، الذين يتنازعون فى داخلهم عما إذا كان الله متعطفاً أن

(1) Quoted by Schaff, op. cit. Vol. V11, p. 566

(2) Quoted by Daniel Rops, op. cit., p. 408

مستاءً، إذا كان سيقبل أو يرفض صلواتهم . أولئك الذين يتذبذبون بين الأمل والخوف، ويقلق يخدمون الله، لن يمكنهم أن يخضعوا أنفسهم بنية خالصة وإخلاص قلبى». ^(١) ويضيف بانتون Bainton التعليق التالى: «عقيدة الاختيار عند كالفن كانت اطمئناناً وتعزية لا ينطق بها لأنها أزاحت كل الهموم وحررت الإنسان من الاهتمام بنفسه لكى يكرس كل نشاط للخدمة المباشرة للسيد الرب. ^(٢)

لوثر والإيمان وحده

من الأهمية بمكان أن نذكر أن بعض الكتاب يعتقدون أن كالفن ملأ ثغرة هامة فى اللاهوت طبقاً للوثر عن الخلاص. طبيعى جداً أن لوثر كان مهتماً قبل كل شىء بأن يضع فى مكان بر الأعمال عند الكاثوليك، التأكيد المؤكد للخلاص بالإيمان، اعتقاد لوثر الراسخ بأن الأعمال لا دور لها فى خلاص النفس ترك نفوساً كثيرة فى قلق. إذ يبدو أن تعليمه يعنى أن الفضيلة والبر لا يمكن بأى طريقة أن يأخذهما الله بعين الاعتبار.

قلق لوثر على الأعمال الصالحة

جدير بنا أن ندرج الفقرة التالية التى يشرح فيها لوثر بنفسه أن القلق «حتى حين يُدرس الخلاص بالإيمان بأفضل وسيلة ممكنة، من الصعب أن نتعلمه جيداً بالمقدار الكافى، خصوصاً بالنسبة لنا نحن الذين تعودنا وتدرينا على عقيدة الأعمال، ولم نركز إلا على الناموس وذواتنا. بخلاف هذا توجد طبيعتنا الخاصة التى هى نفسها منعطفة نحو هذا الاتجاه. عقيدة الأعمال تنغرس أيضاً وتتقوى بالعادة... حتى لا نستطيع الفكاك منها، أو نفتكر أى شىء سوى أنى لو عشت

(1) Quoted by Roland Bainton, The Reformation of the 16th Century, Bacon Boston, 1952, p. 117

(2) Ibid

حياة مقدسة وأدبت أعمالاً عظيمة عديدة فسوف يكون الله رحيماً بى. لذلك يجب أن نخاصم كلنا طبيعتنا والعادة القوية. ومن العسير جداً أن نكون عادة أخرى للتفكير نفصل فيها بوضوح الإيمان وأعمال المحبة... لأننا حتى لو كنا فى الإيمان الآن، فالقلب دائماً مستعد أن يتباهى بنفسه أمام الله ويقول: «لكنى كرزت مدة طويلة وعشت عيشة صالحة وقمت بالكثير من الأعمال، فبالتأكيد سيأخذ الله هذا فى الاعتبار، بل إننا نرغب حتى فى مساومة الله لكى نجعله يهتم بحياتنا... لكن هذا لا يمكن أن يتم. مع الناس يمكنك أن تفتخر. لقد قدمت أحسن ما عندى نحو كل شخص، فإذا نقص أى شيء مازلت أحاول تعويضه، لكن عندما تأتى أمام الله أترك كل هذا التفاخر فى البيت وتذكر أنه ليس بالعدل بل بالنعمة. لكن، دع أى إنسان يجرب هذا ولسوف يرى ويختبر كم هو شيء عسير جداً ومربى على الإنسان الذى خلط حياته كلها فى بر العمال، أن يسلم نفسه منها، ويرتفع بكل قلبه بالإيمان والثقة فى الشفيع الواحد. أنا نفسى ظلمت أبشر وأزرع ذلك عن طريق القراءة والكتابة لمدة عشرين سنة تقريباً ومازلت أشعر بالقذارة القديمة المتعلقة بى المتعلقة بحاجتى إلى التعامل مع الله بأن أساهم بشيء حتى يضطر أن يعطينى نعمته فى مقابل قداستى. ومازالت عاجزا عن إدخال الفكرة فى رأسى بأننى يجب أن أخضع نفسى بكليتها للنعمة الخالصة، ومع ذلك أعرف أن هذا ما يجب ويلزم أن أفعله».^(١)

الأعمال الصالحة كبرهان الخلاص

اتفق كالفن تماماً مع لوثر على أن الخلاص بالإيمان وحده. لكنه استطاع عن طريق عقيدة التعيين السابق أن يعطى صلاحية لدور تقديس الأعمال الصالحة كبرهان يتزايد ويستمر عند المؤمن بأن خلاصه قد تأكد. ويبدى «أوزمنت Ozment»

(1) Quoted by Ozment, op. cit. p. 375

القديس التابع لعقيدة كالفن يخلص بالإيمان الراسخ ومتقوياً بالأعمال التى تثبت الحضور الإلهى ونعمته. لا يقول إنه خلص بهذه الأعمال، ومع ذلك فإن الأعمال الصالحة المنتظمة علامات واضحة للفضل الإلهى الموجود، وتؤكد له أنه على طريق المجد» تتكون الثقة الدينية نتيجة التدريب الذاتى، وبالمثل عن طريق وعود الله. الأعمال الصالحة برهان افتراضى على أن الشخص ضمن المختارين..... الكالفينية تقول إن وجود أو غيبة الأعمال الصالحة تُعد تفسيراً للنصيب الأبدى للإنسان»^(١).

الحكم الأخير متروك لله

هذه العقيدة أصبحت كما رأينا أساساً لنظام كالفن فى كنيسة جنيف ومجتمعها. ومع ذلك فقد كان دائماً حريصاً أن يميز بين النظام الدينى، الذى تفرضه أعمال الشخص، وبين الحكم الأخير على روح نفس الشخص. ويعكس فكرة شائعة يتمسك بها البعض فإنه لم يسمح للكنيسة أن تفتصب مكان الله. يجب علينا أن لا نشطب «المحرومين» من قائمة المختارين أو نبأس منهم، كأنهم انتهوا إلى الضياع.... وكلما زاد إدراكنا الحسى تتأصل بالكبرياء والعناد فيهم بدلاً من الاتضاع، وجب علينا بالأكثر أن نسلمهم ليد الله ونستودعهم لصلاحه، آمليين فيما هو أفضل للمستقبل بدلاً من رؤيتنا الحاضرة.^(٢)

(ج) سر الأفخارستيا ووحدة الكنيسة

السر المقدس والوحدة لهما أهمية عند كالفن

لقد اخترت أن أناقش هذين الموضوعين تحت عنوان واحد لأنهما، كما سوف ترى، متصلان عن قرب. هناك اتجاه للتغاضى عن الأهمية الأساسية للسر المقدس

(1) Ibid, p. 378

(2) Wendel, op. cit., p. 284

فى تفكير كالفن وأيضاً موضوع الوحدة فى كل تعليمه.

الله يظهر نفسه فى الأسرار المقدسة

السر المقدس عند كالفن أكثر كثيراً من مجرد رمز. «فى الأسرار المقدسة يهيبىء الله نفسه لندركه ويرشدنا فى نفس هذه العناصر المادية إلى ذاته. يجعلنا نرى فى ذات الجسد الأشياء المتعلقة بالروح». ويفسرها «باركر Parker» فى قوله «الوظيفة الوحيدة للأسرار المقدسة هى أن تحول أفكارنا لرؤية وعود الله، أى تجعل «الكلمة» مدركة لحواس أخرى غير حاسة السمع. اللاهوت طبقاً لكالفن هو لاهوت الأسرار المقدسة. الله لا يلاقى الإنسان مباشرة إلا بواسطة ما هو بالفعل مرجعه اصطلاح بشرى».

فى ترتيب ما يسميه كالفن «موازنة الخلاص» نلاحظ المكانة الجوهرية للسر المقدس:

- (١) الرب يعلمنا عن طريق كلمته.
- (٢) ثم يؤيدها فى الأسرار المقدسة.
- (٣) أخيراً يشرق على عقولنا بنور الروح القدس ويفتح طريقاً إلى قلوبنا «بكلمته وأسراره المقدسة». (١)

كالفن أقرب إلى لوثر إزاء سر الأفخارستيا

يتجه الفكر العلمى إلى الحكم بأن كالفن كان أقرب إلى لوثر منه إلى زوينجلي فى تفسير سر الأفخارستيا. فيما يلى بيان وضعه كالفن وفاريل بناء «على طلب

(1) Parker, op. cit., p. 42

بوكر» فى سنة ١٥٣٧: «يقدم لنا المسيح فى سمات الخبز والخمر مشاركة حقيقية فى جسده ودمه. لكن هذا لا يعنى الحلول الموضعى (أى مادة الجسد الفعلية) التى نحرم منها بسبب صعود المسيح بالجسد. إن روحه القدوس ليس محدوداً فى نشاطه بأى شكل. إنه رباط مشاركتنا وتغذيتنا بمادة جسد المسيح ودمه». المؤرخ الكاثوليكي ايزرلو يكتب ما يلى:

«ضد لوثر، يرفض كالفن الحلول الموضعى والتاريخى والجسدى وضد زوينجلي، يؤكد حقيقة الشركة فى جسد المسيح ودمه لدرجة أنه لا يخلج حتى من كلمة «مادة». كالفن بنفسه علق بالقول: «من السهل أن نرى زوينجلي يشغل باله كثيراً باستئصال شأفة الخرافة حول الحلول الجسدى للمسيح، وفى نفس الوقت ينبذ القوة الحقيقية للاتحاد مع المسيح أو على الأقل يطمسها».^(١)

المسيح حال فى سر الأفخارستيا

يشرح «ويندل Wendel، موقف كالفن كما يلى: «بينما يرفض كالفن الحلول الجسدى فى العناصر، ينادى بأن المسيح بجملته موجود حقيقة فى ناسوته وإلهيته».^(٢)

أعضاء فى جسد المسيح

سر الأفخارستيا عند كالفن كان عطية الله الفريدة للمجتمع المسيحى والوسيلة الكاملة لتحقيق وحدتهم كأعضاء فى جسد المسيح. لاحظ أسئلة كالفن للمؤمن لاختبار استحقاقه قبل تناول العشاء.

(١) هل عندى ثقة داخلية فى مخلصى الذى يقدم لى نفسه هنا؟

(1) Iserloh, op. cit. p. 385

(2) Wendel, op. cit. p. 343

(٢) هل أعترف بإيماني بالمسيح؟

(٣) هل أنا مستعد أن أسلم نفسي لإخوتي وأكون واحداً معهم.

إحساسه بالعضوية في الجسد. ذات جسد المسيح، كان حاداً جداً لدرجة قوله، «نحن لا نستطيع أن نؤدى أو نغتاب أو نهزأ أو نحتقر أو نعثر شخصاً من إخوتنا دون أن نكون في نفس الوقت ملحقين الأذى والافتراء والاستهزاء والاحتقار بالمسيح، في ذلك الشخص. لا يمكن أن نكون على خلاف مع إخوتنا دون أن نكون في نفس الوقت على خلاف مع المسيح، لا يمكن أن نحب المسيح دون أن نحبه في إخوتنا. (١)

مبدأ الوحدة في فكر كالفن

السطور السابقة تقودنا طبيعياً إلى اعتبار أهمية الوحدة في فكر كالفن. إنه في الحقيقة موضوع رئيسى. ويصرح باركر بأن كل تأكيداتنا، لا تكفى على أن مفهوم الوحدة يسيطر على فكر كالفن..... وحدة الثالوث الأقدس. وحدة الله والإنسان في يسوع المسيح. وحدة الرأس والجسد. وحدة الجنس البشرى. وتعتمد وحدة يسوع مع الجنس البشرى على وحدة الله مع الإنسان في المسيح..... (٢) في المجلد الرابع من كتاب «الأنظمة» موضوع رئيسى هو الوحدة التى يجب على المسيحيين أن يتمسكوا بها مع الكنيسة. إنه مغرم بالاعتباس من «كيبريان - Cyprian an» (انظر المجلد الثانى صفحة ٨١) «لا يستطيع أحد أن يتخذ الله أباً دون أن يتخذ الكنيسة له أمّاً. ويوسع كالفن هذه الصورة فيقول: لا توجد وسيلة للدخول في الحياة الأبدية إلا إذا حملتنا هذه الأم في أحشائها، وولدتنا وأرضعتنا من ثديها، وحافظت علينا تحت رعايتها وحمايتها، إلى أن نخلع هذا الجسد الفانى

(1) Quoted by Parker, op. cit. p. 46

(2) Ibid, p. 39

ونصير مثل ملائكة الله. (١)

الكنيسة كجسد المسيح

فى المجلد الرابع، الفصلين الأول والسابع من كتاب «الأنظمة» يقدم كالفن هذا التصريح، «نحن الكنيسة الكاثوليكية المقدسة. نؤمن بأنه توجد كنيسة واحدة وشركة واحدة وشعب واحد لله الذى حاكمه ورئيسه الأعلى المسيح ربنا كرأس الجسد. هذه الشركة كاثوليكية أو جامعة حيث لا يمكن أن توجد شركتان أو ثلاثة، لكن بدلاً من ذلك يكون كل مختارى الله متحدين وممسوكين معاً فى المسيح، حتى إنهم باعتمادهم على الرأس الواحد، ينمون ويكبرون جسداً واحداً. وبالتبادل يساندون الواحد الآخر كأعضاء فى جسد واحد». (٢)

كالفن يعمل من أجل اتحاد الكنيسة

ومن أجل اتحاد أفرع عديدة للكنيسة البروتستانتية بذل كالفن قدراً كبيراً من الجهد. فقد وقع على اعتراف أوجسبرج لسنة ١٥٣٠ (انظر صفحة ١٨٢) وعمل بدون كلل ليجمع شمل الفرق المصلحة فى سويسرا. «اتفاق» تيقيوريناس «The Consensus Tigurenus» كان وثيقة اتحاد بين جنيف وزيورخ تم توقيعها فى وقت لاحق من «باسل Basle» و«نيوشاتل Neuchatel» و«بييان Bienne» و«بيرن Bern». لما كتب رئيس أساقفة كنتيرى بالملجترا إلى كالفن مقترحاً عقد اجتماع لكل القادة البروتستانت فى أوروبا استجاب كالفن، «ليت الله يشاء بأن يكون لنا رجال متعلمون وملتزمون من الذين أخذوا عن الكنائس الرئيسية، يجتمعون معاً لمناقشة بنود الإيمان، ولكى يسلموا الذين يأتون بعدنا التعليم اليقيني للكتاب المقدس، حيث أنه مشاع للجميع. يجب أن يُحسب ضمن أردأ الشرور لدورنا التاريخى. إن

(1) Ibid, p. 134

(2) Quoted by Iserloh, op. cit., p. 384

الكنائس بانفصالها الواحدة عن الأخرى، تحول دون وجود مجتمع إنسانى بيننا، وما زالت تلك «الشركة المقدسة» أقل بين أعضاء المسيح، تلك الشركة التى يعترف بها الكل، لكن قليلين جداً يحرثون ويزرعون فى الحقيقة. ^(١)

لا اتحاد مع الكاثوليك

لم يحد كالفن عن الصواب إذ لم يفكر أبداً فى العودة للاتحاد مع روما. كان هذا أمراً مستحيلاً فى عصره. فالكنيسة الكاثوليكية من وجهة نظر كل المصلحين لم تعد كنيسة الله. كان الإنجيل غائباً فى البابوية، وانحرفت الأسرار المقدسة عن معناها. هذه الكنيسة لم يكن ممكناً أن تكون جسد المسيح. «لقد اضطررنا أن نتركهم لنأتى إلى المسيح». سلم كالفن بأنه قد توجد فى الكنيسة الكاثوليكية بقايا من الكنيسة الحقيقية لكنى: «أقول إن كل كنيسة بمفردها والجسد كله يفتقد إلى نموذج الكنيسة الأصلية». كان على الكنيسة (البروتستانتية والكاثوليكية) أن تنتظر ٤٠٠ سنة قبل أن تأتى مسكونية أوسع إلى الوجود. ومع ذلك فإن كالفن هو الذى فصل بوضوح مبدأ اللاهوت الكتابى للحركة المسكونية.

(1) Quoted by Wendel, op. cit., p. 310

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen, **The Reformation**, pp. 92-96
2. Grimm, H.J., **The Reformation Era-1500-1650**, pp. 351-355
3. H. Daniel-Rops, **The Protestant Reformation**, pp. 401-412
4. Harkness, Georgia, **John Calvin, the Man and His Ethics**, pp. 63-123
5. Iserloh, Erwin, **History of the Church**, Vol. V, pp. 376-380, 383-390
6. Latourette, K.S., **A History of Christianity**, pp. 752-757
7. Mackinnon, James, **Calvin and the Reformation**, Russell and Russell, New York, 1962, pp. 214-270
8. Ozment, Steven, **The Age of Reform, 1250-1550**, pp. 372-380
9. Parker, T.H.L., **Calvin, A biography**, pp. 34-50, 133-139
10. Potter, G.R. and Greengrass, M., **John Calvin**, pp. 17-42
11. Schaff, Philip, **History of the christian Church**, Vol. V I I, pp. 524-593
12. Walker, Williston, **A History of the Christian Church**, pp. 350-352
13. Walker, Williston, **John Calvin**, pp. 409-428
14. Wendel, Francois **Calvin**, pp. 150-355

خامساً: تأثير كالفن فى دول أخرى

كالفن المصلح الدولى

دُعِى كالفن بلقب له ما يبرره وصفوه بأنه «المصلح الدولى الوحيد». صحيح أن لوثر هو الذى قام بأعظم مواجهة درامية مع روما، لأنه لا يوجد فى سيرة كالفن شىء يمكن مقارنته بمواجهة لوثر فى «ورمز Worms». ومع ذلك فإن كالفن هو الذى نظم وعزز جهد الإصلاح ليتسع انتشاره ويصل إلى ما وراء حدود جنيف وسويسرا نفسها.

(أ) أسباب انتشار الكالفينية

كتاب «الأنظمة»

السبب الأول لتأثير كالفن الدولى كان تحفته (أفضل أعماله) كتاب «الأنظمة» The Institutes، ومن بين كل الكتب الأخرى كان هذا الكتاب أوضحها، وأعظمها منطقاً، وأبرزها عرضاً للإيمان الإصلاحى. ترجم هذا الكتاب إلى أهم اللغات الأوروبية، وأصبح بسرعة المرجع المفضل لدى المصلحين فى فرنسا وهولندا ومناطق من ألمانيا، وفى إنجلترا وإسكوتلاندا وإيطاليا وبولندا. كان كتاب «الأنظمة» المرجع الأساسى لإقرارات الإصلاح المختلفة التى تطورت فى سنوات تالية.

جنيف المدينة النموذجية

السبب الثانى بعد قوة «الأنظمة» كان نجاح كالفن فى تنظيم مدينة جنيف. ومع أن نجاحه لم يتحقق إلا بعد صراع طويل مرير، فإن جنيف كمجتمع صالح تطلع إليها المصلحون الآخرون كإنجاز مثالى. لذلك لم تصبح فقط مأوى آمناً للاجئين، بل

مدينة نموذجية تجذب الناس لزيارتها ودراسة أنظمتها، وإنشاء مدن على غرارها في بلاد أخرى. وإذا اعتبرت سلطة كالفن في جنيف في رأى أجيال لاحقة أنها كانت سلطة صارمة جائرة، فإن معظم البروتستانت، إن لم يكن كلهم في عصره، يتفقون مع جون نوكس John Knox بأن جنيف كانت «أكمل مدرسة للمسيح وُجدت على الأرض منذ أيام الرسل»

أكاديمية جنيف

يجب أن نضم إلى ما ذكرنا آنفاً وجود أكاديمية جنيف التي جذبت طلاب الدراسات العليا من كل بلد وسرعان ما أصبحت المعهد المفضل على كل المعاهد الأخرى لتعليم لاهوت الإصلاح. لذلك بقيت لمدة مائة سنة بعد موت كالفن.

مراسلات كالفن

لم يكن كالفن نفسه مفتقراً إلى اختبار دولي. فقد قام في شبابه برحلات واسعة إلى فرنسا وإيطاليا. وأتاحت له إقامته القصيرة في استراسبورج أن يتصل مباشرة مع المصلحين الألمان. أضف إلى ذلك مراسلاته التي تفوق الحصر مع القادة المصلحين في البلاد المذكورة سابقاً. سجل الدارسون قائمة تحتوي على ٤٢٧١ خطاباً كتبت إلى ٣٠٧ أشخاص. وليس من شك في أنه قد فقدت رسائل أخرى عديدة. ولم تقتصر مراسلاته على رجال الكنيسة، فقد كتب إلى كل من «مارجريت دي أنجوليم Marguerite d'Angouleme» ملكة «نافارى Navarre» (فرنسا)، وإلى فرانسيس الأول ملك فرنسا، وإدوارد السادس ملك إنجلترا، وفريدريك الثالث، ناخب بالاتينات Palatinate (ألمانيا) وإلى الأمير فيليب الهسي (ألمانيا) وإلى سيجمون أوغسطس Sigismuns August ملك بولندا.

كالفن يلهم مصلحين آخرين

كتب «ولستون ووكر Williston Walker»: «شكراً لكتاب الأنظمة». ونموذج تنظيم الكنيسة. والأكاديمية، وتفاسيره، ومراسلاته المستمرة، إنه صب الفكرة وشكلها وألهم فرنسا وهولندا وإسكوتلاندا والإنجليز البيوريتان المثل والقيم العليا البروتستانتية. كما تعدى تأثيره هولندا والمجر، وقبل موته ثبتت الكالفينية جذورها في جنوب غرب ألمانيا نفسها. طريقته كانت الوحيدة التي أسفر عنها الإصلاح الذي استطاع أن ينظم نفسه بقوة في وجه عداوة الحكومة. إنه أسلوب درب رجالاً أقوياء واثقاً في اختيارهم أن يكونوا شركاء خدمة مع الله في إنجاز مشيئته، شجعان للقيام بالمعركة. مصرين على الأخلاق القوية واثقين في أن الله أعطى في كتابه المقدس الإرشاد لكل السلوك الإنساني المستقيم والعبادة الصحيحة. (١)

(ب) الكنائس المصلحة في فرنسا

كالفن يشجع البروتستانت الفرنسيين

كما يذكر أن الاضطهاد طرد كالفن من فرنسا باديء ذي بدء. هذه الاضطهادات استمرت ونتج عنها تدفق اللاجئين إلى جنيف. شكل الملك الفرنسي هنري الثاني محكمة خاصة لمحاكمة البروتستانت. لما سمع كالفن عن هذا الحكم المرعب، كتب لمواطنيه رسائل تشجيع قائلًا: «هناك كثيرون في فرنسا ممن يريدون أن يحتضنوا الإنجيل، لكنهم يخافون على أنفسهم وعلى عائلاتهم. وأقول لهؤلاء إنه يجب عليهم أن يتخلوا عن حكمتهم الأرضية وعن شعورهم بأنهم أحكم من الله، وعليهم إطاعة كلمته. لا حاجة بهم إلى أن يسعوا وراء الاضطهاد، ولا حاجة للقيام بأعمال

(1) Walker, A History of the Christian Church, pp. 356,357

متهورة. ليتهم يطيعون كلمة الله فقط، ليست طاعة ضئيلة، ملتجئين العذر بضعفهم، لكن ليهدفوا إلى الطاعة المتكاملة. جاء نيقوديموس إلى يسوع في المساء في وقت جهله، إلا أنه لما وعى الدرس اعترف بالمسيح علانية في النهار، حتى في ساعة أخطر الأحداث.^(١)

تنظيم الكنيسة الفرنسية المصلحة

أرسل كالفن أيضاً كتب الأدب الخاصة بالبروتستانت الفرنسيين وجند رعاة من جنيف للذهاب والخدمة هناك. وفي العقد التالي من سنة ١٥٤٥ - ١٥٥٥ كان في فرنسا حوالي خمسين كنيسة منظمة. في سنة ١٥٥٩ أصدر سنودس الكنائس الفرنسية إقراراً للإيمان يسمى «الإقرار الجاليلكاني Gallican (فرنسي)». وفي سنة ١٥٦٢ أرسل مائة راع من جنيف للخدمة في فرنسا. خمسة من هؤلاء الشبان خدام الإنجيل قبضت عليهم السلطات وأدانتهم وحكمت عليهم بالموت. فكتب إليهم كالفن يقول: من حيث يبدو أن الله يستخدم دماءكم رمزاً لحقه، فلا شيء أفضل لكم من إعداد أنفسكم لذلك، مصلين إليه أن يخضعكم لمرضاته حتى لا يمنعكم شيء من اتباعه إلى حيثما يدعوكم..... وبما أنه يرضيه أن يستخدمكم للموت في التمسك بحقه، فإنه سيقوى أيديكم في المعركة ولا يسمح بنقطة واحدة من دمكم أن تسفك عبثاً». ^(٢) كان هذا نموذجاً مثالياً لنوع التشجيع الذي استمر كالفن في تقديمه للكنيسة الفرنسية طول حياته.

البروتستانت يصبحون قوة سياسية في فرنسا

جذبت هذه الكنيسة بعض الأعضاء من أشرف فرنسا الذين كونوا بسرعة قوة سياسية عرفت «بالهيجينيات The Huguenots» وبحلول سنة ١٥٦٠ شعروا بأنهم

(1) Quoted by Parker, op. cit., pp. 145-146

(2) Ibid, p. 147

أقوياء بدرجة كافية لتحدى التاج الكاثوليكي. كان كالفن متعاطفاً معهم مبرهنًا أنه من أجل راحة الضمير، يجوز للمسيحي أن يعارض الحاكم عندما تصبح حكومته فوق طاقة الاحتمال. ومع ذلك نصح بعدم استعمال القوة، وعندما فقد البروتستانت فرصتهم بسبب تغييرات سياسية تنصل كالفن من محاولة الثورة. وقد قال هو: «من هذه المؤامرة سوف تتدفق أنهر من الدماء».... لقد كانت نبوة مشئومة لأن الحرب الأهلية اندلعت بعد ذلك وكانت من أشد الحروب سفكاً للدماء في تاريخها. الكنيسة المصلحة عاشت كأقلية لكن لم يكن لها بعد ذلك تأثير سياسى قط.

(ج) الكنيسة المصلحة فى البلاد الواطئة^(١)

(هولندا وبلجيكا اليوم)

كان تأثير كالفن فى فرنسا مباشراً وشخصياً. هذا لم يكن ممكناً أن يقال عن الأراضى الواطئة (هى اليوم هولاندا وبلجيكا). وصلت الكالفينية إلى هناك عن طريق تواجد البروتستانت الفارين من الاضطهاد فى فرنسا وإنجلترا وأيضاً بواسطة الرعاية المرسلين من جنيف ولوزان. سياسياً، البلاد الواطئة، كان يحكمها الأسبان الذين كانوا بالطبع كاثوليك. هنا كان الاضطهاد الفظيع لجماعة منكرى تعميم الأطفال (The Anabaptists) واللوثريين. هكذا وجدت الخوافز الدينية والسياسية ضد أسبانيا التى بعد سنوات صراع طويلة تحت قيادة «وليم أورانج-William Or-ange» كسبت الاستقلال لهولندا فى سنة ١٥٨١. المنطقة الجنوبية المعروفة الآن بأنها بلجيكا بقيت كاثوليكية بينما الشمال، هولندا بروتستانتية. تأثير كالفن

(١) البلاد الواطئة عرفت دائماً بهذا الاسم لأن مستوى أرضها أدنى من سطح المحيط الأطلنطى. كميات هائلة من الحواجز الصخرية أقيمت لحجز مياه البحر وحماية الأرض من الفيضان.

واضح فى الإقرار البلجيكى المعتمد من سنودس الكنيسة الهولندية المصلحة فى سنة ١٥٦٦.

(د) الكنائس المصلحة فى ألمانيا وأوروبا الشرقية

الكالفينية فى «البالاتينات The Palatinate»، وإقرار «هايدلبرج Heidelberg»

اللوثرية سادت ألمانيا بالطبع، وبالرغم من الصداقة الحميمة بين ميلاتكتون وكالفن، فإن المفارقات فى تفسير سر الأفخارستيا ومذهب كالفن الصارم فى «سبق التعيين» باعدت بينهما. أما فى جنوب شرق ألمانيا، فى منطقة كانت تدعى وقتئذ «بالاتينات The Palatinate»، كان رد الفعل للوثرية الشمال الصارمة. تأثير أكاديمية جنيف كان محسوساً أيضاً. فريدريك الثالث -منجذباً إلى تعليم كالفن- عين شابين لاهوتين ليكتبوا إقراراً جديداً للإيمان. وهذا أصبح إقرار «هايدلبرج»، مرحلة متوسطة بين الكالفينية الصافية واللوثرية الصافية. فرق أخرى اجتمعت حول هذه الحركة لثاية سنة ١٦٠٠ حين تأسست كنيسة كالفينية إقليمية.

الكنيسة المصلحة فى بولندا

فى بولندا شرقى ألمانيا اهتمت بعض الطبقات المثقفة فى كراكو «Kracow» اهتماماً مبكراً بالكالفينية وكانوا يقرأون كتاب «الأنظمة». كان كالفن نفسه يرأس الملك والملكة التى كانت من أسرة «رادزيول Radziwell» المتعاطفة مع كالفن. انعقد سنودس فى سنة ١٥٥٧ ودُعى كالفن للحضور لكنه امتنع. الكنيسة المصلحة التى انتظمت فى بولندا عاشت حتى القرن السابع عشر. لم تكتسب قط رواجاً كبيراً لدى جمهور الشعب وضعفت ضعفاً خطيراً بسبب المشاجرات الداخلية.

كالفن يبرر وجود أساقفة فى بولندا

تصرف كالفن بذهنه المفتوح إزاء سلطات الكنيسة ينكشف فى خطابه إلى الملك. بينما عارض فى الأصل مذهب الأسقفية، اعترف بأن هناك ما يبررها فى بلاد مثل بولندا: «الكنيسة القديمة أسست بطريركيات ورتبت رؤساء أساقفة على أقاليم منفصلة، حتى بهذه الوسيلة يكون من الأفضل ترابط الأساقفة فى انسجام. وعلى نفس المنوال يكون من الصواب اليوم أن يشرف أحد رؤساء الأساقفة على مملكة بولندا الممتازة، ليس فى الحقيقة أنه متسلط على آخرين وينتحل لنفسه سلطة يستلبيها منهم، لكن لأنه من أجل النظام يجب أن يتبوا المكان الأول فى السنودسات، ويغذى وحدة مقدسة بين الزملاء. على هذا النحو يمكن أن يوجد أساقفة للمدن والأقاليم لغرض الحفاظ على النظام حسبما تقتضيه الظروف، وواحد ينتخبه زملاؤه يوكل إليه بهذه المهمة فى مناسبات المحافل الأسقفية. لكن الأمر يختلف جداً لما نضفى على إنسان ما كرامة أو مقاماً من هذا النوع.. من وضع سلطة بلا حدود فى يد إنسان واحد (مثل البابا) على كل الأرض. (١)

الكنيسة المصلحة فى هنغاريا (المجر)

توجد اليوم كنيسة مصلحة فى المجر التى كانت متأثرة كثيراً بالكالفينية. أثناء انعقاد سنودس فى سنة ١٥٥٨ أعدوا مسودة للإقرار الهنغارى مأخوذ فى معظمه من «الأنظمة» ومن الإقرار الجينيفى. وبحلول سنة ١٥٦٣ انتشرت الكالفينية انتشاراً واسعاً وأدخلوا نظامها وتنظيمها المتميز.

(هـ) تأثير كالفن على إنجلترا وإسكتلندا

فى فصول لاحقة سوف نذكر بالتفصيل نجاح الإيمان الإصلاحى فى إنجلترا

(1) Quoted by Mackinnon, op. cit. p. 202

واسكتلندا. لذلك سنشير هنا إلى مجرد ملاحظات عن الكيفية التي جرت بها الكالفينية اتصالاتها المبكرة مع هذه البلاد.

الكالفينية فى إنجلترا

لدينا مشورة كالفن فى خطابه إلى دوق سومرست Somerset أثناء حكم إدوارد السادس مقدماً خطة كاملة لإصلاح الكنيسة الإنجيلية. لقد أهدى أيضاً تفاسيره لسفر إشعياء والرسائل الكاثوليكية إلى الملك. الملكة ماري خلفت إدوارد وكانت كاثوليكية، لكن لما أصبحت اليزابيث الأولى ملكة بعد ذلك، وهى بروتستانتية أتاحت فرصة أخرى. فأهدى كالفن طبعة منقحة من تفسير إشعياء إلى الملكة لكن يبدو أن تأثيرها كان قليلاً. لكن لما عاد اللاجئون الذين فروا من اضطهادات الملكة ماري، انتشرت الكالفينية مرة أخرى فى إنجلترا. وأصبح كتاب الأنظمة منتشراً ومقروءاً من كثيرين، وكان له تأثير عظيم فى إعداد البنود «التسعة والثلاثين» وفى إقرار وستمنستر والتي بدون شك أدت إلى تكوين حزب «البيوريتان-Puri-tans» فى إنجلترا.

جون نوكس يتخذ ملجأ له فى جنيف

أحدى المجالات التي جاءت بأعظم الثمار للكالفينية انفتحت عن طريق جون نوكس John Knox وفريق من المصلحين الإسكتلنديين الذين اضطهدتهم الملكة ماري وهربوا إلى فرانكفورت بألمانيا. ولما انقسم هذا الفريق بسبب النزاع على استخدام كتاب الصلاة الإنجليكاني؛ حاول كالفن أن يرأب الصدع. وجاء الفريق الذى يتزعمه جون نوكس إلى جنيف حيث رحب بهم كالفن ترحيباً حاراً. أعطاهم وبعض اللاجئين الإيطاليين الـ «أوديتوار The Auditoire»، وهى كنيسة صغيرة مجاورة لكاتدرائية بطرس الكبرى (هذه الكنيسة المعروفة الآن باسم «القديس أندراوس» مازالت تحت إدارة الإسكتلنديين كمركز عبادة للزائرين المشيخيين

الناطقين بالإنجليزية). وفى سنة ١٥٥٧ خمسون من الإنجليز والإسكتلنديين قبلوا كمواطنين فى جنيف. فى سنة ١٥٦٠ توجت اليزابيث الأولى ملكة لإنجلترا فأصبحت عودة اللاجئين إلى أوطانهم الآن آمنة لكن فقط بعد أن قدموا الشكر لحكومة جنيف من أجل كرم الضيافة الذى تمتعوا به. بعد ذلك تولى جون نوكرس قيادة معركة الإصلاح فى إسكتلندا وبما عاونه كثيراً إقامته القصيرة فى جنيف وتلمذته على يد كالفن.

(و) جهد كالفن فى العمل المرسل الخارجى

المستعمرة البروتستانتية فى البرازيل

فى سنة ١٥٥٥ ابتكر كولبنى Coligny قائد الكنيسة البروتستانتية فكرة إنشاء مستعمرة فى البرازيل. التجأ إلى كالفن ليرسل قسيسين من أتباعه لتحقيق «الرجاء العجيب لتنمية ملكوت الله وامتداده إلى أقصى الأرض» أبحرت ثلاث مراكب حاملة ٣٠٠ لاجئ واستقرت فى سنة ١٥٥٧ عند جزيرة قريبة من الساحل البرازيلى. لكن الإرسالية فشلت، لأن المبشرين - جهلاً منهم باللغة المحلية - لم يستطيعوا أن يوصلوا الإنجيل. بل بدأوا يتنازعون فيما بينهم. واتضح أن قائد المستعمرة وغد شرير وليس لديه ما يفعله فى سبيل الكرازة. بالرغم من أنه سبق أن دعا نفسه بروتستانتياً، لكنه مع ذلك أعلن نفسه فيما بعد كاثوليكياً، وبدأ يضطهد الناس فى المستعمرة. أبحر عدد من المستوطنين عائدين إلى فرنسا لكن قليلين منهم نجوا من رحلة البحر الخطرة. هذا المشروع المرسل غير الناضج ربما كان محكوماً عليه بالفشل منذ البداية، لكنه على الأقل يقدم برهاناً على إحساس كالفن بالمسئولية عن إرسالية الكنيسة فى كل أرض.

سادساً: فكر كاثوليكي عن كالفن

فى معمعة صراع الإصلاح استخدم كل من الكاثوليك والبروتستانت أقسى وأشنع لغة ضد بعضهم البعض «جيروم بولزيك Jerome Bolsec، الذى طرده كالفن من جنيف (انظر صفحة ٢٣٨) كتب قصة حياة كالفن وملأها بالأكاذيب الفاضحة. ومثل هذه الهجمات الشخصية كانت السمة الغالبة لما كُتب فى الأدب الكاثوليكي عن كالفن حتى القرن الحالى..... ولكن فى هذه الأيام، حيث أعادت الكنيسة الكاثوليكية تقييم الإصلاح، نجد لهجة مختلفة، ونجد إلى حد ما معياراً لتقدير قادة الإصلاح. وقد غيرنا نحن البروتستانت لهجتنا أيضاً ولم نعد نستخدم لغة المصلحين.

ومع ذلك يبدو أنه إلى حد ما، كان من العسير على الكنيسة الكاثوليكية أن تنظر إلى كالفن نظرة ودية كما تفعل الآن إزاء لوثر. وفيما يلي شهادة كاتب كاثوليكي (هـ. دانيال رويس H. Daniel Rops) كتبها فى سنة ١٩٦١.

«إلى كالفن تنسب البروتستانتية نظامها، وإيمانها المشترك، ورعاتها، وأساليبها، وأيضاً ذلك الوجه الوقور الذى نعرفه جيداً، وجهاً محترماً أكثر منه محبوباً. لكن كالفن يفتقد أولاً إلى الاتضاع الحقيقى أمام الله والناس، وثانياً إلى الصلاح الحقيقى الذى يعرف كيف يحب الناس رغماً عن حقارتهم. - ومع أن كالفن قرأ إنجيله - يبدو أنه لم يفهم فيه أقدم وصيتين:

(١) إنه يليق بنا أن نكون متواضعين نختار المقعد الأخير، (٢) وإنه يجب أن نحب أعدائنا.

«لكن كالفن كان الإنسان الأول والأسبق الذى أكمل المزق الأخير (أى الشق بين الكاثوليك والبروتستانت). فقد رتب نفسه على بناء حائط لا يمكن اختراقه أو

حفر هاوية بين الكنيسة التي عمدته وتلك التي أراد أن يخطط لها. وقد فعل ذلك بطريقة أتم وأكمل جداً مما فعل لوثر، وفعلها بنوع من القسوة الشيطانية. صحيح أن دوره يمكن اعتباره في نهاية الأمر موافقاً لخطط العناية الإلهية، لأن الضربة المخيفة التي فرق بها العالم المسيحي كانت سبباً في صحوته من جديد. لكن بعد كالفن، كل الآمال في رتق الشق في الرداء ذي القطعة الواحدة. تلاشت ولقرون قادمة».^(١)

(1) H. Daniel-Rops, op. cit, pp. 440, 441

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, **The Reformation of the 16th Century**, pp. 160-182
2. Chadwick, Owen, **The Reformation**, pp. 150-173
3. Grimm, H. J., **The Reformation Era**, pp. 355-365
4. Iserloh, Erwin, **History of the Church**, Vol. V, pp. 390-419
5. Latourette K.C., **A. History of Christianity**, pp. 761-775
6. Mackinnon, James, **Calvin and the Reformation**, Russell & Russell, New York, 1962, pp. 188-213
7. Parker, T.H.L., **John Calvin**, pp. 143-149
8. Schaff, philip, **History of the Christian Church**, Vol. V11, pp. 806-819
9. Walker, Williston, **John Calvin**, pp. 376-408

Σ – الایصالے فہی اینجیترہ وایسکتلندا

فى متابعة خط تاريخ الكنيسة الإنجيلية والمصلحة والمشيخة، يصبح ضرورياً أن نختصر بقدر الإمكان مركزية هذه الدراسة. فى حين أنه مستحيل وليس بالضرورة مفيد أن نمن النظر بالتفصيل فى الإصلاح فى إنجلترا. يجب أن نقدم ملخصاً للأحداث هناك لأنها متصلة عن قرب بالتطورات فى إسكوتلندا وأخيراً فى أمريكا. كان القرن السادس عشر فى إنجلترا فترة تغيير سياسى جذرى، والواقع أن الإصلاح قد اتجه إلى هناك من أجل أهداف سياسية.

أولاً: الإصلاح فى إنجلترا

(أ) تأثيرات الإصلاح المبكرة

كانت الأرضية فى إنجلترا معدة إلى حد ما للإصلاح. لا ننسى ترجمة «جون ويكليف» الكتاب المقدس وكذلك المبشرين المتجولين، جماعة «اللورد - The Lollards» (المصلحين فى القرن الرابع عشر انظر صفحة ٢٤) النزعة الإنسانية دخلت أيضاً عالم الجامعة - جون كوليت John Colet فى إكسفورد انظر صفحة ٧٣) وإيرازموس فى كمبردج (انظر صفحة ٧٥). وكانت هناك جماعة صغيرة من الطلبة فى كمبردج حوالى سنة ١٥٢٥ ممن أظهروا اهتماماً باللوثرية وكانوا يلقبون «الألمان». من بين هؤلاء كان «وليم تيندال William Tyndale» سنة ١٤٩٢ - سنة ١٥٣٦) الذى التجأ إلى ألمانيا، ومن هناك أصدر ترجمة إنجليزية للكتاب المقدس، تهربت نسخ منه إلى إنجلترا فى وقت لاحق. تيندال استعد فى بلجيكا. أضف إلى هذا المشاعر الوطنية فى إنجلترا ضد نفوذ البابوية وفرض الضرائب. أكثر من ذلك لم تكن الكنيسة كمؤسسة موضع احترام زائد. كما قال «تريفيليان Trevelyan»^(١) «لقد فقدت الكنيسة (أى الإكليروس) قيادتها الأخلاقية والأدبية، بينما احتفظت بامتيازاتها الكاملة فى ثروتها وقوتها الاضطهادية». (١) لذلك كانت

(1) Quoted by Elliott-Binns, The Reformation in England, Archon Books, Hamden, Connecticut, 1966, p. 35

إنجلترا إلى حد ما جاهزة للإصلاح لكنه تطلب طموح الملك سعيًا وراء إتمامه.

(ب) هنري الثامن يقطع علاقته بروما

هنري الثامن كاثوليكي أمين

كان هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٥) أحد أعظم الشخصيات الخلابه في التاريخ الإنجليزي. كان موضوعاً تناولته القصص والمسرحيات والأفلام. (شكسبير نفسه كتب مسرحية عن حياة هنري الثامن). أما الشيء الذي يجب أن يذكر عنه أكثر من أي شيء آخر فهو إرادته أن يقطع علاقته مع روما لأغراض سياسية وشخصية بحتة. والواقع أن هنري من الناحية اللاهوتية كان كاثوليكيًا أمينًا جدًا. وما يذكر أنه هاجم مارتين لوثر، ومكافأة له سُمي «حامى الإيمان» بأمر البابا نفسه (انظر صفحة ١٤٧) لكن هنري أراد أن يطلق زوجته وكان لديه سبب للطلاق يتحدى أكثر من رغبته في الزواج من الجميلة «آن بولين Anne Boleyn»

هنري يريد الطلاق

كان هنري متزوجاً من «كاترين أرجون Catherine of Aragon» من العائلة الملكية الأسبانية. كانت قبل ذلك متزوجة من الأمير «أرثر Arthur» شقيق هنري الذي مات في سن الشباب. وقد سمح لهنري أن يتزوج من كاترين بأمر خاص من البابا جوليان الثاني في سنة ١٥٠٣.^(١) كانت المشكلة الرئيسية عند الملك هنري أن كل الأطفال الذين ولدوا لهما (هو وكاترين) ماتوا باستثناء ابنة واحدة، اسمها ماري. في تلك الأيام كان مهماً جداً أن يوجد وريث ذكر ليخلف أبيه الملك. وحسب اعتقاد الناس في ذلك الوقت. رأى أن الخطأ خطأ الزوجة إذ لم تلد طفلاً ذكراً. ولاشك أن هنري أصابه أيضاً الملل من كاترين التي كانت تكبره بسبع سنوات. كما

(١) طبقاً لقانون الكنيسة كان محظور على الفرد أن يتزوج من امرأة أخيه.

أنه افتنن صراحة بـ «آن بولين» لكن اهتمام الملك الأساسى كان منصباً على إنجاب ذكر يخلفه على العرش.

البابا يرفض طلب هنرى

حدثت بعد ذلك سلسلة من المناورات السياسية بواسطة هنرى كى يستميل البابا (وقتئذ أكليمنس السابع) ليفسخ زواجه من كاترين على أساس أنه كان زواجا غير قانونى من بادىء الأمر. قام بدور رئيسى فى هذه الدراما «توماس وولسى Thomas Wolsey» (١٤٧٥ - ١٥٣٠) والذي كان القاصد البابوى فى إنجلترا ورئيس وزراء الملك فى واقع الأمر.^(١) وقد وجه الملك وزيره وولسى ليتولى أمر فسخ الزواج مع البابا. لكن كاترين، دفاعاً عن حقوقها، ساندها ابن عمها الإمبراطور شارل الخامس. وبسبب الضغط السياسى تمكن شارل من تحذير البابا، وفشلت محاولة محاكمته بتهمة الخيانة العظمى.

سلطة الملك أمام سلطة البابا

لما تحقق الملك هنرى من أنه لن يستطع الحصول على مساعدة من روما تحول حينئذ إلى الجامعات ليجد أساساً لاهوتياً لقضيته. كان يسعى لاستبدال سلطة البابا بسلطة الملك (٢) تلقى مشورة من «توماس كرانمر Thomas Cranmer» (١٤٨٩ - ١٥٥٦) الأستاذ بجامعة كامبروج. استغل أيضاً بعض كتابات تيندال Tyndale عن «طاعة الإنسان المسيحى وكيف يجب أن يحكم الحكام المسيحيون رعيته». قال:

"الحاكم مسئول أمام الله وحده، طاعة الرعية للحاكم من طاعة الله.

(١) يجب أن نتجاوز عن قصة الكاردينال «وولسى» الذى نالت سيرة حياته الهامة (والمأسوية) اهتماماً كبيراً فى الأدب الإنجليزى.

" تمييز فى المقام بين الإكليروس والعلمانية، بين الشئون الكنسية

" والشئون المدنية، الكل تحت سلطان الملك وحده. فيما يختص

" بسيطرة الكنيسة على أمراء أوروبا - كما فعلت- فهذا لم يكن فقط عاراً فوق كل عار، وشيئاً قبيحاً - بل تحويلاً وقلباً للنظام الإلهى: ملك واحد، قانون واحد هو قضاء الله فى كل دولة.^(١)

هنرى يرغم الأساقفة الإنجليز على الوقوف إلى جانبه

مستخدماً الحجة السابقة تحول الملك هنرى بعد ذلك إلى إكليروس إنجلترا حيث اتهمهم بكسر القانون فى اعترافهم بسلطة البابا. جعلهم يدفعون غرامة ثقيلة، والأهم من ذلك، أرغمهم أن يقرروا اقتراحاً فى محفلهم بأنه فيما يختص بكنيسة إنجلترا فالملك هو «السيد الوحيد والأعلى، ويقدر ما يسمح قانون المسيح فهو (أى الملك) الرئيس الأعظم» ثم أمر البرلمان أن يحظر دفع الضرائب السنوية للبابوية إلا بإذن الملك. فى هذه الأثناء أعلن كراغر الذى صار حينئذ رئيس أساقفة كانتربرى أن زواج هنرى من كاترين باطل ولاغ. كان هنرى قد تزوج سراً من آن بولين «التي أصبحت بعد ذلك ملكة إنجلترا. وفى وقت لاحق ولدت له ابنة كتب لها أن تصبح يوماً ما الملكة اليزابيث. كان ذلك فى سنة ١٥٣٣.

قرار السيادة وإلغاء الأديرة

كما هو متوقع، صدر الأمر من البابا «أكليمندس السابع Clement VII» بحرمان الملك من عضوية الكنيسة. وأصبحت القطيعة بينهما كاملة. وأعلنت محافل الأساقفة الإنجليز عدم صلاحية سلطة البابا فى إنجلترا. وفى سنة ١٥٣٤ أجاز البرلمان «قرار السيادة Supremacy Act» الذى أعلن هنرى الثامن (وخلفاءه)

(1) Quoted by E.W. Ives, Anne Boleyn Basil Blackwell, 1986, p. 161.

بأنه الرئيس الأعلى الوحيد في الأرض لكنيسة إنجلترا. عندئذ بدأ عصر الاضطهاد لأولئك الذين عارضوا القانون الجديد. كثيرون سجنوا وأعدموا، الأديرة التي كانت تحتكم على ثروة كبرى وممتلكات في إنجلترا صودرت وتحولت أرصدها إلى الخزينة الملكية. «توماس كروميل Thomas Cromwell» رئيس وزراء هنري الجديد (١٤٨٥ - ١٥٤٠) كان نشطاً جداً في تنفيذ هذا الجزء من برنامج الملك.

هنري يُتهم بفك وحدة الكنيسة

جدير بالملاحظة أن الكنيسة الكاثوليكية دأبت على انتقاد الإصلاح الإنجليزي بقسوة، بسبب طبيعته السياسية. بينما اختلف الكتاب الكاثوليك بشدة مع مصلحين أمثال لوثر وكالفن، لكن منحوهم الاحترام من أجل سلامة القصد. أكثر من ذلك اعترفوا بأن نوعاً من الإصلاح كان حرياً أن يأتي بسبب الانتهاكات العديدة من داخل الكنيسة. لكنهم لم يغفروا قط لهنري تمزيقه وحدة الكنيسة لغير سبب سوى نزوة شخصية ومنفعة سياسية.

يقول «ه. دانيال رويس H. Daniel-Rops» ضمن ما كتب سنة ١٩٥٨:

«لم يحدث قط في التاريخ من قبل، ولا حتى في ألمانيا اللوثرية، أن دبرت الدولة مثل هذه المصادرة الجماعية للسلطة الروحية لمنفعتها الشخصية.^(١)»

هنري يسمى البابا في إنجلترا

«م. يوستاس شابوي M. Eustace Chapuy» سفير الإمبراطور شارل الخامس لدى إنجلترا كتب أثناء اتخاذ إقرار السيادة: «المسألة التي سويت في غير صالح البابا هي أن الإكليروس أرغموا على قبول الملك رئيساً للكنيسة. هذا في الحقيقة يساوي إعلان أن يكون الملك بابا إنجلترا. صحيح أن الإكليروس الحقوا بالقرار بنداً

(1) Ibid, pp. 465, 466

شرطياً يقول بأنهم قبلوا خلع هذا اللقب (على الملك) لكن فى حدود ما سمح به ناموس الله، إلا أنه بالنسبة للملك فقد كان الأمر وكأنه لا توجد أى تحفظات على الإطلاق، لأنه لا يجسر أحد فى المستقبل أن يجادل مع الملك فيما يختص بحدودها».

سير توماس مور Thomas More يدافع عن نفسه

لاقى أبرز قادة الكنيسة حتفهم لأنهم رفضوا دعم إقرار السيادة وكان من بين هؤلاء الأسقف جون فيشر John Fisher وسير توماس مور Sir Thomas More، اللذان من ذلك الوقت ضمتهم الكنيسة الكاثوليكية إلى سحابة القديسين. قبيل تنفيذ حكم الإعدام واجه «مور» هذا التحدى: «هل تعتبر نفسك أكثر حكمة وأيقظ ضميراً من كل الأساقفة والنبلاء فى المملكة؟» فكان جواب مور، «ياسيدى، لدى مقابل كل أسقف تابع لكم (أى بروتستانت) أكثر من مائة آخرين، ومقابل كل مجلس أو برلمان لديكم عندى كل المجالس التى تكونت عبر هذه الألاف من السنين، ومقابل مملكتكم الواحدة عندى الممالك المسيحية الأخرى. إنى أدعو وألتجئ إلى الله الذى ينفذ علمه الوحيد إلى عمق الإنسان أن يكون هو شاهدى..... الكنيسة واحدة لا تتجزأ، وأنتم لا سلطان لكم أن تسنوا قانوناً يمزق الوحدة المسيحية.^(١)

(ج) الإصلاح فى إنجلترا بعد هنرى الثامن

البروتستانتية تنتشر

ليس من هدف هذا الكتاب أن نتتبع أحداث حياة الملك هنرى الثامن أبعد من ذلك. مرة أخرى تزوج أربع مرات. وولدت إحدى زوجاته «جين سيمور-Jane Sey

(1) Ibid, p. 472

mour، ولداً اسمه ادوارد الذى سيكون الملك التالى. ومع أن هنرى نفسه بقى متمسكاً بالعقيدة الكاثوليكية، إلا أنه بدأ يظهر الشعور بتأثيرات البروتستانتية. الكتاب المقدس باللغة الإنجليزية الذى كان محظوراً من قبل، أصبح حينئذ متاحاً بأمر «كروميل» فى كل الكنائس. الوصايا العشر تدرس بالإنجليزية وترجمت خدمة القداس. ومع ذلك، فحتى موت هنرى فى سنة ١٥٤٧ ظلت الكنيسة الإنجليزية كاثوليكية فى كل شىء ماعدا الطاعة لها با روما.

حكم إدوارد السادس وكتاب العبادة المشتركة

كان عمر إدوارد السادس تسع سنوات لما ارتقى العرش. وأثناء حكمه (١٥٤٧ - ١٥٥٣) جاء الدوق «سومرست Somerset» الملقب «بالمحامى»، بتأثيرات بروتستانتية للسير بمقتضاها. المزيد من أملاك الكنيسة صُودرت، الصور والتماثيل أزيلت من الكنائس، زواج الكهنة جعلوه قانونياً، وكأس العشاء قدن للعلمانيين. أهم تغيير دام مدة طويلة كان إنشاء «كتاب الصلاة المشتركة - Book of Common Prayer» سنة ١٥٤٩ كأساس للعبادة فى كل الكنائس الإنجليزية. جوهريات هذا الكتاب الذى كان فى أغلبيته من صنع رئيس الأساقفة كرانمر Cranmer استمر استخدامها فى الكنائس الانجليكانية إلى اليوم.

التأثير البروتستانتي من أوروبا

فى سنة ١٥٤٩ أرغم «إيرل وارويك Earl of Warwick» المعروف أيضاً باسم دوق «نورثامبرلاند Duke of Northumberland» الدوق سومرست على التخلي عن سلطته واختصاصه. ضغط أيضاً فى سبيل تغيير جذرى أوفر تجاه البروتستانتية. عاونه على ذلك كرانمر الذى كان على اتصال بالمصلحين السويسريين، وعملياً، دبر «لمارتن بوكسر Martin Bucer» (انظر صفحة ٢١٧) أن يحضر إلى كامبردج. نقح

«كتاب الصلاة لتجنب أى إشارة عن الوجود الجسدى فى الخبز والخمر، وحُذفت الصلوات من أجل الموتى واستعاض عن «المذبح» بمنضدة العشاء الربانى. وأعد إقراراً من ٤٢ مادة بواسطة لجنة كان جون نوكس أحد أعضائها. فى هذا الوقت ظهر تأثير تعليم زوينجلى بصورة قوية.

الكاثوليكية تعود تحت حكم الملكة ماري

لما مات إدوارد السادس خلفته الملكة ماري، ابنة الملك هنرى وكاترين أرجون. حاول «وارويك» الاحتفاظ بمركزه لكنه كان غير مقبول لدرجة أنه عزل، وأخيراً أعدم بقطع رأسه. تحت حكم ماري التى كان ابن عمها الإمبراطور شارل الخامس. مالت إنجلترا بشدة نحو الكاثوليكية. أعادت الملكة ماري العبادة العامة إلى نماذجها الكاثوليكية المعتمدة من هنرى الثامن. تزوجت هى أيضاً من فيليب الثانى ملك أسبانيا، جالبة بذلك تأثيراً كاثوليكياً إضافياً، لكن هذا كان مكروهاً من الشعب لأنه خاف من النفوذ الأجنبى. عندئذ أرغمت ماري البرلمان أن يلغى القوانين التى سبق أن أجازها، واستعادت السلطة البابوية على إنجلترا، الكاردينال «رينولد بول Reginald Pole» لقى الترحيب كالقاصد الرسولى (مثلما كان وولسى) وتحرك ليعلن براءة الأمة من خطايا وهرطقة هنرى الثامن. فى سنة ١٥٥٥ ألغى كل تشريع صودق عليه ضد الكنيسة الكاثوليكية. وصادق البرلمان على إعادة الإتحاد مع روما والعودة إلى وحدة «أمننا المقدسة، الكنيسة».

اضطهادات البروتستانت

عندئذ بدأ الاضطهاد الفظيع لأولئك الذين ناصروا التغييرات البروتستانتية. أعدموا فى سنة واحدة خمسة وسبعين شخصاً، وخلال سنتين تاليتين أعدموا مائتين. اثنان من الأساقفة البروتستانت هما «ريدلى Ridley» و«لايتمر Latimer» شدوهما مربوطين معاً على قائمة الإعدام بلهيب النار. وعندما ارتفعت اللهب

حولهما قال «لا يتمر»، «طب نفساً ياسيد «ريدلى» وتصرف مثل الرجال. نحن فى هذا اليوم سوف نشعل شمعة فى إنجلترا، والتي بنعمة الله لن تنطفئ أبداً. رئيس الأساقفة «كرافر» لقي نفس المصير، فى بادىء الأمر أنكر شهادته لكن بعد قليل تقوى وسحب إنكاره فاحرقوه مثل الآخرين. ماتت الملكة سنة ١٥٥٨ ويذكرها التاريخ الإنجليزى بأنها «مارى الدموية».

البروتستانتية تعود تحت حكم الملكة اليزابيث

خلفت مارى الملكة اليزابيث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ابنة هنرى الثامن. «وآن بولين». كانت اليزابيث والتي لاشك أنها من أشهر الحكام الإنجليز، متدينة مثل أبيها. كانت بروتستانتية لكن بدون مشاعر دينية قوية. وأظهرت قليلاً لإرضاء الكاثوليك فى إنجلترا. عدلت أيضاً كتاب الصلاة «لتجعله على نحو ما مقبولاً لدى الكاثوليك. لكنها مثل هنرى، رفضت سلطة البابا. وبمصادقة البرلمان فى سنة ١٥٥٩ أعلنت أنها الحاكم الأعلى «لكنيسته إنجلترا». بعد ذلك عينت أساقفة جدد بروتستانت ليأخذوا مكان الأساقفة الكاثوليك المعينين فى حكم مارى. أصبح «ماثيو باركر Matthew Parker» (١٥٠٤ - ١٥٧٥) رئيس أساقفة كانتربرى الجديد.^(١)

البروتستانتية تسود

مع أن الكاثوليك حاولوا استعادة قوة كنيستهم أثناء حكم اليزابيث لكن البروتستانت تغلبوا عليهم. البابا بيوس الخامس Pope Pius V، حرم الملكة فى سنة ١٥٧٠، ولكن هذه كانت المحاولة الأخيرة من جانب البساوية لوقف نمو

(١) هذه الكنيسة الأسقفية أو كنيسة إنجلترا الإنجليكانية إدعت دائماً أن رجالها الأكليروس هم حقا الخلفاء الرسوليون لبطرس الرسول. الكاثوليك الرومان أنكروا باستمرار هذا الإدعاء. فى ١٨٩٦ أعلن البابا «ليو» الثانى عشر أن الإدعاء الأسقفى باطل.

البروتستانتية بوسائل العصور الوسطى... ففي سنة ١٥٧١ اعتبرها البرلمان خيانة عظمى أن يذكر الناس أن اليزابيث كانت هرطوقية ويجب خلعها أو أن يذيعوا نشرات بابوية في إنجلترا.^(١)

الإصلاح في إنجلترا كامل

فيما يلي تقييم «أون شادويك Qwen Chadwick»، لهذه الحقبة من التاريخ الإنجليزي:

" كان للإصلاح في كل مكان نتائج سياسية، لكن، في إنجلترا، بعيداً عن كل الدول الأخرى

" كان الحافز السياسي معرقلاً بالآراء الإصلاحية. في سنة ١٥٥٨ ضربت البروتستانتية جذورها داخل البلاد... لكن الإصلاح كقوة إصلاحية بالكاد بدأ.

" مظهر الكنائس تغير. والأديرة صُفيت، والإذن بزواج الإكليروس

" صدر، والصور أعدمّت، والقوة الاستقلالية للكنيسة تناقصت

" والسلطة المدنية للأساقفة ضعفت. لكن رجال الإكليروس كانوا

" جهلاء كما هو دائماً. وتغلغلت العقيدة البروتستانتية

" قليلاً في المواعظ المكتوبة التي كانوا مرغمين على قراءتها، وخدمة

" القداس التي أرغموا على استخدامها، جماعة لها أهميتها ذات فكر

" علماني فضلت الأساليب القديمة (الكاثوليكية) بعضهم يقول

" إن اعتلاء اليزابيث العرش كان بداية الإصلاح الإنجليزي

(1) Grimm, op. cit., p. 470

" لا نهايته. (١)

بعد دراسة الإصلاح في إسكتلندا سنعود إلى إنجلترا لنأمل في انتشار أكثر
للإصلاح هناك.

(1) Chadwick, *The Reformation*, pp. 135, 136

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland - **The Reformation of the 16th Century** pp. 183-210
2. Chadwick, Owen - **The Reformation**, pp. 98-137
3. Daniel-Pops, H. - **The Protestant Reformation**, pp. 454-478; 492-496, 514-520
4. Grimm, H.J. - **The Reformation Era**, pp. 289-306, 460-473
5. Iserloh, Erwin - **History of the Church**, Vol. V, pp. 327-339
6. Latourette, K.C. **A History of Christianity**, pp. 797-812
7. Walker, Williston - **A History of the Christian Church**, pp. 357-368

ثانياً: الإصلاح فى إسكتلندا

لم يأت الإصلاح بلاهوتين عظام فى إسكتلندا مثلما أتى فى ألمانيا وسويسرا. هذه الدولة الشمالية من الجزر البريطانية لها أهميتها من حيث أنه هنا بدأت المشيخية Presbyterianism هى إحدى أعظم تيارات النظم البروتستانتية.

(أ) تطورات الإصلاح المبكرة فى إسكتلندا

بدايات الإصلاح

جاء الإصلاح إلى إسكتلندا متأخراً. هناك دليل على أن قليلين من القادة الأوائل تكلموا لكنهم اختفوا بسرعة. فى سنة ١٥٢٣ قام «م. دى لاتور M.de la Tour» من فرنسا بزيارة إسكتلندا، لكنه رجع إلى باريس حيث أعدم من أجل اعتناقه «اللوثرية». باتريك هاملتون Patrick Hamilton (١٥٠٤ - ١٥٢٨) من جامعة سانت أندرو أعدم حرقاً كهرطوقى بروتستانتى. كان هناك اضطراب عام فى البلاد بسبب استغلال الكنيسة التى استولت على معظم الأراضى. أكثر من ذلك، كانت جهالة ومفاسد الإكليروس فضيحة مكشوفة. وكان الشعب أيضاً على علم بحركات الإصلاح فى بلاد أخرى. الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس بدأت تدخل البلاد. هكذا تنبّهت إسكتلندا تدريجياً إلى الحاجة للإصلاح.

الصراع من أجل إسكتلندا بين إنجلترا وفرنسا

كان هناك أيضاً وضع سياسى صعب، فإسكتلندا، وهى بالأحرى دولة متأخرة حتى عن زمانها. أصبحت بؤرة صراع بين إنجلترا (البروتستانتية) وفرنسا (الكاثوليكية). خلال القرن السادس عشر هزمت إنجلترا الإسكتلنديين هزائم منكرة فى ثلاث معارك. لذلك ظهر أولئك الذين تطلّعوا إلى فرنسا طلباً للمساعدة، بالرغم من كثرة الموالين البروتستانت الذين رغبوا فى علاقة مع إنجلترا، تزوج الملك

جيمس الخامس (١٥١٣ - ١٥٤٢) الأميرة الفرنسية «مارى لورين-Mary of Lor-raine»، الأمر الذى قوى بالطبع الحزب الكاثوليكي. فضلاً عن أنه عندما مات الملك أصبحت البلاد تحت حكم ماري التي شغلت منصب نائب الملكة عن ابنتها الطفلة «مارى» التي عرفت بعد ذلك بلقب ماري ملكة الإسكتلنديين Mary Queen of Scots.

الكاردينال بيتون Cardinal Beaton

وجورج ويشارت George Wishart

فى وجه الصعاب العظمى كسب الإصلاح أرضاً. فى سنة ١٥٤٣ أصدر البرلمان الإسكتلندى الإذن بترجمة وقراءة الكتاب المقدس. ومع ذلك فإن الكاردينال دافيد بيتون David Beaton (١٤٩٤ - ١٥٤٦) تسانده الملكة والحزب الكاثوليكي قام بحملة قمع قاسية. كان «جورج ويشارت George Wishart» هو القائد البروتستانتي فى ذلك الوقت. درس على يد لوثر وبولينجر ونشر ترجمة للإقرار السويسرى Helvetic، قام الكاردينال بيتون بالقبض على «ويشارت» وأعدمه حرقاً يوم ٢ مارس سنة ١٥٤٦. وفى ٢٩ مارس سنة ١٥٤٦ قُتل «بيتون انتقاماً لموت «ويشارت» من ناحية، وللعداء ضد السياسة الفرنسية الكاثوليكية، من ناحية أخرى.

(ب) قيادة جون نوكس

حياة نوكس المبكرة John Knox

ترك «ويشارت» تأثيراً عظيماً فى الشخص الذى كان سيصبح أشهر قائد إسكتلندى للإصلاح وهو «جون نوكس» (١٥٠٥/١٥١٥ - ١٥٧٢). ونكاد لا نعرف شيئاً عن حياة نوكس المبكرة. ويُحتمل أنه وُلد بين سنة ١٥٠٥ - سنة

١٥١٥. ومعروف أنه كان كاهناً مرتسماً، وكان مع الفريق الذي حاول الدفاع عن
ويشارت وسرعان ما قبض الفرنسيون على نوكس في سانت أندرو واحتجزوه كأحد
العبيد المسخرين في قاع السفن^(١) لمدة ١٨ شهراً. وعندما أطلق سراحه ذهب إلى
إنجلترا وخدم قسيساً عسكرياً أثناء حكم إدوارد السادس (بروتستانتى)، وكان
ضمن الذين فروا إلى فرانكفورت بألمانيا لما جاءت ماري تيودور Mary Tudor إلى
الحكم في إنجلترا في سنة ١٥٥٤ (انظر صفحة ٢٩٧). بسبب اختلافه مع آخرين
على كتاب الصلاة الإنجليزى الجديد، انتقل بعدئذ إلى جنيف حيث أصبح تلميذاً
غيوراً لكالفن. اشتغل أيضاً في الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس الخاص
بجنيف. عاد نوكس إلى إسكتلندا سنة ١٥٥٥، لكنه مكث ستة أشهر فقط بسبب
الموقف السياسى. ولما عاد إلى جنيف ثانية أصبح راعياً لطائفة اللاجئين الناطقين
بالإنجليزية (انظر صفحة ٣٠٢)

نوكس يكتب ضد كتيبة النساء

أثناء وجود نوكس في جنيف أصدر منشوراً يسمى «الضربة الأولى ضد
الكتيبة الفظيعة للنساء». كان موجهاً إلى ماري تيودور ملكة إنجلترا وإلى ماري
لورين نائبة ملك إسكتلندا. «أرى أن نبلاء كل من إنجلترا وإسكتلندا أحط من
الوحوش الشرسة. لأنهم يأتون بتصرف أمام النساء. لا يوجد برهان على أن
الذكور بين أنواع الحيوانات المعروفة، يتصرفونه أمام إناثهم، أى أن النبلاء
يعبدون النساء ويرتجفون في محضرهن. إنهم يطيعون أوامرهن وهذا مخالف لله.
لأجل ذلك أنا أعتبرهم ليسوا خاضعين للنساء بل عبيد الشيطان وخدام الإثم.^(٢)

(١) في تلك الأيام كان الأسرى يحتجزون على سفن تسمى «جاليز Galleys» ويوثقون
بالسلاسل ويُرغمون على سحب المجاديف التى تدفع السفينة إلى الأمام. كثيرون ماتوا نتيجة
هذه المعاملة الوحشية.

(2) Quoted by Ozment, op. cit. p. 428.

كالفن يرد على نوكس

كالفن نفسه وجد فى هذا الوضع نوعاً من التطرف وكتب إلى نوكس يقول «مع أن (حكم المرأة) كان إنحرافاً عن نظام الطبيعة الأصلى والقويم ويجب تصنيفه.. بين العقوبات المترتبة على سقوط الإنسان، إلا إنه يوجد أحياناً سيدات موهوبات لدرجة أن الصفات الجيدة الفردية التى لمعت فيهن جعلت من الواضح أنهن ارتفعن بسلطان إلهى.^(١) فى وقت لاحق حاول كالفن أن يعمل ترضيات عن بيان نوكس المتطرف بتكريس تفسيره لسفر إشعياء للملكة اليزابيث ويبدو أن ذلك لم يكن له إلا أثر ضئيل، لأن نوكس لما التجأ بعد ذلك إلى اليزابيث يطلب المساعدة رفضتها.

نوكس والحرية السياسية

كانت الحرية السياسية موضع اهتمام نوكس الرئيسى - كان يؤمن بحق الفرد فى أن يقاوم وفى النهاية يطرد الحاكم الظالم. ولذلك قال، «لا القوانين ولا العادات ولا حلف يمين الولاء المسبقة تلزم الناس على الولاء للحكام الطغاة الوثنيين». وكان نوكس كما يقول «أوزمنت Ozment» مثل الدوناتيين (انظر المجلد الثانى صفحة ١١٢)، يرى أن سلطة وفاعلية الحكومة ارتبطتا مباشرة بالمعتقد الدينى الذى يعتنقه الحاكم.^(٢)

الخوف من الفرنسيين

ساء الوضع السياسى فى إسكتلندا فى تلك الفترة لدرجة ازداد معها عدد القائلين إنهم يفضلون التخلص من الفرنسيين والإنجليز معاً. وفى سنة ١٥٥٧

(1) Ibid, p. 430

(2) Ibid, p. 429

تعاهد فريق من النبلاء، على «أن يثبتوا كلمة الله المباركة وشعب كنيسته». كان هناك خوف عظيم بسبب زواج الأميرة ماري (التي عرفت بعد ذلك بماري ملكة الإسكتلنديين) من أمير فرنسي، لئلا يؤدي هذا إلى أن تصبح إسكتلندا إقليماً تابعاً لفرنسا. وخشيت اليزابيث ملكة إنجلترا أيضاً هذا الموقف وكانت مستعدة للتدخل، ولكن من أجل أغراض سياسية أكثر منها دينية.

نوكس يعود إلى إسكتلندا

هكذا انضمت قضية الاستقلال السياسي أكثر فأكثر إلى قضية الإصلاح الديني. وفي سنة ١٥٥٩ عاد نوكس وبدأ إرسالته التبشيرية القوية، مكتسباً لنفسه لقب «الإسكتلندي العاصف» بل إن هذه المواعظ أيضاً أثارت الشعب أكثر، ونتج عنها شغب لم يكن نوكس يقصده، وهو تخريب الكنائس والأديرة.

الفرنسيون ينسحبون والاستقلال السياسي

أرسل الفرنسيون جيشاً. ودارت معارك عديدة غير حاسمة. ووصلت الإمدادات الإنجليزية إلى مسرح الأحداث في سنة ١٥٦٠ وانتهت الحرب في نفس السنة بمعاهدة تقضى بانسحاب الفرنسيين. وكان هذا يعنى الاستقلال السياسي الإسكتلندي وفرصة للإصلاح أن يتقدم إلى الأمام. واعتمد البرلمان إقرار إيمان كالفيني في يوم ١٧ أغسطس سنة ١٥٦٠ كان أعده جون نوكس وخمسة من رفاقه في أربعة أيام وأطلقوا عليه عبارة: «النطق الملتهب لقلب الشعب».

(ج) طبيعة الإصلاح الإسكتلندي

من المهم عند هذه النقطة أن ندون بعض الصفات الفريدة التي ميزت الإصلاح الإسكتلندي.

الشعب ساخط على الأساقفة

كانت الحركة نحو الإصلاح تنمو لسنوات عديدة على المستوى المحلى. أصبح الناس مشمئزين من الإكليروس. قالوا عنهم، «أولئك الذين تدعونهم أساقفة لا يعملون عمل الأساقفة، ولا يقومون بوظيفة الأساقفة.. لكنهم يعيشون بحسب ملذاتهم الشهوانية ولا يهتمون بالرعية، ولا يحافظون على كلمة الله، ويطلبون مجد أنفسهم، ويتلذذون إذ يدعوهم الشعب «سادتى»»^(١). إعتبر المصلحون الإسكتلنديون أن الخلافة الرسولية قد سقطت بسبب انحطاط أخلاق الأساقفة وعدم مسئوليتهم. أكثر من ذلك رأوا أنه لا حاجة للنظام الأسقفى. وبذا فإن شكل النظام الكنائسى فى كنيسة مصلحة كان يمكن أن تمليه الظروف.^(٢)

الشعب يصلح الكنيسة

كان نوكس نفسه على وعى بهذه الاتجاهات قبل سنة ١٥٦٠ بمدة طويلة. قال: «بدأ الناس يديرون أنفسهم على قراءة الفصول «الكتابية».... ووجدت مجموعة من الأشخاص لم يكن فى الإمكان استبقاؤهم فى الطاعة المطلوبة وحسن السمعة بدون مراقبين، شيوخاً وشمامسة.... بل انتخبوا البعض ليشغلوا مكان الرئاسة للإرشاد والقراءة، والبعض ليكونوا شيوخاً ومساعدين لهم للإشراف على الرعية، وآخرين ليكونوا شمامسة لجمع الصدقات لتوزيعها على الفقراء»^(٣).

الكنيسة البروتستانتية تنمو بجانب الكنيسة الكاثوليكية

والواقع أن الهيكل الجديد للبروتستانتية الإسكتلندية قد غطى المستويين

(1) John Knox, Quoted by Donaldson, Gordon, The Scottish Reformation, Cambridge, 1960, p. 103

(2) Ibid, p. 107

(3) Ibid, p. 50

المحلى والإقليمى. وبما أن نظام الكنيسة القديم الذى قوضته الدنيويات، كان يتفتت، فإن نظاماً جديداً قام بجانبه. إلا أنه بالمقارنة بالإنجلترا، كان سفك الدماء قليلاً جداً. فلم تُصادر الأديرة، لكنها ضعفت وتداعت لأن فوجاً جديداً من الرهبان لم يلتحق بها. وبسبب الانتهاكات العديدة أشرفت الحكومة تدريجياً على أموال الكنيسة، دونما قمع أو ظلم. وكانت حالات الإعدام قليلة. لم يكن هناك إقرار السيادة بإعلان الملك رأساً للكنيسة. لم يكن هناك قرار التساوى جاعلاً من كتاب «الصلاة العام» الصيغة الوحيدة للعبادة. وبقيت الكنائس الكاثوليكية بجانب الكنائس البروتستانتية الجديدة، واستمر الكهنة الكاثوليك يتسلمون روايتهم ويحتفظون بمقاعدهم فى البرلمان. حدث هذا كله قبل عودة نوكس سنة ١٥٥٩.

البروتستانتية تزحزح الكاثوليكية

كانت هناك فى سنة ١٥٦٠ خطوات رئيسية أخرى فى اتجاه الإصلاح. فقد أنكر البرلمان سلطة البابا، ومنع إقامة خدمة القداس. وعلاوة على إقرار الإيمان، قدم نوكس وأربعة آخرون «الكتاب الأول فى النظام». وقد دعا هذا الكتاب إلى إصلاح الكنيسة، وإلى تعليم إجبارى عام، وإلى الاهتمام بالفقراء. ثم ظهر كتاب «النظام المشترك» الذى أصبح كتاب العبادة للكنيسة الإسكتلندية. ومع أنه كان يلزم أن تنقضى بضع سنوات قبل ظهور النظام المشيخى. فإن نظاماً جديداً بدأ يأخذ مكان الهيئة الكهنوتية الكاثوليكية. فقد استعويض عن الأساقفة «بالمشرفين». وفى كل أبروشية أقاموا قسوساً (بدلاً من الكهنة)، وشيوخاً ينتخبهم شعب الكنيسة، أما مجلس كل كنيسة المكون من الراعى والشيوخ فقد شكل مجلساً إدارياً نظامياً.

المسئولية المتزايدة على العلمانيين

واضح من التطورات السابقة أنه كانت هناك نقلة للسلطة وقتئذ لا لبس فيها.

العلمانيون يشاركون فى الإدارة وكذلك فى عبادة الكنيسة. فإذا أصبح الانضباط فى أيدي الشيوخ، فقد أصبحوا مسئولين أيضاً عن إستقامة ذلك النظام أمام شعب الكنيسة. ولم تعد السلطة تستمد من الأسقف أو الملك بل من الشعب. كانت ثورة فى بدايتها تولدت عنها آثار بعيدة المدى للكنيسة والدولة كليهما.

الكنيسة الإسكتلندية كنيسة فقيرة

جدير بالملاحظة أن كنيسة اسكتلندا المصلحة كانت كنيسة فقيرة. فعندما تداعت الكنيسة الكاثوليكية استولى النبلاء على معظم ثرواتها بدلاً من تحويلها إلى البروتستانت. وإن كان البعض قد قالوا بأن هذا كان فى الحقيقة أفضل لصالح الكنيسة من حيث أنه أعفاها من الوقوع فى المساوىء التى تنجم عن وفرة المال، ونمى فيها روح الاستقلال والاعتماد على النفس.

(د) ماري، ملكة إسكتلندا Mary, Queen of Scots

الملكة ماري تعود

لنتأمل الآن بعض الأحداث السياسية التى وقعت عند عودة الملكة ماري إلى إسكتلندا بعد موت زوجها فرنسيس الثانى ملك فرنسا. كانت ماري ذات شخصية قوية وجمال فتان. لكنها استفزت جون نوكس لسماحها بإقامة خدمة القديس فى كنيستها الخاصة. كانت حريصة على تفادى أى تدخل فى شئون الكنيسة لأنها ركزت كل جهودها لتأخذ مكان اليزابيث على عرش إنجلترا، حيث ادعت أنه من حقها (لأن والدها كان ابن أخت هنرى الثامن). وحاولت أن تكتسب صداقة جون نوكس لكنه رفض أن تكون له أى صلة بها.

حياة ماري الفاضحة وتنازلها عن العرش

على أى حال، بدأت ماري تتخذ لها أصدقاء من بين النبلاء الإسكتلنديين،

وحولت كثيرين منهم عن القضية البروتستانتية. ثم تزوجت من أحد النبلاء هو اللورد «دارنلى Damley» ابن عمها. وهو كاثوليكي، ومن ثم فقد دعم هذا الزواج الحزب الكاثوليكي فى إسكتلندا، وأخيراً أصبح جيمس الأول ملك إنجلترا. لكن مارى لم تعد تحب «دارنلى» ووقعت فى حب رجل آخر هو اللورد بوثويل Both-well، الذى يقال إنه خطط لقتل دارنلى بالتعاون مع مارى. وفى وقت لاحق تزوج بوثويل من مارى طبقاً للمراسيم البروتستانتية بعد حصوله على الطلاق من زوجته على أساس علة الزنى. وبسبب هذا الأسلوب الوقح للحياة، فقدت مارى كل مصادقة الشعب حتى أرغمت على التنازل عن العرش لصالح ابنها الرضيع الذى تولى العرش باسم جيمس السادس. ويسقوط مارى جاء انتصار البروتستانتية، التى توطدت بقرار من البرلمان. وقد ألقى جون نوكس العظة فى حفلة تتويج جيمس السادس فى نفس السنة.

(هـ) الصفات الخاصة بالإصلاح الإسكتلندى

الإصلاح الإسكتلندى حركة شعبية

ليس ثمة شك فى أن الإصلاح الإسكتلندى كان حركة شعبية. كما قال شادويك، «ومثلما أثبت هنرى الرابع ملك فرنسا (انظر صفحة ٢٧) أن ملكاً بروتستانتيّاً لم يستطع أن يحكم شعباً كاثوليكيّاً، هكذا أثبتت مأساة مارى ملكة إسكتلندا أن ملكة كاثوليكية لم تستطع أن تحكم شعباً بروتستانتيّاً. أما شعار «ديانة الملك هى ديانة الشعب Cuius regio ejus religio» فيمكن أن يعنى أن الحاكم كان له حق إرغام شعبه على اتباع ديانته. هذا الشعار يمكن أن ينقلب ويعنى أن الشعب لديه القوة أن يرغم الحاكم على اعتناق ديانة الرعية أو يترك الحكم». (١)

(1) Chadwick, op. cit. p. 172, 173

المسئولية السياسية فى إسكتلندا تخص كل فرد

بينما كان مقبولاً فى إنجلترا أن يجمع الحاكم فى شخصه السلطة العليا لكل من الكنيسة والدولة، إلا أن هذا الاتجاه كان أكثر قوة فى إسكتلندا: الكنيسة والأمة كانتا نفس الشيء الواحد. كل منهما اشتملت على نفس الشعب، كل منهما تساوت فى نفوذهما على كل السكان. لم تكن الكنيسة والدولة إلا وجهين مختلفين لنفس المجتمع الواحد. كون كل الشعب القوة المدنية بتفويض إلهى. كما أخبرهم جون نوكس: «نحن نؤكد أنه لا قوة على وجه الأرض أعلى من قوة الحاكم المدنى، إن كل نفس - ليكن البابا أو الكاردينال - يجب أن تكون خاضعة للرياسات العليا. «لكن فى إسكتلندا لم تكن هذه الرئاسة العليا موجودة فقط فى الملوك ورجال الكنيسة، فإصلاح الدين ومفاسد الشعب لا يقتصر على الإكليروس والسادة الحكام الذين يدعونهم ملوكاً» الأصح أن أفراد المجتمع على وجه العموم لا يجب أن يعتبروا أنه لا رأى لهم فى الإصلاح والاهتمام بالدين لمجرد أنهم ليسوا ملوكاً ولا قضاة ولا نبلاء ولا حكاماً ذوى سلطان.

(و) الكنيسة الإسكتلندية تتحرك نحو المشيخية

الكنيسة تبتعد عن النظام الأسقفى

مع أن الكنيسة الإسكتلندية كانت تماثل الكنيسة الإنجليزية من عدة وجوه، إلا أنها ابتعدت أكثر فأكثر عن النظام الأسقفى. وظهر قادة آخرون من أتباع المعتقد الكالفينى، مثل «تيودور بيزا Theodore Beza» (١٥١٩ - ١٦٠٥) الذى كان خليفة كالفن فى جنيف، والذى زار إسكتلندا. وبدأ كتاب «النظام العام» يأخذ مكان «كتاب الصلاة المشتركة» الأسقفى. وأثناء تناول عشاء الرب تجمع المشتركون حول مائدة وُضعت بالطول فى الكنيسة تفادياً لأى تشابه مع «مذبح» القديس الكاثوليكى. وأخذت مراسم الزواج والعماد تتم جهاراً بحضور «آباء

العماد». ولو أنهم استمروا فى مراعاة الصيام الكبير، إلا أنهم أهملوا أياماً مقدسة وأعياداً كاثوليكية أخرى.

الكراسة بالكلمة وتأدية الأسرار المقدسة

كان هناك اعتزاز متزايد بنقاوة العقيدة والعبادة. كما قال نوكس، «فيما يتعلق بالعقيدة التى يدرسها ويعلمها رعاتنا، وفيما يتعلق بتأدية الأسرار المقدسة المستخدمة فى كنائسنا، نحن نتجاسر على التأكيد بأنه لا توجد اليوم منطقة على وجه الأرض تُؤدى فيها هذه الخدمات بطريقة أنقى وأطهر منا»^(١) وعلى نفس نهج كالفن اعتبر نوكس أن العلامات الجوهرية للكنيسة هى الكراسة بالكلمة وتأدية الأسرار المقدسة: «حيثما يُنادى بكلمة الله وحيثما تُسمع بصفاء ونقاء، وتُقام خدمة الأسرار المقدسة طبقاً لتعليم المسيح، فهناك كنيسة اسمها كنيسة الله»^(٢).

النظام والاهتمام بالفرد

وهناك سمة أخرى للكنيسة الإسكتلندية، تتمثل فى الاهتمام بالنظام. فإهمال كنيسة ما قبل الإصلاح استُبدل بالاهتمام المكثف بحياة العضو الفرد فى الجماعة.^(٣) أعضاء مجالس الكنائس المحلية اعتبروا أنه من واجبهم أن يراقبوا عن كثب حياة أعضاء الأبرشيات ولا يُسمح بالجلوس إلى مائدة الرب إلا بعد فحص دقيق. يقدم للمشارك تذكّار خاص يسمح له بموجبه بالدخول فى الخدمة. وبينما أدى هذا الاهتمام بالنظام فى وقت لاحق إلى تطرفات المتطهرين (البيوريتان) إلا أنه توجد أمثلة عديدة لنتائج إيجابية. يقول «إيان كوان Ian Cowan» إن جيمس سميث وجون ويلفيد John Welved & James Smith وهما من

(1) Ibid, p. 181

(2) Ibid, p. 79

(3) Cowan, Ian B., *The Scottish Reformation*, St. Martin's, New York, 1980, p. 138

كنيسة سانت اندرو (سنة ١٥٩٦)، بعد أن تشاجرا تقدما أمام المجلس وأعلنا أنهما «لا يحملان كرهاً ولا حقداً ولا حسداً ضد أى عضو فى هذا المجلس». «هب الحاضرون وقتئذ وأقفين» وبقلوبهم سامحوا كل الناس وصافحوا باليد كل شخص فى المجلس بخوف الله وحبه». (١)

أفراد الشعب على صلة بالله

اعتبر الإسكتلنديين أنفسهم كأنهم فى شركة مع الله. شاركوا مع الله فى المعركة ضد الخطأ و «السادة البابويين». عقدوا الاحتفالات للترابط» التى أصبحت تعرف «بالعهود Covenants»، والتى دخلوا بها فى اتفاقية مع الله بأن يدافعوا عن الإيمان. إلى هذا اليوم يُعرف بعض الاسكتلنديين بـ «المتعاهدين Covenanters».

أندرو ميلفيل Andrew Melville والمشيخية

حدثت النقلة الأخيرة إلى المشيخية عندما استغنى عن «المشرفين» أشباه الأساقفة «Quasi Bishops». فلقد انضمت الكنائس المحلية فى مجامع، والمجامع فى سنودسات أو «محاكم الكنيسة القضائية» وأصبح المحفل العام أعلى سلطة فى الكنيسة. ويُنسب الفضل فى هذا الإنجاز إلى «أندرو ميلفيل» (١٥٤٥ - ١٦٢٣)، الذى كان زميلاً لـ «بيزا Beza» فى جنيف، لكنه رجع إسكتلندا فى سنة ١٥٧٤ وقام بنشاط وفير فى جامعتى جلاسجو وسانت أندرو. حاول الملك جيمس السادس أن يثبت شكل النظام الأسقفى وقام بنفى ميلفيل. لكن المشيخية كانت قد توغلت وثبتت. وفى سنة ١٥٨١ أعلن محفل الكنيسة العام الإسكتلندى أن المذهب الأسقفى مخالف لتعليم «الكتاب». واعترف البرلمان الإسكتلندى بأن النظام المشيخى تقرر بالقانون فى سنة ١٥٩٢. وسناقش فى الفصل التالى نجاح المشيخية بعد ذلك فى إنجلترا.

(1) Ibid

جون نوكس قائداً للكنيسة والأمة

مات جون نوكس فى سنة ١٥٧٢. ونجد أعظم مساهماته الكتابية فى (١) كتاب الإقرارات The Book of Confessions (٢) كتاب النظام-The Book of Discipline (٣) وتاريخ الإصلاح فى إسكتلندا The History of the Reformation in Scotland لكن دوره كقائد، كان أبرز انجازاته. فقد ترك بصماته فى ديانة وأخلاق الأمة الإسكتلندية أكثر من أى إنسان آخر فى تاريخها. ويفضل نوكس أصبحت إسكتلندا بروتستانتية أكثر منها كاثوليكية، ومشيخية أكثر منها انجليكانية. لقد أضاف لرصيد الحرية الإنسانية. واستطاع بقوة إرادته أن يتحدى الحكام. وأصبح الكثير من آرائه جزءاً من التقليد الشعبى والحياة السياسية فى العالم الناطق بالإنجليزية.

Recommended English Readings

1. Bainton, Roland, *The Reformation of the 16th Century*, pp. 178-182
2. Chadwick, Owen, *The Reformation*, pp. 171-173
3. Grimm, H.J. *The Reformation Era*, pp. 306-308, 362-364, 479
4. Iserloh, Erwin, *History o the Church*, Vol. V, pp. 410-419
5. Latourette, K.S., *A History of Christianity*, pp. 769-774
6. Ozment, Steven, *The Age of Reform, 1250-1550*, pp. 419-433
7. Walker, Williston, *A History of the Christian Church*, pp. 368-374

ثالثاً: التقدم اللاحق للإصلاح فى إنجلترا وإسكتلندا

من المهم الآن أن نسجل أحداث الإصلاح الكبرى فى إنجلترا وإسكتلندا لأننا هنا، نجد التطور المستمر لنظام ولاهوت أسرة الكنائس المشيخية. هنا حدث التطور الأكمل للمذهب الأسقفى. المعمدانىون والاستقلاليون Congregationalists والكويكرز Quakers بدأوا أيضاً فى إنجلترا. وفى وقت لاحق جاء الميثودست Methodists والأخوة البلاميس Plymouth Brethren وانتقلت الحركة البروتستانتية من إنجلترا إلى العالم الجديد - أمريكا.

كان النصف الأخير من القرن الـ ١٦ والنصف الأول من القرن الـ ١٧ حقبة شديدة التعقيد فى إنجلترا، حيث تناحرت على السلطة أحزاب عديدة. وتشابكت السياسة مع الدين إلى درجة يستحيل معها تمييز الواحدة عن الأخرى. لكننا سنحاول التركيز على الأمور المختصة بتاريخ الكنيسة.

(١) البيوريتان Puritans والانفصاليون Separatists

أثناء حكم الملكة اليزابيث

ظهور البيوريتان

مما يذكر أن الملكة اليزابيث أعادت البلاد إلى البروتستانتية بعد حكم «مارى الدموية» الملكة الكاثوليكية، لكن بروتستانتية الكنيسة الأسقفية التى -باستثناء الولاء للبابا- هى التى احتفظت بالكثير مما كان كاثوليكياً، على أى حال اقتنع كثيرون من بين اللاجئيين العائدين من أوروبا بأن الإصلاح يجب أن يمتد إلى أبعد كثيراً من إنكار السلطة البابوية. واقتنعوا بأن الإصلاح الذى تفجر بكل قوته فى «جنيف على أيدي كالفن وفى زيورخ على يد زوينجلي» يجب أن يتحقق فى إنجلترا. هؤلاء الناس أصبحوا معروفين بالبيوريتان (الطهوريين) بسبب رغبتهم

الشديدة فى تطهير الكنيسة من كل ما شابه الكاثوليكية. أرادوا الاستغناء عن الثياب الكهنوتية، وعن الركوع لتلقى عشاء الرب، وعن رسم إشارة الصليب الخ. إلا أن الملكة (عن طريق رئيس أساقفتها ماثيو باركر Matthew Parker) اتخذت خطوات نهائية لاختضاع هؤلاء البيوريتان، وهكذا أشعلت شرارة الصراع الدينى الذى دام طويلاً حتى نهاية القرن السابع عشر.

المشيخية صيغة مفضلة للنظام

تمسك البيوريتان بأن ما يمكن تبريره من الكتاب المقدس هو فقط الذى يجب أن يُسمَح به. اقتنعوا بأن النمط المشيخى لنظام الكنيسة كان وحده النمط القانونى الذى حافظ عليه الشيوخ Presbyters (أعضاء المجمع). كان القسوس يُختارون بأصوات الرعية. واتباعاً لتفسير كالفن قدموا الحجة بأن الكتاب المقدس لم يضع أى تمييز بين الأساقفة والرعاة والشيوخ. ولذلك فإن المشيخية كانت الصيغة الأنقى لنظام الكنيسة.

توماس كارترايت Thomas Cartwright

جاء توماس كارترايت (١٥٣٥ - ١٦٠٣) استاذ علم اللاهوت فى جامعة كامبردج فاستحسن الغاء وظيفة الأسقف وتثبيت نظام مشيخى تُخول فيه السلطات الأساسية للمشيخية. ووجد موقف كارترايت مساندة شعبية وفيرة من داخل الكنيسة وخارجها. إلا أن كارترايت لاقى معارضة من «جون هوايتجفت John Whitegift» (١٥٣٠ - ١٦٠٤) الذى عمل بمساندة الملكة على عزل كارترايت من وظيفة الأستاذية. وفى وقت لاحق ذهب كارترايت إلى أوروبا وتضاءل تأثيره فى إنجلترا.

الانفصاليون Separatists

أراد البيوريتان بالرغم من خلافاتهم مع الأسقفين القيام بإصلاحاتهم من داخل

كنائس إنجلترا. بيد أنه كان هناك فريق آخر اعتقد أن الانفصال عن الكنيسة الرسمية هو الطريق الوحيد للإصلاح. هذا الفريق سُمي فريق «الانفصاليين». أما روبرت براون Robert Browne (١٥٥٠ - ١٦٣٣) فكان أشهر قائد لفريقه. بدأ «بيورتانيا» مع كارترايت في كامبردج لكنه سرعان ما أسس كنيسة مستقلة. ومع أنه كان ينهج الفكر اللاهوتي الكالفيني إلا أنه أصبح أيضاً مقتنعاً بأن السلطة في الكنيسة يجب أن تؤسس من الرعية المحلية. وهكذا كان موضع معارضة من الهيئتين الأسقفية والمشيخية كليهما معاً. وأثمر تعليم براون عن نظام للكنيسة أصبح يُعرف بالكنيسة الاستقلالية. «Congregationism».

البيوريتان والانفصاليون يضطهدون

لا عجب أن اتسم التصرف الأسقفى تجاه البيوريتان والانفصاليين بالتشدد والقسوة. ذلك أن المدعو «هوايت جفت Whitegift» بمساندة قوية من الملكة اليزابيث أصبح يجاهر بعدائه لهذه الجماعات. فصدرت الأوامر ألا تتبع سوى الأنظمة الأسقفية وحدها. وتألّفت في سنة ١٥٨٧ لجنة مفوضة على مستوى عال لتفحص وتحاكم أى شخص لا يتبع النظام الأسقفى. ثم إن رتشارد بانكروفت Rich-ard Bancroft (١٥٤٤ - ١٦١٠) كبير أساقفة كنتربيري وقتئذ، استخدم اللجنة العليا بلا رحمة ضد البيوريتان والانفصاليين. وأصبح الانفصاليين مجاهدين محاربين. نشروا سراً نبذات، لم تعتبر هرطقة فحسب بل خيانة عظمى. وشنق اثنان من الانفصاليين لإنكارهما سيادة الملكة في الشؤون الكنسية. وبسبب هذه المعاملة اتخذ عدد من الانفصاليين والبيوريتان ملجأ لهم بين المجتمعات المصلحة في هولندا.

اللاهوت الأرميني Arminian

ظهر وقتئذ فريق ثان في كنيسة إنجلترا. وبدأ الحزب الأسقفى أو

الإنجليكاني^(١) يتأثر باللاهوت الأرميني. كان «يعقوب أرمينوس (Jacobus Arminius)» (١٥٦٠ - ١٦٠٩) عالماً من هولندا وهو الذي ارتاب في عقيدة التعيين السابق لكالفن. وبوضحها «وكر Walker» كالاتى: «ضد العقيدة الكالفينية للتعين السابق المطلق كانت الأرمينية تعلم عن تعيين سابق مؤسس على علم إلهى سابق بالاستخدام الذى يمارسه الناس لوسائط النعمة. ضد عقيدة أن المسيح مات من أجل المختارين فقط، أكد التعليم الأرميني أنه مات من أجل الجميع، ولو أن أحداً لا يحصل على فوائد موته إلا المؤمنون^(٢) هذه «الأرمينية» اتجهت أكثر فأكثر إلى الاختصاص باللاهوت الإنجليكاني. وهكذا ابتعدوا منفصلين عن المشيخين فى العقيدة وكذلك فى النظام.

(ب) جيمس الأول. شارل الأول، المنفيون البيوريتان

والأسقفية فى إسكتلندا

الملك جيمس الأول

جيمس الأول ابن «مارى ملكة الإسكوتلاندين» اعتلى فى سنة ١٦٠٣ خلفاً لإليزابيث. وكان أمل البيوريتان أن يدعم القضية المشيخية. لكن الأمر لم يكن كذلك. كان جيمس أسقفياً مثبتاً. وكان تعبيره المفضل «لا أسقف. لا ملك». بمعنى أن حق الملوك الإلهى ارتبط ارتباطاً وثيقاً بنظام الكنيسة الأسقفية. أيا كان الأمر فإن جميع الناطقين بالإنجليزية سيذكرونه من أجل اعتماده ترجمة جديدة للكتاب المقدس. فقد صدرت فى عام ١٦١١ ترجمة الملك جيمس الشهيرة الآن، والتي مازالت مفضلة عند الكثيرين بالرغم من أنها لغة عفا عليها الزمن.

(١) كلمة إنجليكاني لا علاقة لها بكلمة «انجيلي» كما يظن بعضهم أحياناً. إنها من جذور كلمة "Angle" وهى اسم قبيلة اشتقت منها أيضاً كلمة England: إنجلترا.

(2) Walker, op. cit., p. 400

العصر الذهبي للأدب الإنجليزي

يعتبر المؤرخون سنوات إنجلترا تحت حكم اليزابيث أحد أعظم العصور في التاريخ الإنجليزي. كان عصر التغيير الدينى الجذرى والاضطراب السياسى العظيم. لكنه كان أيضاً عصر التطور الثقافى العجيب، «العصر الذهبى» للأدب الإنجليزي. يعتقد معظم الناس أن مسرحيات شكسبير كانت المؤثر المسيطر، بينما فى الواقع أن الكتاب المقدس هو الذى وصل إلى حياة الناس بطريقة أعظم ما تكون تأثيراً. فقبل ترجمة الملك جيمس كان الناس يقرأون ترجمات «تيندال Tyn-dale» و«كوفردال Coverdale» والكتاب المقدس الخاص بجنيف. وفيما يلى شهادة المؤرخين:

الكتاب المقدس هو الأعظم تأثيراً ونفوذاً

"مقابل كل شخص إنجليزى شاهد روايات شكسبير على مسرح
" «جلوب Globe» كان هناك المئات الذين قرأوا وسمعوا الكتاب المقدس
" بانتباه تام باعتباره «كلمة الله». إن تأثير الدراسة العائلية المستمرة
" للكتاب على أخلاق الشعب، وعلى الخيال والذكاء لثلاثة قرون تالية
" تقريباً كان أعظم من تأثير أى حركة أدبية فى تاريخنا.... حقاً إنه
" خلق عادة القراءة والتأمل فى كل طبقات المجتمع»^(١)

الإنجليز شعب «الكتاب»

" لم يطرأ تغيير أخلاقى على أمة أعظم مما طرأ على إنجلترا أثناء سنوات

(1) Traveyan, History of England, p. 367, Quoted by L. Elliot-Binns, The Reformation in England, Archon, Hamden, Connecticut, 1966, p. 220

" ما بعد حكم الملكة اليزابيث. صارت إنجلترا شعب كتاب، وذلك الكتاب

"كان الكتاب المقدس. وكان تأثير الكتاب المقدس على أخلاق الشعب

" بوجه عام، أعظم من تأثيره على الأدب. فقد تغير مزاج الشعب تماماً.

" وتفق مفهوم جديد للحياة والإنسان على

" المفاهيم القديمة. وعمت كل طبقة عقلية ودوافع دينية جديدة.^(١)

المعمدانيون فى إنجلترا

حدث تطور ذو أهمية تاريخية سنة ١٦٠٩ حين التجأت كنيسة انفصاليان إلى هولندا هروباً من الظلم الإنجليكانى. بقيادة «جون سميث John Smith» (١٦١٢) بدأوا يمارسون تعميد المؤمنين (تعميد الكبار) وقبلوا أيضاً الفكر اللاهوتى الأرمينى. وانضم بعضهم إلى الـ Mennonites لكن آخرين رجعوا إلى إنجلترا فى سنة ١٦١٢، ليصبحوا أول كنائس معمدانية مستقرة فى إنجلترا، واقتنع فريق ثالث من اللاجئين بأن التغطيس للكبار كان الشكل الوحيد للعماد، ثم عادوا أيضاً إلى إنجلترا حيث قبلت جماعات معمدانية أخرى عقيدتهم. وفى سنوات لاحقة هاجر إلى أمريكا معمدانيون كثيرون. والمعمدانيون الجنوبيون هم أكبر طائفة بروتستانتية وحيدة فى أمريكا اليوم.

الاستقاليون البيوريتان يرحلون إلى أمريكا

بين اللاجئين فى «لايدن Leyden» بهولندا كان أيضاً عدد من البيوريتان الذين اتبعوا الشكل الاستقالى «Congregational» للتنظيم. قرروا أن أمريكا كانت أفضل مكان للمأوى.

(1) J.R. Green, Short History, Quoted by Elliot-Binns, op. cit. p. 231

ولما تسلموا تصريحاً ملكياً أبحروا فى سنة ١٦٢٠ عبر المحيط الأطلنطى تحت قيادة «وليم بروستر William Brewster» (١٥٦٠ - ١٦٤٤). وبعد معاناة وشدائد كثيرة تركز هؤلاء «الآباء الحجاج» فى بلايموث مستعمرة خليج «ماساشوتس» وكانوا ضمن المستعمرين الأوائل فى العالم الجديد.^(١) وارتفعت موجة الهجرة إلى أمريكا عندما استمر الاضطهاد فى إنجلترا. وبحلول سنة ١٦٤٠ كان عشرون ألفاً من البيوريتان قد استعمروا المنطقة المعروفة الآن باسم «نيوإنجلاند New England» كذلك أسسوا الكنيسة الاستقلالية باعتبارها الكنيسة الوحيدة الرسمية للبلاد. (هذا الوضع لم يستمر لأن طوائف أخرى وصلت إلى أمريكا فى سنوات لاحقة).

الملك يفرض (الأسقفية) على إسكتلندا

لم يستطع جيمس الأول أن يسيطر على احترام الجمهور فى إنجلترا كما سبق أن فعلت اليزابيث. لذلك عندما حاول أكثر فأكثر أن يفرض الأسقفية على الشعب تزايدت نحوه كراهية الجمهور. وقد كسب البيوريتان التعاطف بسبب سياسة هذا الملك الظالم. لكنه كان يملك القوة السياسية، وبصفته جيمس السادس ملك إسكتلندا صمم على رسمية الكنيسة الأسقفية هناك أيضاً. وهذا ما نفذه فعلاً مستخدماً الأساقفة الذين استمروا فى وظائفهم من الناحية الشكلية. وبإرهاب المحفل العام وكذلك البرلمان فرض الممارسات الأسقفية على ذلك المجتمع المشيخى.

الإسكتلنديون يقاومون الأسقفية

لما ارتقى شارل الأول (ابن جيمس) العرش كانت اسكتلندا تغلى بالاضطراب. وزاد شارل الأمور سوءاً بمحاولته استخلاص كل أراضى الكنيسة والعرش من النبلاء الذين حصلوا عليها فى أيام «جون نوكس». عين الملك رئيس أساقفة فى

(١) باكورة المستعمرين فى أمريكا الشمالية كانوا أولئك الذين أسسوا فى ١٦٠٧ «جيمس تاون Jamestown» فيما يعرف الآن بولاية فرجينيا لكن هذه المستعمرة لم تعيش طويلاً.

سانت اندرو، أهمل النظام المشيخي بأكمله وأمر الشعب أن يقبل سيادة الملك في الشؤون الكنسية. أما رئيس الأساقفة «جون سبوتيزوود John Spottiswood» فقد منع الصلوات الارتجالية واستبدل مائدة العشاء بالمذبح، وحاول أن يفرض استخدام كتاب صلاة جديد كان في معظمه أسقفياً، وعند استخدام هذا الكتاب لأول مرة في كاتدرائية «سانت جيلز St. Giles» في أدنبرة ثار الشغب.. وأصر الملك شارل على موقفه. ونتيجة لذلك جر إنجلترا وإسكتلندا إلى حافة الحرب.

إنجلترا تصبح مشيخية

والحملة التي تستهدف الاستغناء عن المشيخية في إسكتلندا وإنجلترا، قادها رئيس أساقفة كانتربيري «وليم لود William Laud» (١٥٧٣ - ١٦٤٥)، كان لود مصمماً على رسمية التماثل الأسقفى في كلا البلدين بكل وسيلة. وهو مثل الملك لم يكن لديه أى تعاطف نحو الروح الثورى في البلاد، والذي أيقظته سياسة التساوى بأى ثمن. وفضلاً عن ذلك أغضب الملك أعضاء البرلمان بمحاولة رفع الضرائب دون موافقتهم، لكى يباشر حربه ضد الإسكتلنديين، وبحلول سنة ١٦٤٠، حاز البيوريتان على أغلبية في البرلمان. وفى سنة ١٦٤٣ وافق البرلمان على قرار بإلغاء الأسقفية. وأودع «لود» السجن ثم أعدم فى وقت لاحق. ولفترة ما كانت المشيخية ديانة إنجلترا.

(ج) محفل وستمنستر The Westminster Assembly

إقرار وستمنستر

كانت سنة ١٦٤٣ سنة محفل وستمنستر. وكان على قسوس إنجلترا وإسكتلندا المدعوين من أعضاء البرلمان أن يوافقوا على دستور إيمان الكنيسة الجديدة ونظامها، أعد دليل عبادة مشيخي ليأخذ مكان كتاب الصلاة المشتركة الأسقفى.

وأصدر البرلمان بالفعل سنة ١٦٤٧ مرسوماً برسمية جزئية لنظام المذهب المشيخي في إدارة الكنيسة. بعد ذلك أعد المحفل إقراره الشهير الذي ظل إلى يومنا هذا المقياس الأساسي للمشيخية الإسكتلندية والأمريكية. ومن بين الإقرار الوستمنستري نشأت كتب أصول الإيمان الأطول والأقصر - Larger & Shorter Catechisms التي أصبحت نصوصاً للتهذيب المسيحي في الكنائس المشيخية. واعتمد هذه الكتب كل من البرلمان البريطاني والمحفل الإسكتلندي لعام ١٦٤٨.

لاهوت العهد Covenant Theology

بينما تقوم وثائق وستمنستر على أساس الفكر الكالفيني، إلا أنها تؤكد على لاهوت «العهد». هناك «عهد الأعمال» و «عهد النعمة». يعتبر آدم الرأس الممثل للجنس البشري الذي رتب له الله وعوداً ثابتة. إلا أن حق آدم ونسله من بعده في هذه الحقوق قد سقط بسبب خطيته. وعندما فشل «عهد الأعمال» قدم الله «عهد النعمة» جديداً في المسيح. هذه الصورة للعهد بقيت صفة مميزة للاهوت المشيخي الإسكتلندي.

(د) حكم أوليفر كروميل Oliver Cromwell، استعادة

الحكم الملكي قرار التسامح، المشيخية في إسكتلندا

الحامي أوليفر كروميل

وفي ظل هذه الصراعات اللاهوتية، كانت إنجلترا في معمة حرب أهلية بين «البيوريتان» من ناحية، والملكيين (حزب الملك شارل) من ناحية أخرى. وقيادة أوليفر كروميل (١٥٩٩ - ١٦٥٨) هزمت جيوش البيوريتان الملكي هزيمة كاملة. أعدم الملك شارل، وكانت إنجلترا محكومة عملياً بجيش كروميل، وتطلع المشيخيون البيوريتان أن يساند كروميل رسمية المشيخية، لكن كروميل مع

قبوله لقب «الحامى» رفض تثبيت أى كنيسة باعتبارها كنيسة إنجلترا الرسمية مع أنه كان أكثر ميلاً إلى المشيخيين والمعمدانيين وفرق بروتستانتية صغيرة أخرى.

الأسقفية مرة أخرى تحت حكم شارل الثانى

فشل كرومويل فى حكم البلاد، وفقد شعبيته أكثر فأكثر بسبب سياسته الفظة وعندما خلفه ابنه فى سنة ١٦٥٨ حدثت ثورة واستعيدت الملكية مرة أخرى. أصبح شارل الثانى (١٦٦٠ - ١٦٨٥) الملك الجديد، ونتيجة بسبب عدم قبول حكم كرومويل المشيخى، رحب الجمهور وقتئذ بعودة النظام الأسقفى ورجعت البلاد إلى الكاثوليكية فى سنة ١٦٨٥ تحت حكم شقيق شارل «جيمس الثانى». وعلى مدى هذه الفترة واجهت الكنائس المشيخية وكنائس أخرى غير أسقفية اضطهاداً شديداً حيث أطلق عليهم اسم «المنحرفين» وبعد ذلك اسم الرافضين. وبالرغم من حظر عبادتهم إلا أنهم استمروا يمارسونها.

حكم وليم ومارى William and Mary

مرة أخرى اتجهت عاطفة الجمهور إلى الناحية الأخرى، ضد حكم جيمس الثانى الكاثولى بمعاونة «وليم أورانج William of Orange» (١٦٥٠ - ١٧٠٢) الهولندى، الذى تزوج من مارى ابنة الملك جيمس، فطرد الملك. ونودى بوليم ومارى حاكمين مشتركين لإنجلترا، فأعلننا سنة ١٦٨٩ «قرار التسامح مع كل البروتستانت Act of Toleration» الذين يرفضون البابا ويؤكدون ولائهم للملك والملكة. وبعد ذلك عُرف المشيخيون والاستقلاليون والمعمدانيون «بالكنائس الحرة». ولم يعودوا بعد مضطهدين لكن بعد ذلك كانت كنيسة إنجلترا الرسمية هى الأسقفية أو الإنجليكانية كما تسمى اليوم.

المشيخية تثبت رسميتها في إسكتلندا

لاقت قضية المشيخية في إسكتلندا معاناة أشد قسوة. فقد أعيدت الأسقفية تحت حكم شارل الأول. وأبعد القسوس المشيخيون عن منابرهم. ثار الإسكتلنديون ضد الإنجليز في سنة ١٦٧٩ لكنهم سُحقوا. وعرفت السنوات تحت حكم جيمس الثانى بالسنوات القاتلة عندما حاول أن يفرض الكاثوليكية. لكن مع حكم وليم ومارى أعاد البرلمان الإسكتلندى كل القسوس المشيخين وأعلن أن الكنيسة المشيخية هي الكنيسة الرسمية الإسكتلندية.

(هـ) الكويكرز (جمعية الأصدقاء) The Quakers

برزت أثناء اضطرابات القرن السابع عشر فرق دينية صغيرة أخرى. من بين هذه الفرق، تبوأَت جمعية الأصدقاء أو الكويكرز مكاناً متميزاً في أسرة الكنائس البروتستانتية. وهي الجمعية التي أسسها جورج فوكس George Fox (١٦٢٤ - ١٦٩١)

فوكس «والنور الداخلى»

كان فوكس كشاب يشمئز من منظر بعض أعضاء الكنيسة السكارى. صمم أن يجد في طلب حياة مسيحية على أعلى مستوى. وكان له في سنة ١٦٤٦ اختبار روحى تغييرى. فقد توصل إلى اعتقاد راسخ بأن كل إنسان يتلقى من الرب مقداراً من النور، وأنه إذا اتبع النور الداخلى، فسوف يؤدي به إلى نور الحياة وإلى الحق الروحى. وإذا كان الله يظهر نفسه فى الكتاب المقدس إلا أنه يظهر نفسه أيضاً فى النور الداخلى. ومن بين هذه المعتقدات نبت مذهب فوكس الذى رفض الكثير من نظم الكنيسة وممارساتها. فلا حاجة إلى خدام مخصصين، فكل إنسان «خادم نفسه». لا حاجة إلى ممارسة خدمة الأسرار المقدسة خارجياً. إنها تختبر من الداخل

روحياً. حلف اليمين وتحيات العَلَمَ محظورة. لا يجب استعمال ألقاب مثل «سيدى» أو «سيدتى». ولم يكن فوكس يظهر علامة خضوع لأى شخص، مثل الانحناء أو لمس القبعة كما كان يرى أن الحرب غير جائزة شرعاً، ولذلك فالخدمة العسكرية ممنوعة.

سلوك فوكس التطرفى

لفت فوكس الأنظار إلى نفسه بممارسته تصرفات كثيرة غريبة. دخل إحدى الكنائس وتوعد الواغظ أثناء إلقاء عظته. فى مكان آخر أوسعت العابدون ضرباً لتعطيله خدمتهم. سار حول شوارع «لشفيلد Lichfield» حافى القدمين صارخاً: «ويل لمدينة لشفيلد الدموية».

هو كنيسة الكويكرز

أثمرت دعوة فوكس للاختبار الروحى الداخلى وإنكاره لكل الرسميات والمظاهر الخارجية، فجذبت اتباعاً كثيرين. فى سنة ١٥٦٢ تأسست أول جماعة للكويكرز فى «بريستون باتريك Preston Partick» فى إنجلترا الشمالية. وفى غضون سنتين آخرين انتشرت الحركة إلى أجزاء أخرى عديدة فى إنجلترا. وبسبب ممارساتهم الغربية لم ينجوا من الاضطهاد. يقال إنه فى السنوات المبكرة قاسى أكثر من ٣٠٠٠ منهم آلام السجن بما فيهم جورج فوكس نفسه. سافروا إلى بلاد أخرى عديدة كمرسلين. ذهب بعضهم إلى أمريكا حيث شُئق أربعة منهم فى سنة ١٦٦١.

وليم بن فى أمريكا William Penn

مع مضى الوقت تخلى فوكس نفسه عن التصرفات الأكثر تطرفاً، وركز على تنظيم الجماعات طبقاً لخطط دقيقة، حينئذ بدأ الكويكرز يُعرفون بهدوئهم ووقارهم. أحد أشهر أعضائهم كان السياسى المحترم وليم بن (١٦٤٤ -

١٧١٨)، الذى حصل من الملك على حق تأسيس ولاية بنسلفانيا Penusylvania (غابة بن) فى أمريكا. وأسس فى سنة ١٦٨٢ أول مدينة عظيمة لتلك الولاية - «فيلادلفيا» (مدينة المحبة الأخوية).

الكويكرز صانعو سلام

جماعة كويكرز العصر الحاضر مشهورة بالخدمة الإجتماعية وأنشطة صنع السلام فى الشرق الأوسط. وأعضاؤها يساندون القضية الفلسطينية. وقامت لجنة خدمة الأصدقاء الأمريكية بخدمات عديدة لرفع المعاناة عن اللاجئين الفلسطينيين.

المشابهة للأخوة البليموس (البلاميس) Plymouth Brethren

جدير بالملاحظة وجود مشابهة بين الكويكرز والأخوة البليموس مع أنه لا صلة بينهما كنسياً، حيث أن كنيسة «الأخوة» بدأت فى وقت متأخر جداً فى القرن التاسع عشر. إلا أن الكنيستين تتشابهان كثيراً فى الممارسة والعقيدة.

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen - The Reformation, pp. 211-247
2. Grimm, H.J. - The Reformation Era, pp. 543-568
3. Latourette, K. S. - A History of Christianity, pp. 812-825
4. Walker, Williston - A History of the Christian Church, pp. 402-421

٥- الإصلا ح المضاد أو الإصلا ح الكاثوليكي

الإصلاح داخل الكنيسة الكاثوليكية

لا تكتمل قصة الإصلاح ما لم نتبع المسار الذى اتخذته داخل الكنيسة الكاثوليكية كما أوضحنا فى بداية هذا المجلد (انظر صفحة ٢٤) فقد دق ناقوس الإصلاح قبل وقت طويل من تعليق لوثر قضاياها على باب كاتدرائية وتنبرج. كان هناك الذين على شاكلة «زيمينس Ximenes» كاردينال أسبانيا الذى قام ببعض الخطوات الإصلاحية ليس كل واحد اتبع نهج المصلحين، بأن التغيير وجب أن يكون جذرياً، عملية جراحية «للرأس والأعضاء». على أى حال، كان هناك بالتأكيد وعى بأن ثمة انحرافات خطيرة فى كل مكان بالكنيسة تحتاج إلى تصحيحات أساسية.

الإصلاح الكاثوليكي هو أكثر من استجابة للبروتستانتية

هذه الحركة داخل الكنيسة والتي كانت تجرى بموازرة الإصلاح البروتستانتي نفسه تسمى عادة «الإصلاح المضاد». لكن يوجد الذين يجادلون بأن هناك كلمات تكون أكثر دقة وهي «الانتعاش الكاثوليكي أو «التجديد الكاثوليكي». لأن رؤيتها كمجرد رد فعل للبروتستانتية هو تقديمها بصورة ناقصة. كما يوضحها أحد المؤرخين: «الإصلاح فى جانبه الدينى، والإصلاح المضاد له فى نفس المجال، يمكن اعتبارهما بإنصاف حصيلتين مختلفتين لنفس التلهف العام إلى التجديد الدينى الذى شمل أوروبا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر....» «بينما يمكن القول عن الإصلاح البروتستانتي بأنه كان يحتوى على «عامل مساعد على سرعة وقوع الإصلاح الكاثوليكي وجديته، الأمر الذى لم يكن ليتحقق لو حدث العكس. فقد كان الإصلاح المضاد أكثر تعقيداً من مجرد رد فعل للتحدي البروتستانتي.^(١)

(1) H.O. Evenet, The Spirit of the Counter Reformation, the Birkbeck Lectures in Ecclesiastical History, University of Cambridge, May 1951, p. 9

(١) قادة الإصلاح الكاثوليكي

الإصلاح الإداري لا يتحقق

يمكن أن نذكر بعض القادة البارزين الذين كانوا يستعجلون إصلاح البابوية من أمثال «جيان بيترو كارافا» Gian Pietro Garaffa (١٤٧٦ - ١٥٥٩) الذي كان سيصبح البابا الرابع، والذي امتدح نوع الإصلاح الجارى تنفيذه فى أسبانيا، وحث على تطبيقه فى إيطاليا. كان «كارفا» عضواً فى الفريق المسمى «رابطة المحبة الإلهية». كذلك كان «جاكوبا سادوليتو» Jacoba Sadoletto الذى، كما نذكر حاور مع جون كالفن (انظر صفحة ٢٢١). وكان هناك «جاسبارو كونتارينى» Gasparo Contarini الذى قاد الفريق الكاثوليكي فى المحاولة الفاشلة للوصول إلى تفاهم مع اللوثرين فى ريجنسبرج (انظر صفحة ١٨٧)، حث هذا الفريق البابا بولس الثالث أن يسمح لهم بكتابة بعض التوصيات للإصلاح. انضم إليهم الأسقف «رينولد بول» Reginald Pole (١٥٠٠ - ١٥٥٨) من إنجلترا (انظر صفحة ١٩٠). إلا أن توصياتهم المقدمة فى سنة ١٥٣٨ قد أهملت، وعلى الأخص لأنهم طالبوا بتغييرات إدارية كان البابا رافضاً لها.

أما الذى اختار البابا أن يفعله وقتئذ، فهو إعادة تنظيم محاكم التفتيش طبقاً للأساليب الأسبانية. وأسفر التحقيق، ليس عن إصلاح، بل عن قمع أولئك المشكوك فى هرطقتهم.

صحوة الطرق الرهبانية

عبر الإصلاح عن نفسه فى انتعاش صوفى. نهضت النظم القديمة، وبدأت نظم جديدة. ومن أشهر المتصوفين الأسبان كانت القديسة «تريزا أفيللا» Teresa of Aville (١٥١٥ - ١٥٨٢). كانت كراهية «كرملية» (من دين الكرمل) لها

رؤى غير عادية، واختبارات روحية أكثر من عشرين سنة. حينئذ أسست ديرها الخاص مع التأكيد على الخدمة والتقشف الشديد. كان أحد تلاميذها القديس جون كروس John of the Cross « (١٥٤٢ - ١٥٩١) وهو الذى كتب مؤلفات عن الرياضة الروحية من أشهرها كتاب «الليلة المظلمة للروح» وظهر فى إيطاليا الرهبان «الكبوشيون» الذين كانوا سبب انتعاش للنظام الفرنسيسكانى. هؤلاء ركزوا أيضاً على الحياة البسيطة المتقشفة. واشتهروا بكرازتهم العلنية والعناية بالمرضى والفقراء. ولما كان الطاعون متفشياً بشدة تجولوا دون خوف وسط المرضى الذين كانوا يعانون من سكرات الموت ليقدموا الشفاء والتشجيع.

النهضة «الإسكولاستية» Revival of Scholasticism

بجانب الإصلاح الإدارى والروحى كانت هناك نهضة تستدعى الاهتمام فى الفلسفة اللاهوتية للعصور الوسطى. الكاردينال «كاجيتان Cajetan» (١٤٦٩ - ١٥٣٤) الذى سبق أن تناقش مع لوثر فى «أوجسبرج» (انظر صفحة ١٨٥) عكف على العمل فى «الخلاصة اللاهوتية Summa Theologica» لتوما الأكوينى ليحذف منها إضافات الكتاب المحدثين. وأصبح تفسير كاجيتان لهذه «الخلاصة» التفسير الرسمى للمذهب «التوماوى» وسلاحاً عقلياً ضد البروتستانت.

(ب) أغناطيوس لويولا Ignatius Loyola والجزويت Jesuits

الجزويت قوة كبرى

كانت جمعية يسوع (الجزويت)، وإلى حد بعيد، أشهر هيئة للإصلاح المضاد. ومع أنه لم يُقصد بها أصلاً أن تصد البروتستانتية، إلا أنها أصبحت وسرعة قوة كبرى، بل فى الحقيقة كانوا فى بعض الأوقات سلاحاً فى حركة الإصلاح الكاثوليكي كلها.

حياة أغناطيوس لويولا المبكرة

أما أغناطيوس لويولا (١٤٩١ - ١٥٥٦)، الذى ولد من عائلة شريفة فقد التحق بالجيش الأسباني. فى سن الثلاثين أصيب فى إحدى المعارك بجروح خطيرة فى ساقه. واحتمل بشجاعة عظيمة العلاج الطويل واستعداد العظام المكسورة وإعادة تجبيرها بدون مخدر، وبدأ أثناء فترة الشفاء يقرأ حياة المسيح وحياة القديسين، وقادته هذه القراءة إلى فحص حياته الخاصة، والوصول إلى قرار ليصبح جندياً للمسيح. سافر إلى دير مونسيرات Monserrat بالقرب من برشلونة، وعلق أسلحته بجانب تمثال العذراء مريم. بعد ذلك بدأت فترة تدريب روحى مكثف لأغناطيوس لويولا. ويشرح كتابه «التمرينات الروحية» كيف ينقاد الشخص إلى تحقيق مصيره تحت يد الله. إنه يسلم حياته للمسيح، ويقطع عن خطاياها، ويتخذ موقفاً «للنزاهة المقدسة» تجاه هذا العالم ليستخدم كل حسناته لتمجيد الله .

أوجه الشبه والفرق بين لويولا ولوثر

هناك شبه كبير بين رحلة لويولا الروحية ورحلة مارتين لوثر. لويولا عرض نفسه لكل أنواع المضايقات الجسدية - كان يصلى مدة سبع ساعات بدون انقطاع، يصوم، يضرب نفسه بالسياط الخ. وشعر مثل لوثر بأنه مقيد فى اعترافاته من ناحية أنه كان يعيد ويزيد فى ذكر نفس الخطايا لثلاثين سنة، اكتشف لوثر وسيلة الإفلات بقراءة الرسالة إلى أهل رومية، أما لويولا فبواسطة تركيز إرادته الحديدية على الطاعة لنواميس الكنيسة. فإذا كان الإيمان أساس كل كتابات لوثر، فالطاعة كانت مفتاحاً لكل ما قام به لويولا.

لويولا يؤسس الجمعية فى باريس

عندئذ تحقق لويولا أنه فى حاجة إلى المزيد من التعليم. لذلك بدأ من أول خطوة

- ماراً بسرعة فى المرحلتين الابتدائية والثانوية وإلى الجامعة. ومن جامعة فى أسبانيا انتقل إلى جامعة باريس، أشهر معهد لاهوتى فى زمانه ومكث هناك سبع سنوات وحصل على درجة الماجستير. وفى باريس جمع لويولا من حوله نواة الفريق الذى سىصبح «جمعية يسوع» الواسعة الانتشار عالمياً. وكان من بين الفريق «فرانسيس زافيه Francis Xavier» الذى اشتهر كموسل للشرق الأقصى.

تباين لويولا مع كالفن

فى هذا الوقت بالذات قدم كوب Cop عميد الجامعة خطابه الشهير مدافعاً عن الإصلاح ثم فى نفس الجامعة كان كالفن أيضاً يجتاز اختبار تجديده. وعندما كان أعضاء «جمعية يسوع» يتخذون عهد الرهينة، رفض كالفن معاشه كخادم دين، وهرب إلى سويسرا. لاحظ ك.س. لاتوريت K.S. Latourette إن بين كالفن ولويولا أشياء كثيرة «مشاركة» مع كونهما مختلفين، فإن فكراً أساسياً كان فى كل منهما وهو سيادة الله، الفداء، الذى صنعه فى المسيح والاعتقاد الراسخ بأن الكائنات البشرية تجد معنى الحياة، وكمالها فى الرؤية السعيدة والاستمتاع بالله هدف الحياة الإنسانية وقصد الله للإنسان.^(١)

نظام «جمعية يسوع»

أدرك لويولا أن جمعيته تكون نوعاً من فرقة عسكرية مجندة لتحارب معركة الكنيسة ضد الشكوك والهرطقات، جعلوا أنفسهم مسئولين مباشرة أمام البابا، الذى اعتمد الفرقة فى سنة ١٥٤٠. وهذا ما وفر لهم الحرية فى أن يطوفوا فى الكنائس والعالم. كانت الفرقة منظمة بقائد أعلى وضباط مرؤوسين على نمط الخطوط العسكرية. لم يلتزم الجزويت بساعات صلاة محددة أو ارتداء ثياب بشكل

(1) K.S. Latourette, A History of Christianity, p. 846

معين، مثل الأنظمة الصوفية الأخرى. كل عضو مدرب على استخدام محكم لتمارين لويولا الروحية. فالطاعة المطلقة هي موضوع نظام الجزويت. ويشمل عهدهم الآتى: «فى كل ما ليس خاطئاً يجب أن أتبع إرادة الرئيس الأعلى وليس إرادتى، لأن الله يتكلم على لسان كل رئيس». يجب أن أعتبر نفسى جثة لا إرادة لها ولا شعور.^(١)

خدمة الجزويت وانتشارهم

عند النصف الثانى من القرن السادس عشر كان الجزويت قد انتشروا فى أسبانيا والبرتغال وفى وقت لاحق فى فرنسا وألمانيا. كانوا مشهورين بصفة خاصة بكرازتهم وحياتهم المرتبة المكرسة، ومدارسهم المتفوقة وإرسالياتهم الخارجية. وبين كل القوات المتنوعة التى جندت للخدمة، فمن المتفق عليه عموماً أن الجزويت، بالنسبة للإصلاح المضاد، كانوا فى الطليعة.

الغاية تبرر الوسيلة

بالرغم من مساهمات الجزويت الإيجابية العديدة، هناك بعض المآخذ عليهم خاصة بالنسبة لسياساتهم فى القرنين الـ ١٦، ١٧. ينقل عن الجزويت إعلانهم «أننا نرى الأسود أبيض إذا كان رئيسنا يقول إنه كذلك». لهم شهرة إصدار الفتاوى، واستعداد لاستخدام أى وسيلة للوصول إلى غاية مبررة. بول جونسون Paul Johnson يقتبس عن قادة الجزويت: «طهارة القصد قد تكون مبرراً لأعمال معاكسة للدستور الأخلاقى والقانون الإنسانى. إنه شئ جليل أن نفنى الجنس المفسد المؤذى (أى البروتستانت) من المجتمع الإنسانى. الأطراف أيضاً تُقطع إذا تعفنت حتى لا تصيب باقى الجسم بالعدوى، وبالمثل، هذه القسوة الوحشية فى

(1) Quoted by Hubert Jedin, History of the Church, Reformation and Counter Reformation, Vol. V, p. 450

شكل إنسانى يجب أن تفصل من الدولة وتبتر بحد السيف.^(١) هكذا كان الجزويت على استعداد أن يستخدموا أى وسيلة للحصول على أهدافهم.

(ج) مجمع ترنت Trent

الحاجة إلى مجمع

فى أواسط القرن الـ ١٦، كان واضحاً للجميع أن الكنيسة تمر بأزمة خطيرة. الانحراف الروحى والانحلال الأخلاقى ومفاسد البابوية أكدت وقتئذ مكاسب البروتستانت المتزايدة بسرعة. الكل صرخوا كى يتخذ الكاثوليك خطوات إيجابية وإلا ضاعت الكنيسة نفسها رغماً عن رغبتهم، اقتنع البابوات بأن مجمع للقيادة كان أمراً لا بد منه.

أغراض مجمع ترنت

مدينة «ترنت» الصغيرة فى إيطاليا كانت بعيدة فى الشمال لإزالة الشك عن السيطرة الإيطالية. هناك دُعِيَ المجمع فى سنة ١٥٤٥. ولأنه تعطل بسبب الأوبئة والحروب، امتدت الجلسات الثلاث أكثر من عشرين سنة: ١٥٤٥ - ١٥٤٧، ١٥٥١ - ١٥٥٢، ١٥٦١ - ١٥٦٣. لم يعد هناك أى فكر عن تنازلات للبروتستانت. تقابل الكاردينالات والأساقفة كما يقول «أوزمنت Ozment»: «

(١) لتثبيت الحركة لإحكام القبضة على الحياة الدينية، حتى لا تحدث أبداً فى الكنيسة ثورة مثل ثورة لوثر وزوينجلى وكالفن مرة أخرى. (٢) ولإيجاد طرق جديدة لجعل الديانة التقليدية أكثر قبولاً لدى العلمانيين بما فيهم كثيرين ممن استسلموا للبروتستانتية.^(٢)

(1) Paul Johnson, A History of Christianity, pp. 304, 305

(2) Ozment, op. cit., p. 407

قادة الكنيسة يعترفون بمسئوليتهم

كان الاهتمام بالكنيسة اهتماماً مخلصاً، وشعورا بالمسئولية عن الانحراف، عبر عنه بوضوح الأسقف رينولد بول Reginald Pole من إنجلترا في خطابه الافتتاحي: «قبل محكمة رحمة الله، نحن الرعاة، يجب أن نجعل أنفسنا مسئولين عن كل الشرور التي تثقل الآن قطيع المسيح. خطايا الكل يجب أن نحملها على عاتقنا، ليس كرماء منا بل هو العدل، لأن الحقيقة هي أننا نحن السبب في جزء كبير من هذه الشرور، ولذلك يجب أن نلتمس الرحمة الإلهية بواسطة يسوع المسيح.^(١)

اللاهوت طبقاً لتوما الاكويني يسود

سادت الاهتمامات اللاهوتية الجلسات الأولى لمجمع ترنت، حيث شعروا أنه من الضروري أن أساساً عقائدياً راسخاً يجب أن يثبت، ومنه تتدفق قرارات لاحقة. وهذا كان يعنى إنعاش اللاهوت «الأكويني». كما يشرحه جريم Grimm : «عندما بدأت شرائح كبرى من العالم المسيحي تنفصل عن روما، كان هناك مستشارون كثيرون قريبون من البابوية، الذين إذ تأثروا بالنزعة الإنسانية والعقائد الأوغسطينية، أشاروا بالتفاهم، آخرون رفضوا أن يحدوا بأي شكل عن «اللاهوت الأكويني» والتقاليد الكاثوليكية المعترف بها. إن قصة إصلاح البابوية هي قصة فوز الفريق الثاني على الفريق الأول.

قرارات ضد البروتستانتية

رفض مجمع «ترنت» الإصلاح بالنسبة لكل قضية هامة. وضد التبرير بالإيمان، أوضح المجمع أن الأعمال والإيمان كلاهما ضروري للخلاص. أعاد المجلس تأييد الأسرار السبعة مع التأكيد على أعمال التوبة التي كانت محور الانتقاد

(1) Quoted by Hans J. Hillerbrand, The Reformation, Harper & Row, New York, 1964, p. 463

البروتستانتى بسبب فساد صكوك الغفران. كون ذبيحة المسيح تكررت فى القداس، صار واضحاً. تثبيت عقيدة التغيير الفعلى للخبز إلى لحم والخمر إلى دم. العلمانيون لا يتناولون الكأس بل فقط الخبز. زواج الإكليروس كان محظوراً. المطهر وصكوك الغفران وعبادة القديسين واحترام «الذخائر» كلها صودق عليها.

الكتاب المقدس والتقليد فى ترنت

أما أخطر القرارات الأخرى تتمثل فى أن مجمع ترنت وضع تقاليد الكنيسة على قدم المساواة مع الكتب المقدسة. لاحظ أحد المؤلفين أن المجمع جاوز حدود التعليم «الإكوينى» فى هذا الخصوص. لأنه قبل ترنت، مهما كان الكتاب المقدس مهماً بطرق أخرى، فإنه بالتأكيد احتل مركز السيادة. «قيمة الكتاب» أعترف بها فى العصور الوسطى، لأن القديس «توما الأكوينى St. Thomas Aquinas» أعطاه سلطة برهان ضرورى، بينما تكون سلطة قادة الكنيسة مجرد سلطة مساعدة وثانوية «.... العميد» ويس Wace .. كان يعتقد أنه فقط فى مجمع ترنت، وبعد اكتشاف المعارضين الرومان الأقوياء أنهم لم يستطيعوا الثبات على أساس الكتب المقدسة وحدها، أكدوا على تقاليد الكنيسة كجزء من قانون الإيمان⁽¹⁾ وأكد مجمع ترنت أيضاً أن الكنيسة وحدها هى المفسر اللائق للكتاب المقدس، رافضاً المبدأ البروتستانتى القائل بالكتاب المقدس المفتوح فى يدي المؤمنين.

دليل الكتب ومحكمة التفتيش

كجزء من الإشراف الأكثر احكاماً على حياة الشعب، صدر دليل بالكتب الممنوعة. وقبول نشر أو حيازة أى كتابات بروتستانتية بعقاب صارم. ومن أدوات هذه المراقبة كان إحياء «محكمة التفتيش» لفحص الهراطقة والقبض عليهم

(1) L. Elliott-Binns, The Reformation in England, Archon, Hamden, Connecticut, 1966, p. 197

ومعاقبتهم. كثيرون حكم عليهم بالموت فى محاكم التفتيش حيث لا استئناف.

نتائج إيجابية لمجمع ترنت

من الناحية الأخرى كانت هناك بضعة نتائج إيجابية أصدرها مجمع ترنت. وضعت المسئولية حينئذ على عاتق كل الإكليروس ليعرفوا ويدرسوا الكتاب المقدس ويفسروه بأمانة للشعب. طلب من كل الإكليروس أن يقيموا فى أبرشياتهم. كان محظوراً على الأسقف أن يجمع أكثر من أسقفية واحدة. كان هناك تأكيد جديد على خادم دين متعلم. كليات ومدارس لاهوتية عديدة تأسست. ويذكر هذا الفضل للجزويت.

ينظر الكاثوليك إلى مجمع ترنت كحدث عظيم فى تاريخهم. كان بالحقيقة مجمعاً إصلاحياً وضع اتجاهات جديدة للكنيسة. لكنه أيضاً رسم الخطوط التى حددت الانفصال الجذرى بين الكاثوليك والبروتستانت حتى القرن العشرين وإلى ظهور البابا يوحنا الثالث والعشرين.

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen - **The Reformation**, pp. 251-320
2. Grimm, H.J. - **The Reformation Era**, pp. 366-416
3. Jedin, Hubert - **History of the Church**, Vol.^u V. pp. 431-574
4. Johnson, Paul - **A History of Christianity**, pp. 296-309
5. Latourette, K.S. - **A History of Christianity**, pp. 840-882
6. Ozment, Steven - **The Age of Reform, 1250-1550**, pp. 397-418
7. Walker, Williston - **A History of the Christian Church**, pp. 374-380

٦- الإصلاح والكنائس الأرثوذكسية

لا إصلاح فى الشرق

نمت حركة الإصلاح فى الغرب رداً على الظروف التى سادت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. لم يظهر إصلاح على هذا النحو وسط الكنائس الأرثوذكسية فى الشرق الأوسط والبلقان وروسيا. على أى حال كان هناك اتصال بين قادة الإصلاح والعالم الأرثوذكسى.

الكنيسة الأرثوذكسية ترفض البروتستانتية

فى سنة ١٥٥٩ أرسل ميلانكتون ترجمة يونانية لإقرار أوجسبرج إلى بطريرك القسطنطينية «يوشافاط الثانى 11 Josaphat» لكن البطريرك لم يرد بأى طريقة. جرت محاولة أخرى بعد بضع سنوات تالية قوبلت بالرفض والإنكار التام. أكثر من ذلك اقترح البطريرك أن الواجب على البروتستانت أن يقبلوا التعليم الأرثوذكسى وينضموا إلى تلك الكنيسة. أما عن روسيا فقد قيل إنها صمت أذائها عن الإصلاح. فى القرن السادس عشر كانت روسيا تتحرك تحت حكم القيصر «إيفان المرعب Czar Ivan the Terrible» نحو نوع من القومية الدينية. وعندما اختارت الكنيسة الأرثوذكسية الروسية ديانتها «على النمط البيزنطى» فى القرن العاشر لم تحتل التأثير الكاثولى ولا البروتستانتى.

كيرلس لوكارس والبروتستانت (Cyril Lucaris)

كانت هناك نقطة اتصال واحدة جديرة بالاعتبار بين البروتستانت والأرثوذكس خلال فترة الإصلاح. كيرلس لوكارس اليونانى (١٥٧٢ - ١٦٣٨) تلقى علومه فى إيطاليا وتعلم اللاتينية. مارس مهنة التدريس لفترة من الوقت فى بولندا حيث دافع عن الأرثوذكسية ضد الكاثوليك. هناك وجد البروتستانت يريدون مساعدته. فقد أصبح هو أيضاً مهتماً باللاهوت البروتستانتى. فى سنة ١٦٠٢ أصبح

البطريك الأرثوذكسى اليونانى للإسكندرية، وفى سنة ١٦٢٠ بطريك القسطنطينية. كَوْنُ علاقات مع البروتستانت فى إنجلترا بأن أرسل مخطوطة عربية لأسفار موسى الخمسة إلى رئيس أساقفة كنتربرى، أما جيمس الثانى ملك إنجلترا فقد أرسل مخطوطة الإسكندرية للكتاب المقدس Codex Alexandrinus (مخطوطة القرن الخامس) وهى إحدى أقدم المخطوطات «الكتابية» وأعظمها مرجعاً وحجة، مما يدل على أنها كُتبت فى مصر. ومن المفيد أن نلاحظ أن المخطوطة تسلمت بعد صدور ترجمة الملك جيمس للكتاب المقدس بسنوات قليلة. سنة ١٦١١ أرسل لوكارس أيضاً عدداً من الكهنة الشبان لتلقى العلم فى جنيف واكسفورد.

لاهوت لوكارس الكالفينى

فى الحقيقة أصدر لوكارس فى جنيف إقرار إيمان، كان فى أساسه كالفينياً: الكتاب المقدس هو السلطة الوحيدة للإيمان والحياة - التعيين السابق - التبرير بالإيمان - سران مقدسان فقط - عقيدة مصلحة لسر الأفخارستيا. هذا الإقرار سبب جلبة فى الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية. تعليقه هذا رفضه سنودسان للكنيسة الأرثوذكسية (البيزنطية اليونانية الشرقية). فى الواقع نقلت بعض الحجج ضده من كتابات كاثوليكية مضادة للبروتستانت.

فى سنة ١٦٣٨، وبأمر من السلطان شق لوكارس وألقى بجثته فى البحر.^(١)

لماذا لم يتحد البروتستانت والأرثوذكس

لقد طرح السؤال لماذا، بما أن كلا من البروتستانت والأرثوذكس كانوا معارضين للكاثوليك.... لماذا لم تستطع الكنيسة أن تنضما إلى بعضهما؟ الجواب أنهما

(١) يذكر أن القسطنطينية. استولى عليها الأتراك العثمانيون فى سنة ١٤٥٣ وكان لهم وقتئذ السيطرة السياسية على كل المنطقة.

لم يكن لديهما شيء آخر مشترك. كل فريق رأى الكاثوليك من منظور مختلف، ولم يتفق معهم لأسباب مختلفة. لم تكن بينهم قضية مشتركة، بل العكس تماماً. مئات السنين من التباعد السياسى والثقافى واللاهوتى فصلت البروتستانت عن الأرثوذكس بقدر ما فصلتهم عن الكاثوليك. فى سنة ١٦٧٢ أدان سنودس أورشليم العظيم... أدان رسمياً أخطاء الهرطقة البروتستانت.

Recommended English Readings

1. Chadwick, Owen, **The Reformation** pp. 348-362
2. H. Daniel-Rops, **The Protestant Reformation**, pp. 501-502

V - أفكار ختامية عن الإصلاح

الإصلاح كان لابد وأن يحدث

إذا نظرنا للوراء فى إصلاح القرن السادس عشر على ضوء العصر المسكونى للقرن العشرين، ربما نجد أنفسنا ميالين إلى القول بأنه ما كان يجب أن يحدث. ومع ذلك فأمام ظروف ذلك الزمان، كان يجب أن يحدث الإصلاح أو شىء مثله. أما كون نتائجه غير تامة، فقد كان فى حالات كثيرة شيئاً يؤسف له، فهذا لا يجب أن يحجب أن خيراً كثيراً نتج عنه. بهذا اعترف اليوم جهاراً مفكرون كثيرون كاثوليك. كتب «هوبرت جيدىن Hubert Jedin» يقول: «إنه جانب واحد فقط..... أن نعتبر الانشقاق فى الكنيسة كمأساة فقط..... بينما نغفل عن تعميق وتنشيط الحياة الدينية التى اشتمل عليها الإصلاح كنتيجة - وفرة القيم التى جاءت إلى النور فى الإصلاح الكاثولىكى، فى النظم القديمة والجديدة. فى الزهد والتصوف - فى التقوى والفن - فى التوسع المرسل إلى ثلاث قارات»^(١).

فلننظر إلى بعض النتائج السلبية والإيجابية.

(١) الانشقاق - تقسيم جسد المسيح

هل ينقسم المسيح؟ من ينزف؟

تخطيط وحدة الكنيسة هو فى نفسه هرطقة. كانت هذه هى الخطوة التى روعت المصلحين أنفسهم. كان كالفن يقول، «هل ينقسم المسيح؟ من ينزف؟ وبعد صراع روحى مكثف فقط اقتنع المصلحون بأنه لم تكن هناك طريقة أخرى. من جهتهم توقفت الكنيسة الكاثوليكية عن أن تكون كنيسة المسيح، ولذلك كان الإصلاح من داخلها مستحيلاً. هذا الاعتقاد هو الذى جعلهم يتخذون القرارات التى قسمت الكنيسة وأدت إلى الغضب والقتل والتعذيب والحروب - إلى كل التاريخ الحزين

(1) Jedin, op. cit. Vol V, p. 645

الدامى الذى دام أطول وأكثر من حقبة الإصلاح نفسها.

عدم التسامح من كل الناس

يشرح المؤرخ «بول جونسون Paul Johnson» كيف كان عسيراً الحفاظ على روح التسامح فى ألمانيا عند وقوع الانفصال. كل الفرق الثلاث: الكالفينيون واللوثريون والكاثوليك، اتهم بعضهم البعض بأن لهم معايير مزدوجة - التسامح فى حالة الضعف، والإضطهاد فى وقت القوة. فى سنة ١٥٧٩ كتب «جورج ايدر George Eder» الكاثوليكي يقول: «فى المناطق التى يسود عليها البروتستانت لا تسامح أبداً مع الكاثوليك، إنهم يُذلون ويطردون من بيوتهم وأراضيتهم ويُرغمون على الهروب إلى المنفى.. لكن حالما تمضى دولة كاثوليكية فى نفس الطريق يضطرب كل واحد ويتهم الأمير الكاثوليكي بهدم سلام الدين». ويقول: «دانيال جالونى Daniel Jaconi» اللوثرى (١٦١٥): «طالما أن الكالفينيين ليسوا فى مركز القوة.... فإنهم لطفاء وصابرون، يقبلون الحياة مشتركة معنا. لكن حالما يصبحون سادة الموقف لا يتسامحون فى حرف من كلمة فى العقيدة اللوثرية».^(١)

تعصب البروتستانت

بدون شك، هذا الروح المتزايد للتحزب وعدم الاحتمال، الذى لم يكن ما قصده المصلحون، أدى إلى زوال الوهم من كثيرين وعودتهم إلى الكنيسة الكاثوليكية. أين كان إنجيل المسيح لما استطاع ناظم الترانيم العظيم «بول جيرهارت Paul Gerhardt» اللوثرى أن يقول، «لا يمكننى أن أعتبر الكالفينيين مسيحيين؟»^(٢) أو حتى أبدأ... ذهبت ترنيمة لوثرية إلى القول، «احفظنا يارب فى كلمتك ودبر قتل البابا

(1) Johnson, op. cit. p. 290

(2) Jedin, op. cit. p. 429

والأتراك»^(١) بل حتى فى القرن العشرين كان ينتظر من بعض المشيخيين أن يقرأوا بأن البابا هو «ضد المسيح».

تكاثر الطوائف المتطرفة

فرق أخرى كثيرة معظمها متطرفة تتابعت بسرعة وراء منكرى عماد الأطفال. وكثير منها لم يكن ليعيش طويلاً، لكن الكل كانوا يعتقدون أنهم تلقوا نوراً خاصاً، وأنهم وحدهم كنيسة يسوع المسيح الحقيقية. كان هناك «المونزيريون Mun-zerites (انظر صفحة ١٧٠) The Adamists والأدميون الذين ساروا عراة، والشيطانيون The Devillers «الذين اعتقدوا أن الشيطان يخلص فى يوم الدينونة. كان هناك «البولسيون The Paulinists الذين إدعوا أن لديهم رسائل بولس الأصلية، والأخوة النائحون Weeping Brethren والأخوة الصامتون The Silent Ones الذين حرموا الوعظ والفاجرون Libertines الذين كانوا يضاجعون جهاراً.

الطائفية

أحد المصلحين «مارك أنطونيو فاروتو Marcanjtonio Varotto» عاد منضماً إلى الكنيسة الكاثوليكية، وفى سنة ١٥٦٨ قال: «تركت مورافيا لأننى أثناء الشهرين اللذين قضيتهما هناك رأيت معتقدات وطوائف كثيرة.... الكل يضعون كتب تعليم الدين، الكل يرغبون أن يكونوا قسوساً، الكل يجذبون الحبل فى اتجاهات مختلفة، الكل يدعون أنهم الكنيسة الحقيقية. فى بلدة صغيرة «اوسترليتز Austerlitz» يوجد ١٣ أو ١٤ طائفة مختلفة»^(٢) يحزننا أن نقول إن خطية الطائفية تستمر إلى يومنا هذا. فى عصر مسكونى عندما تتحد بعض الكنائس، تجد كنائس أخرى السبب للانفصال.

(1) Ibid. p. 428

(2) Johnson, op. cit. p. 293

(١) نتائج إيجابية

الثورة فى الحياة الشخصية

المكتبات ملأى بالمجلدات التى تقيم نتائج الإصلاح. إنها حقل آخر تماماً. بعيداً عن مجال البيان التاريخى البسيط، فإن الثورة الاجتماعية والسياسية والعقلية الدينية التى خلقها الإصلاح فى حياة الرجل الغربى سيستمر تحليلها لعدة سنوات قادمة. كما يقول أحد الكتاب: «.....» كان الإصلاح ثورة لم يسبق لها مثيل فى عصر تغلغل فيه الدين إلى كل نواحي الحياة. ولأن الأغلبية العظمى من الناس الذين لم تتغير حالتهم الاجتماعية ووضعهم الاقتصادى تغييراً درامياً على مدى العمر، فقد نجم عن الإصلاح هزة فى العالم المعروف وقتئذ..... قليلون يمكنهم الشك فى أن إمكانية التغيير الشخصى زادت مع اندماج الإصلاحات البروتستانتية فى قوانين ومؤسسات القرن السادس عشر»^(١)

دين للناس البسطاء

هذا التنبيه على التغيير فى الحياة الشخصية، هو الذى نريد أن نختم به هذا المجلد. قصة الإصلاح لها شأن كبير مع الأمراء والبابوات والعلماء، لكن المواطن العادى المجهول الاسم هو الذى وجد عالماً جديداً بأكمله. عالم الإمكانيات العقلية والروحية يفتح أمامه. طبقاً لوصف «شادويك Chadwick» «الصلوات العائلية كانت إلى حد كبير أكثر شيوعاً - معرفة الكتاب واسعة الانتشار ودائماً عميقة - السلوك فى الكنائس أكثر احتراماً - الزامير أصبحت أغنيات الشعب. ازدهر الأدب الدينى والشعر - وكان كتاب «سياحة المسيحى» ليوحنا بنيان John Bun- yan» قمة فى المؤلفات الدينية للإصلاح..... أنشاد تسبحة الحمد بالنعمة

(1) Ozment, op. cit. pp. 435-436

العظمى - متابعة تنمية الأخلاق المسيحية موجهة ليس للاختصاصيين بل لأبسط
قلب خدم فى الحقول أو فى المطبخ»^(١)

أهمية العلمانى

أعاد الإصلاح للعلمانى مكانه الشرعى وعمله فى «جسد المسيح». يقول لوثر:
" لا كاهن هناك ولا علمانى - لا راهب ولا قسيس - لا غنى ولا فقير -
" لا راهب بندكتينى ولا كارتوزيانى Carthusian لا أخ فريد بسيط ولا
أغسطينى
" لأنها ليست قضية هذا أو ذاك وليست قضية المركز الاجتماعى أو الدرجة
أوالنظام».

ويقول وليم تيندال William Tyndale

" يامن تخدم فى المطبخ ولست إلا صفحة لمطبخ.... أنت
" تعلم أن الله وضعك فى هذه الوظيفة..... وإذا كنت تقارن
" عملاً وعملاً فهناك فرق بين غسل الصحون والكرازة
" بكلمة الله، لكن فيما يتعلق بإرضاء الله لا أحد بالمرّة!.....

ويختتم جون نوكس John Knox بالقول:

" هذه هى النقطة التى أقول فيها إن كل الناس متساوون،
" الزموا بيوتكم أيها الأساقفة والملوك».^(٢)

(1) Chadwick, op. cit. p. 443

(2) Johnson, op. cit. p. 273

تاريخ الكنيسة

إن كلمة تاريخ هنا لا تعنى الماضى
فحسب، وإنما تعنى قصة كفاح وصمود
فى مواجهة مخاطر واضطهادات تمس
كيان الكنيسة والإنسان، وبدع
وهرطقات هدامة للتعليم والإيمان.

عندما تفرغ ياعزيزى القارىء من
قراءة الجزء الرابع الذى بين يديك تكون
قد عرفت كيف وصل إلينا الإيمان وما
انعقد من مجامع كان لها تأثيرها
القوى على الكنيسة، وغيرها من
الأحداث التى وقعت فى العصور
الوسطى، تلك التى أسفرت عن
الاصلاح البروتستانتى.



دار الثقافة

